الجمهورية اليمنية
جامعة صنعاء
نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية اللغات
قسم اللغة العربية والترجمة

بلاغةُ الحِجَاج

في سورة الأَنعام

رسالة مقدمة إلى قسم اللغة العربية والترجمة بكلية اللغات – جامعة صنعاء
لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة :

إيمان محمد أحمد علي المحاقري

بإشراف :

الدكتور/ أحمد مقبل المنصوري

المشرف الرئيس

1430 – 1429هـ

2009 – 2008م

الجمهورية اليمنية
جامعة صنعاء
نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي
كلية اللغات
قسم اللغة العربية والترجمة

بلاغةُ الحجَاج

في سورة الأَنعام

رسالة مقدمة إلى قسم اللغة العربية والترجمة بكلية اللغات – جامعة صنعاء
لنيل درجة الماجستير

إعداد الطالبة :
إيمان محمد أحمد علي المحاقري

بإشراف :
الدكتور/ أحمد مقبل المنصوري
المشرف الرئيس

1429 – 1430هـ

2008 – 2009م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهوريه اليمنيه
جامعة صنعاء
كلية اللغات
قسم اللغة العربية والترجمة

Republic of Yemen
SANA'A UNIVERSITY
FACULTY OF LANGUAGES

إقرار المشرف

أشهدُ أنَّ هذه الرسالة الموسومة بـ " بلاغة الحجاج في سورة الأنعام " قد أعدَّها طالـبهُ" الماجستير " / إيمان سعد أحمد الحاجري ، بإشـرافي في جامعـة صـنعاء – كليـة اللغـات ؛ قسم اللغـة العربيـة والترجمـة ، لينـال بموجبهـا درجـة " الماجستير " في اللغة العربية .

المشرف

الاسم / د. أ. [illegible] محمد المصري

التوقيع /

التاريخ : ٤/ ٤/ ٢٠٠٩

بناءً على التوصية أرشح هذه الرسالة للمناقشة .

رئيس القسم

الاسم : / د. ذكرى يحيى القبيلي

التوقيع : / ٤/ ٤/ ٠٩

التاريخ : ٤/ ٤/ ٢٠٠٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

الجمهورية اليمنية
جامعة صنعاء
نيابة الدراسات العليا والبحث العلمي
الإدارة العامة للدراسات العليا
ادارة الدراسات العليا

رقم القرار (١٣١) لسنة ٢٠٠٩م
تاريخ المناقشة: ٢٠٠٩/٧/٥م
مكان المناقشة: علي ولد زايد

قرار لجنة المناقشة والحكم رقم (١٣١) لسنة ٢٠٠٩م

إنه في يوم الأحد ١٣/رجب/١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩/٧/٥م اجتمعت لجنة المناقشة والحكم على رسالة **الماجستير** المقدمة من الطالبة/ **إيمان محمد احمد المحاقري** المسجلة بكلية/**اللغات** قسم/**اللغة العربية والترجمة** والمشكلة بقرار من مجلس الدراسات العليا والبحث العلمي في محضر اجتماعه (الرابع) بتاريخ ٢٠٠٩/٥/٣ م بتشكيل لجنة المناقشة والحكم من الأساتذة:-

١- د/ احمد مقبل المنصوري	المشرف الرئيس على الرسالة	رئيساً
٢- د/ حفيظة صالح ناصر الشيخ	ممتحناً خارجياً – جامعة عدن	عضواً
٣- د / هوازن عزة إبراهيم	ممتحناً داخلياً – جامعة صنعاء	عضواً

عن رسالتها الموسومة بـ(**بلاغة الحجاج في سورة الأنعام**)

وقد قامت الطالبة بعرض موضوع رسالتها بشكل ممتاز ....

وناقشت اللجنة الطالبة. وبناءً على ما تقدم توصي اللجنة بالآتي:-

تمنح الطالبة/ إيمان محمد احمد المحاقري، درجة الماجستير في اللغة العربية والترجمة تخصص/ البلاغة مع التوصية بطبع الرسالة ....

توقيعات أعضاء لجنة المناقشة والحكم على القرار:-

١- د/ احمد مقبل المنصوري
٢- د/ حفيظة صالح ناصر شيخ
٣- د/ هوازن عزة إبراهيم

مدير عام الدراسات العليا
أ/ عبد الرزاق عبد الله المحبشي

نائب رئيس الجامعة للدراسات العليا والبحث العلمي
أ.د/ حاتم محمد الصباحي

*ملاحظة: الدرجة تمنح بدون تقدير مع العلم بأن عرض الطالبة لموضوع رسالته أثناء المناقشة لا يعتبر تقديراً.

ص . ب : ١٢٠٨١ صنعاء – تلفون : ٢١٤٧٨٩ – فاكس: ١٤٠٧٢ – البريد الإلكتروني : www.vgssr.net

إهداء (1)

إلى الحَبِيْبِ المُصطَفَى ﷺ

مَنْ أَدَّى الأَمَانَة

وَبَلَّغَ الرِّسَالَة

وَنَصَحَ الأُمَّة ....

إهداء (2)

قال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:14]

إلى من كان لهما الفضل الأول عليّ بعد الله - عزَّ وجل -

إلى صاحب القلب الكبير ......

حُبّاً ووفاءً وعِرفاناً بالجميل .... **والدي الكريم**

وإلى آية الحب والحنان، نبع العطاء ورمز الصفاء...

من غمرتني بحبها، وآزرتني بدعائها...

مُعلّمتي الأولى .... **أمّي الحبيبة**

بكُمَا يَلُوحُ الحلم

ويَتَجَدّدُ الأمل

وتَذِلُّ الصِّعَاب

إيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝﴾، والصَّلاةُ والسَّلامُ على نبيِّ الرحمةِ وإمامِ المرسلين، سيدنا وحَبيبنَا محمدِ بن عبد الله الصَّادقِ الأمين، أفصَحَ من نطق بلسانٍ عربي مبين، وعلى آله وصحبه ومن اتبع سنته إلى يوم الدين.

أمَّا بَعدُ: فلا يخفى على أحدٍ من الباحثين اتساع رقعة الدراسات التي تناولت القرآن الكريم وتعددها موضوعاً ومنهجاً، فقد كان قصداً للعلماء قديماً وحديثاً، كلٌّ يغوص في أعماقهِ بحثاً عن أسراره وعجائبه وتتبعاً لروعته وفصاحته ووقوفاً على إعجازه وبلاغته.

إن القرآن الكريم خطاب موجه للبشرية جمعاء، ليس مقصوراً على أفراد أو جماعاتٍ دون أخرى، وليس مؤطراً بزمانٍ أو مكانٍ مُعَيَّنَيْن، إنه سِفرٌ مفتوح على الزمان والمكان والإنسان، نزل ليُسَطِّر للفرد نظام العلاقات (علاقته بخالقه، وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره من البشر وبقية الكائنات والكون من حوله)، فشرَّع الأحكام، ووضَّح المقاصد، وبيَّن طرائق المعاملات؛ فخطَّ بذلك الطريق التي يجب أن يسير عليها الفرد ليكفل له في كل وقت وحين حياةً كريمة تتلاءم وفطرته التي جُبِلَ عليها، هذه الفطرة التي لو خرج عنها حاد عن الطريق السوي.

ولأن قوة أي خطاب تتوقف على قدرته على إحداث تواصل ناجح، لا يتحقق له إلا إذا حاز على قدر من الإجماع من خلال الإقناع والمـُحَاَجَجَة، فإن المتأمل في القرآن الكريم يجدهُ خطابَ حِجَاجٍ موجهاً للتأثير في آراء المخاطبِيْن؛ غايتهُ استمالة العقول وتوجيه النفوس وتقويم السلوك، ولأنه كذلك فقد سخَّر العديد من الآليات والأساليب الحِجَاجِيَّة التي تُحقّق هذه الغاية، وتكفل له التأثير والاستمالة.

ومن ثَمَّ فإن هذا البحث يهدف إلى الكشف عن آليات الحِجَاج ومقوِّماته في سورة الأنعام. هذه الآليات والمقومات التي تبدو وكأنها من نتاج الدراسات الحديثة تأصيلاً وتنظيراً

في الوقت الذي كان القرآن الكريم قد استعملها منذ أربعة عشر قرناً مستوفياً بنية الحِجَاج: عناصر وآليات ومقومات. وهذا – بالطبع – جزء من إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه.

وتتجلى أهمية هذا الموضوع من خلال جملة من الأسباب، أوجز أبرزها في الآتـــــي:

1- ضرورة توجه الدراسات اللغوية والبلاغية صوب النص القرآني بعدِّه الأنموذج الأرقى على الصعيد اللغوي والفكري.

2- أهمية الحِجَاج بوصفه خطاباً يستحضر كل إمكانات اللغة وتقنياتها، يستهدف بذلك استمالة عقل المتلقي والتأثير في سلوكه وآرائه، الأمر الذي جعله يتصدر وسائل الإقناع وآليات الإمتاع في الخطاب العربي.

3- **أما عن اختيار سورة الأنعام و إفرادها بهذه الدراسة فلأسبابٍ أبرزها:**

- تُعَدُّ سورة الأنعام من السور التي حملت طابعاً خاصاً متفرداً في عرضها ومعالجتها لموضوعها الرئيس، وهو (قضايا العقيدة الكبرى)، تخاطب الطبيعة الإنسانية وتحاججها بأدلة عقلية تتفتح لها نوافذ الفطرة وأبوابها وتنهزم أمامها حواجز الكبر والعناد.
- أنها السورة الوحيدة من السور الطوال – كما ورد في كثير من الروايات– التي نزلت جملة واحدة؛ كونها أصلاً في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذَّب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة؛ لأنها في أصل واحد من الحُجَّة.
- تُعَدُّ أجمع سور القرآن لكثيرٍ من أحوال العرب في الجاهلية وأشدها مقارعة وجدالاً لهم واحتِجَاجاً على سفاهة أحوالهم، ما جعلها أنموذجاً بارزاً للحِجَاج والإقناع.

ولـمَّا كان هدف هذا البحث هو الوقوف على الحجاج في سورة الأنعام، وتتبع الآليات والمقومات الحِجَاجِيَّة التي تنهض بالخطاب الحجاجي بلاغيّاً، ضمن منهجٍ يُبْرِزُ العلاقات المختلفة لأطراف الخطاب في سياقاته المتنوعة، ويكشف عن دورها في تكوين بنية الخطاب

وإحداث التأثير في المتلقي، فقد رأينا أن خير منهج يفي بذلك هو (**المنهج التداولي**) بوصفه المنهج الذي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل، مع مراعاة ما قد تستدعيه المعالجة البلاغية للنص القرآني من مناهج أُخر تفيد منها الدراسة بالحدود التي تتجلى فيها بلاغة الحِجَاج في السورة كالمنهج الوصفي والتحليلي والتاريخي والمنهج الأسلوبي بآلياته المختلفة.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يُبنى على تمهيد وثلاثة فصول، تسبقها مقدمة وتقفوها خاتمة.

1- **التمهيد**: وقد جاء على قسمين – رأينا ضرورتهما من أجل الانطلاق منهما إلى رحاب البحث- تناول القسم الأول منه توصيفاً كاملاً للسورة، شمل خصائص السورة وموضوعها، وأغراضها المختلفة وتسميتها، فيما تناول القسم الثاني مِهَاداً نظريّاً حول الحِجَاج بعنوان (الحِجَاج بين التنظير والاستعمال)، اختصَّ بتعريف الحِجَاج وأهميته وأنواعه، مروراً بأنواع الحُجَج، وطريقة القرآن في المُحَاجَّة، وانتهاءً بوقفة على علاقة الحِجَاج بالبرهان والفرق بينهما عند القدماء والمحدثين.

2- **الفصل الأول**: وجاء بعنوان (عناصر الخطاب ودورها في إنتاج الخطاب الحِجَاجي)، وفيه مبحثان، تناول المبحث **الأول** منه (المخاطِب ودوره في إنتاج الخطاب الحِجَاجي) وذلك من خلال محورين رئيسيين قام عليهما هذا المبحث هما: **الكفاية التواصلية، وسيمولوجيا التواصل**.

فيما تناول **المبحث الثاني** (المخاطَب ودوره في إنتاج الخطاب الحِجَاجِي)، ويناقِش هذا المبحث دور المخاطَب في بناء الخطاب الحِجَاجي، انطلاقاً من أن الخطاب وتداوله مرهون إلى حدٍ كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض تلك الحال من الناحية الإدراكية، فيمارس بذلك – بشكل غير مباشر – دوراً في توجيه المخاطِب عند اختيار أدواته وصياغة خطابه.

3- **الفصل الثاني**: وعُقِدَ لدارسة (المقومات الحِجَاجيَّة اللغوية ودورها في الإقناع)، وقد تضمن مبحثين، تناول **المبحث الأول** (بلاغة اللفظ وأبعاده الحِجَاجِيَّة) وفيه كان الحديث عن

الأبعاد الحِجَاجِيَّة التي اكتسبتها المفردات في سورة الأنعام، من خلال بعدين رئيسيين هما: **البعد اللغوي، والبعد التداولي.**

فيما تناول **المبحث الثاني** (بلاغة التركيب وأبعاده الحِجَاجيَّة)، حيث أُفْرِدَ لدراسة التركيب في سورة الأنعام ورَصْد علاقاته المختلفة من منظورين: **منظور بلاغي**: يراعي بلاغة النظم وما يطرأ عليه من انزياحات وعدول، ثم **منظور تداولي**: باعتبار التأثيرات التي يُحْدِثُها ببلاغته وقدرته على الإيحاء بما يضمن إقناع المتلقي.

4- **الفصل الثالث**: وقد خُصِّصَ لدراسة (المقومات الحِجَاجيَّة الجمالية ودورها في الإقناع)، وجاء في مدخل ومبحثين. أما **المدخل** فقد كان من الأهمية بمكان للتطرق إليه قبل الولوج في مبحثي الفصل، وقد خُصِّصَ لدراسة (علاقة الإمتاع بالإقناع)، فيما تناول **المبحث الأول** (بلاغة الصورة ودروها في الإقناع) وبحث حِجَاجيَّة الصورة من ناحيتين، مادة الصورة من ناحية، وشكلها من ناحية أخرى.

أما **المبحث الثاني** فقد تناول (بلاغة الإيقاع ودوره في الإقناع) حيث بحث فاعلية الإيقاع في إبراز المعاني والتأثير في المتلقي.

وانتهى البحث إلى **خاتمة** تضمنت نتائج البحث، وأهم ما جاء نيه، ثم رُدِفت بالمصادر والمراجع التي عوَّلنا عليها في بحثنا هذا، والتي تنوعت بين القديم والحديث لتشمل علاوة على كتب التفسير وعلوم القرآن والبلاغة والنقد، كتب الحديث والنحو واللغة والفلسفة، والمعجمات، بالإضافة إلى كتب اللسانيات الحديثة. وقد أفدنا منها بالقدر الذي اقتضته ضرورة ومنهجية هذه الدراسة.

وفي الختام، بعد الحمد لله الذي له الحمد في الأولى والآخرة، على فضله وعونه ومَنّه، أتقدم بجزيل الشكر والتقدير لكل من كان له يدُ فضلٍ، من قريب أو بعيد، في سبيل إنجاز هذا البحث، وعلى رأسهم أستاذي القدير الدكتور أحمد مقبل المنصوري؛ لتفضله بقبول الإشراف على إعداد هذه الرسالة، ولما أبداه من أناة وسعة صدر، وفضل متابعة للبحث

بملاحظاته السديدة وأولاه كل عناية واهتمام، فكان لي نعم المرشد، أسأل الله – عزَّ وجل – أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما أتقدم بخالص الشكر والتقدير لأساتذتي الأفاضل في قسم اللغة العربية والترجمة الذين نهلتُ من علمهم الغزير، وأفدتُ من خبراتهم الواسعة طوال مشواري العلمي، وأخصُّ بالذكر منهم أساتذتي الأجلاء: الدكتور أحمد قاسم الزمر، والدكتور عبد الله طاهر الحذيفي، والأستاذ الدكتور عبد الواسع الحميري، الذي كان له فضل إرشادي إلى موضوع هذه الرسالة، أسأل الله تعالى، أن يثيبهم جميعاً عني أحسن الثواب.

كما أتقدم بالشكر الجزيل – سلفاً – للأساتذة الأفاضل رئيس وأعضاء لجنة المناقشة، لتفضلهم بالموافقة على مناقشة هذه الرسالة، ولتجشُّمهم عناء القراءة والتقويم، ولما سيطرحونه من ملاحظات وتصويبات وآراء، سيكون لها الأثر في سمو هذه الدراسة، والوصول بها إلى مستوى أفضل، مما يجعلها أرفع ذكراً وأعم نفعاً، راجية من المولى عزَّ وجل أن يجزيهم أحسن ما يجزي المحسنين.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أتقدم بوافر الحب والامتنان، وأسمى آيات الوفاء والعرفان لجميع أفراد أسرتي الأعزاء الذين كانوا ومازالوا هم العون والسند – بعد الله عزَّ وجل – أسأله في عليائه أن يديم المحبة بيننا وأن يرفع شأننا في الدنيا والآخرة.

وأخيراً : يظل هذا البحث ثمرة جهد متواضع لباحثة وضعت أُولَى خطاها على طريق البحث العلمي، فإن وُفِّقَتْ إلى ما تصبو إليه، فمِنَّةٌ من الله وفضل، وإن أَخْفَقَتْ فمن نفسها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وليس الكمال إلا لله وحده، وحَسْبُها منه أنها بذلت غاية جهدها، وقدمت ما بوسعها، وأخذت بأسباب الموضوعية والمنهجية العلمية قدر استطاعتها، والله لا يضيع أجر المحسنين.

أسأل الله القدير أن يتقبلَ هذا العملَ خالصاً لوجهه الكريم، إنه قريب مجيب الدعاء.

الباحثة

التمهيد

أولاً: توصيف السورة.

ثانياً: الحِجَاج بين التنظير والاستعمال.

أولاً : توصيف السورة:

سورة الأنعام، مكية في قول الأكثرين . فعن ابن عباس: أنها نزلت بمكة ليلاً جملة واحدة كما رواه عنه عطاء وعكرمة والعوفي وابن مردويه، و هو الموافق لحديث ابن عباس عن رسول الله ﷺ[1].

وقد أُختُلِفَ في آياتٍ منها عُدَّت من الآيات المدنية؛ أخرج ابن المنذر عن أبي جحيفة قال: كلها مكية إلاَّ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:111]، فإنها مدنية [2] .

وقال ابن عباس و قتادة هي مكية إلا آيتين منها نزلتا بالمدينة قوله تعالى :﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ [الأنعام:91] نزلت في مالك بن الصيف[3] و كعب بن الأشرف اليهوديين ، والأخرى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ ... ﴾ [الأنعام:141]، نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري. وقال ابن جريج : نزلت في معاذ بن جبل[4] .

---

(1) ينظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي (ت: 911)، تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، د/ عبد السند حسن يمامة، ط1، القاهرة، 1424هـ–2003م: 6/ 5 ، وتفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ)، الدار التونسية، د.ط، 1984م: 7/ 121، 122.

(2) ينظر : الدر المنثور:6/ 8، وروح المعاني (تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني) – أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الآلوسي البغدادي، إدارة الطباعة المنيرية – دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت: 7/ 75 .

(3) وهو الذي قال: ما أنزل الله على بشر من شيء .[ينظر: الدر المنثور: 6/ 9 ، وروح المعاني: 7/ 75].

(4) ينظر : زاد المسير في علم التفسير- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (ت: 597هـ)، المكتب الإسلامي - بيروت، ط3، 1984م: 3/ 2، والجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: 671هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ط، 1405هـ - 1985م: 6/ 382، و الدر المنثور: 6/ 9.

وأخرج النحاس في ناسخه عن الحبر أنها مكية إلا ثلاث آيات منها فإنها نزلت بالمدينة قوله تعالى:﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ.. ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث [الأنعام: 151- 153] (1)

وروى غير واحد : كلها مكية إلا ست آيات منها نزلت بالمدينة قوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ... ﴾ [الأنعام:91] إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ... ﴾ إلى آخر ثلاث آيات [الأنعام: 151- 153] (2)، وقال مقاتل نحو ذلك و زاد آيتين هما قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ ... ﴾ [الأنعام:114] ، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ... ﴾ [الأنعام:20] (3).

وجاء في تفسر الجلالين أنها مكية إلا الآيات : [20،23،91،93،114،141، 151، 152، 153] فهي مدنية (4).

وهذا لا ينافي كونها نزلت جملة واحدة، ذلك لأن أسباب نزول تلك الآيات "إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة فيكون نزول تلك الآيات مسبباً على تلك الحوادث، وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات. على أن أسباب النزول لا يلزم أن يكون مقارنة لنزول آيات أحكامها. فقد يقع السبب و يتأخر تشريع حكمه"(5) .

(1) ينظر : الدر المنثور: 6/ 8، وروح المعاني: 7/ 75.

(2) ينظر: وزاد المسير: 3/ 2، والجامع لأحكام القرآن: 6/ 382، وفتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية في علم التفسير – محمد بن على الشوكاني، دار الفكر، لبنان – بيروت، د.ط، د.ت، 2/ 96، وروح المعاني: 7/ 76.

(3) ينظر : زاد المسير في علم التفسير: 3/ 1.

(4) ينظر : تفسير الجلالين، جلال الدين محمد بن أبي المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911هـ)، مكتبة الخير، صنعاء، د.ط، د.ت : 117، وفي ظلال القرآن– سيد قطب، دار الشروق، ط11، 1402هـ – 1982م: 2/ 1021.

(5) التحرير والتنوير: 7/ 123.

روى ابن عاشور في تفسيره عن ابن حصار، قال: " لا يصح نقل في شيء نزل من الأنعام في المدينة. وهذا هو الأظهر الذي رواه أبوعبيد والبيهقي وابن مردويه والطبراني عن ابن عباس ، وأبو الشيخ عن أبي بن كعب" [1].

وقد نزلت سورة الأنعام على رسول الله ﷺ كما ورد في كثير من الروايات [2] – ليلاً جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك ، موكبٌ من الملائكة سدَّ مابين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح و الأرض بهم ترتج، ورسول الله يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم .

وتُعَدُّ سورة الأنعام الخامسة والخمسين في عَدِّ تنزيل السور، نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات [3]. ترتيبها في المصحف السادسة، بعد المائدة وقبل الأعراف، وآياتها مائة وخمس وستون آية [4]. وهي: مائة وخمس وستون آية كوفي، وأربع وستون بصري. وقيل هي عند الكوفيين مائة وخمس وستون آية، وعند البصريين والشاميين مائة وست وستون، وعند الحجازيين مائة وسبع و ستون آية [5].

---

(1) التحرير و التنوير: 7/ 122.

(2) ينظر: معاني القرآن الكريم - أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ)، تحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العليمة وإحياء التراث الإسلامي – جامعة أم القرى، مكة المكرمة– المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ - 1988م: 2/ 397، ومعالم التنزيل – الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت: 516هـ)، إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت– لبنان، ط1، 1406هـ - 1986: 2/ 83، وزاد المسير: 3/ 1، وتفسير الثعالبي المسمى (بالجواهر الحسان في تفسير القرآن – عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (ت: 875 هـ)، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه: الشيخ: علي محمد معوض، والشيخ: عادل أحمد عبد المجود، وشارك في التحقيق: أ. د/ عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1418هـ - 1997م:2/ 442، والدر المنثور: 6/ 7– 8، وروح المعاني:7/ 76، والتحرير و التنوير: 7/ 121.

(3) ينظر : التحرير و التنوير: 7/ 123.

(4) ينظر : تفسير الجلالين : 117، والدر المنثور: 6/ 116.

(5) ينظر : روح المعاني: 7/ 76.

وقد ورد في فضل هذه السورة وفضل آيات منها روايات كثيرة عن النبي ﷺ عن ابن مسعود وابن عمر وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك و ابن عباس وأسماء بنت يزيد [(1)].

خصائص السورة :

ذكر الدارمي أبو محمد في مسنده عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: الأنعام من نجائب القرآن[(2)]. و هي السورة الوحيدة من السور الطوال – كما جاء في روايات كثيرة – التي نزلت جملةً واحدة[(3)]. قال العلماء: "هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، و هذا يقتضي إنزالها جملة واحدة، لأنها في أصل واحد من الحجة. وعليها بنى المتكلمون أصول الدين" [(4)].

---

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 6/ 382 ، والدر المنثور: 6/ 10، 11، وفتح القدير : 2/ 97، وروح المعاني: 7/ 76.

(2) ينظر: الجامع لأحكام القرآن :6/ 382 ، و الدر المنثور: 6/ 9، و فتح القدير : 2/ 97.

(3) ينظر: معاني القرآن الكريم: 2/ 397، تفسير القرآن العظيم – أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420– 1999م: 3/ 238، والدر المنثور:8/ 9، وفي ظلال القرآن: 2/ 1022، والتحرير و التنوير: 7/ 122. قال الأصوليون : "السبب في إنزالها دفعة واحدة أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوءة والمعاد و إبطال مذاهب المعطلين والملحدين فإنزال ما يدل على الأحكام قد تكون المصلحة أن ينزل الله على قدر حاجاتهم وبحسب الحوادث و أما ما يدل على علم الأصول فقد أنزله الله جملة واحدة ." [التحرير و التنوير: 7/ 122]. ولعل حكمة إنزالها جملة واحدة هو قطع تعلل المشركين في قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ [الفرقان:32] ، توهماً منهم أن تنجيم نزوله ينافي كونه كتاباً، فأنزل الله سورة الأنعام، وهي في مقدار كتاب من كتبهم التي يعرفونها كالإنجيل والزبور، ليعلموا أن الله قادر على ذلك. [ينظر: التحرير والتنوير: 7/ 122]. وأيا كان السبب ففي كليهما رد قوي وحجة قاطعة وبرهان ساطع على حججهم الزائفة ودحضها. وأيضاً ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلام، من قصر وطول وتوسط، لأن طول الكلام قد يقتضيه السياق .

(4) الجامع لأحكام القرآن: 6/ 383، وفتح القدير: 2/ 97. وقد روى السيوطي أن في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[الأنعام: 1] ، رداً على ثلاث أديان منهم " فكان فيه رد على الدهرية لأن الأشياء كلها دائمة، ثم قال : وجعل الظلمات والنور، فكان فيه رد على المجوس الذين زعموا أن الظلمة و النور هما المدبران وقال: ثم الذي كفروا بربهم يعدلون فكان فيه رد على مشركي العرب ومن دعا دون الله إليها." [الدر المنثور: 6/ 13].

كما تعد أجمع سور القرآن لكثير من أحوال العرب في الجاهلية و أشدها مقارعة وجدالاً لهم واحتجاجا على سفاهة أحواهم [1] . ففي البخاري عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب ، فاقرأ فوق الثلاثين و مائة من سورة الأنعام[2]، ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:140].

موضوع السورة :

تُعَدُّ سورة الأنعام من السور التي حملت طابعاً خاصاً متفرداً في عرضها و معالجتها لموضوعها الرئيس، وهو العقيدة (وحقيقة الألوهية)، بكل مقوماتها وبكل مكنوناتها، وهي تأخذ بمجامع النفس البشرية، تخاطب الفطرة الإنسانية وتحاججها بأدلة عقلية تتفتح لها نوافذ الفطرة وأبوابها و تنهزم أمامها حواجز الكبر والعناد . نزلت هذه السورة في السنوات الأولى للرسالة، الخامسة أو السادسة، و هي المدة التي كان يعيش فيها المسلمون حالة من الظلم والاضطهاد من قبل كفار قريش. المدة التي اشتد فيها إيذاء الكفار للمسلمين، وطال إعراضهم وتكذيبهم للرسول صلى الله عليه و سلم ، الأمر الذي كان يقتضي التوسع في عرض القضايا العقيدية على هذا النحو، كما كان يقتضي – أيضاً – تسلية رسول الله عن طول الصد والتكذيب والإعراض [3]. إضافة إلى أن المسلمين في هذه الفترة كانوا أحوج ما يكونون لدفعات إيمانية تثبتهم وتصبرهم وتهون عليهم شدة المعاناة وقسوة الاضطهاد الذي كانوا يتعرضون له.

خُصِّصت سورة الأنعام " لمحاورة جميع المعرضين عن الإسلام و المعاندين لدعوته من أصحاب الملل و النحل المختلفة ، فلم تترك أصحاب ملة ضالة وعقيدة فاسدة قديمة أو

[1] ينظر: التحرير والتنوير : 7/ 125.

[2] ينظر: الجامع لأحكام القرآن : 6/ 383، والتحرير والتنوير: 7/ 125.

[3] ينظر: في ظلال القرآن: 2/ 1020 .

حديثة إلا حاورتهم في آياتها وجادلتهم، و بيّنت فساد ملتهم و ضلال نحلهم"[1].

إنها بحق سورة الحِجَاج والبراهين، لذا بُدِئَتْ "بهجوم كاسح على المخالفين والمعاندين، وكأنها تدعوهم إلى ساحة الجدل و المناظرة لتكشف زيفهم و تظهر ضعفهم"[2]، قال تعالى: ﴿الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾. [الأنعام: 1].

كما نجد الحديث في هذه السورة مستفيضاً يدور حول القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة و الإيمان:

- قضية الألوهية
- قضية الوحي والرسالة .
- قضية البعث و الجزاء .

وما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور هما[3] :

- أسلوب التقرير .
- أسلوب التلقين .

أما أسلوب التقرير فإن القرآن يعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله و الدلائل المنصوبة على وجوده وقدرته، وسلطانه و قهره. أما الأسلوب الآخر (أسلوب التلقين): فإنه يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك

---

[1] بصائر الحق في سورة الأنعام – عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم – دمشق، دار الشامية – بيروت ، ط 1، 1410هـ - 1990م: 9.

[2] نفسه: 9.

[3] ينظر: قبس من نور القرآن – الشيخ محمد علي الصابوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1997م-1418هـ: 2/ 124-125.

عليه قلبه فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب ، قال تعالى:﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:12]، وقال تعالى:﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾. [الأنعام: 46].

هكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين و إفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل. لذا كانت سورة الأنعام ذات شأن في تركيز الدعوة الإسلامية ، تقرر حقائقها، وتثبت دعائمها، وتفند شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في الحِجَاج والمناظرة، فهي تَذْكر توحيد الله جل وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة، وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين، وتَذْكر شبهاتهم في الوحي والرسالة، وتَذْكر يوم البعث و الجزاء، وتبسط كل هذا بالتنبيه إلى الدلائل في الأنفس والآفاق، وفي الطبائع البشرية وقت الشدة والرخاء[1].

أغراض السورة:

وللسورة أغراض أوردها ابن عاشور في تفسيره[2]، يمكن إيجازها في الآتي:

1. بدأت بإشعار الناس بأن حق الحمد ليس إلا لله لأنه مبدع العوالم، المتفرد بالألوهية. وإبطال تأثير الشركاء من الأصنام والجن بإثبات أنه المتفرد بخلق العالم جواهره وأعراضه وخلق الإنسان ونظام حياته وموته بحكمته تعالى وعلمه ولا تملك آلهتهم تصرفاً ولا علماً.
2. تنزيه الله عن الولد والصاحبة.

---

(1) ينظر: قبس من نور القرآن : 2/ 125.

(2) ينظر: التحرير و التنوير : 7/ 123- 125.

3. موعظة المعرضين عن آيات القرآن والمكذبين بالدين الحق وتهديدهم بأن يحل بهم ما حل بالقرون المكذبين من قبلهم والكافرين بنعم الله تعالى وأنهم ما يضرون بالإنكار إلا أنفسهم ووعيدهم بما سيلقون عند نزع أرواحهم ثم عند البعث.
4. تسفيه المشركين فيما اقترحوه على النبي ﷺ من طلب إظهار الخوارق تهكما .
5. إبطال اعتقادهم أن الله لقنهم على عقيدة الإشراك قصداً منهم لإفحام الرسول ﷺ.
6. بيان حقيقة مشيئة الله وإثبات صدق القرآن بأن أهل الكتاب يعرفون أنه الحق .
7. الرد على المشركين تكذيبهم بالبعث، وتحقيق أنه واقع وأنهم يشهدون بعده العذاب وتتبرأ منهم آلهتهم التي عبدوها وسيندمون على ذلك، كما أنها لا تغني عنهم شيئاً في الحياة الدنيا فإنهم لا يدعون إلا الله عند النوائب .
8. تثبيت النبي ﷺ وأنه لا يؤاخذ بإعراض قومه وأمره بالإعراض عنهم.
9. بيان حكمة إرسال الله الرسل وهي الإنذار والتبشير وليستْ وظيفة الرسل إخبار الناس بما يتطلبون علمه من المغيبات.
10. بيان أن تفاضل الناس بالتقوى والانتساب إلى دين الله، وإبطال ما شرعه أهل الشرك من شرائع الضلال وبيان أن التقوى الحق ليست مجرد حرمان النفس من الطيبات بل هي حرمان النفس من الشهوات التي تحول بين النفس وبين الكمال والتزكية.
11. ضرب المثل للنبي مع قومه بمثل إبراهيم مع أبيه وقومه؛ وكان الأنبياء والرسل على ذلك المثل من تقدم منهم ومن تأخر.
12. المنة على الأمة بما أنزل الله من القرآن هدى لهم كما أنزل الكتاب على موسى وبأن جعلها الله خاتمة الأمم الصالحة.
13. بيان فضل القرآن ودين الإسلام وما منح الله لأهله من مضاعفة الحسنات.

تسمية السورة:

يذهب الزركشي إلى أن تسمية السورة باسم معين ليس إلا تعضيداً لتقليد معلوم عند العرب . وهو تقليد يراعي في كثير من التسميات أخذ أسمائها من نادر أو مستغرب يكون في الشيء من خُلق أو صفة تخصُّه ، فيسمون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر ما فيها وعلى هذا جرت أسماء سور الكتاب العزيز[1]. و من هذا نستنتج أن هناك علاقة وثيقة بين السورة واسمها حتى أن أسماء السور صارت أعلاماً عليها بدليل أنك لو وضعت اسم سورة أخرى لم يجز ، خاصة منها تلك المسماة بالحروف المقطعة لأنك إذا ناظرت سورة منها بما يماثلها في عدد كلماتها و حروفها وجدت الحروف المفتتح بها تلك السورة إفراداً وتركيباً أكثر عدداً في كلماتها منها في نظيرتها و مماثلتها في عدد كلماتها و حروفها[2] .

وسميت سورة الأنعام لما تكرر فيها من ذكر لفظ الأنعام ست مرات[3]، من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام:136]، إلى قوله: ﴿إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ [الأنعام:144]، وما ورد فيها من تفصيل أحوالها وإن كان قد ورد لفظ الأنعام في غيرها إلا أن التفصيل الوارد فيها لم يرد في غيرها [4] .

ولا شك أن العلاقة بين اسم السورة وموضوعها وثيقة جداً، فالسورة تتحدث عن قضية التوحيد لله عز و جل قولاً وفعلاً و هذه القضية هي المحور الأساس الذي تناولته السورة. ولأن السورة سورة الحِجَاج والبرهان، فقد كان لهذه التسمية جانباً من الاحتجاج أيضاً ، احتجاجا على سفاهة عقولهم و ضيق تفكيرهم في تعاملهم مع الأنعام، فأكثر أحكامها

(1) البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث ، القاهرة، د.ط، د.ت : 1/ 270.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن : 1/ 271 .

(3) ينظر : التحرير والتنوير: 7/ 121.

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 1/ 270.

الموضّحة لجهالات المشركين تقرباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، حيث كانت الأنعام "تمثل ثروة بالنسبة للعرب فكانوا يتعاملون معها بمنطق أنها لهم وليس لله فيها نصيب، بمعنى أن يتصرفوا فيها كما يشاءون"[1] بطريقة لا يقبلها منطق أو فطرة ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام: 136]. ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: 138]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾[الأنعام: 139]، إضافة إلى أن تعاملهم مع الأنعام بهذه الطريقة لدليل قاطع على اتخاذ الشركاء لله عز و جل، ثم التحريم والتحليل فيها افتراء عليه سبحانه، فمن الذي يحلل ويحرم ومن الذي يقضي و يدبر؟!

---

[1] خواطر قرآنية – عمرو خالد ، أريج للنشر و التوزيع ، القاهرة، ط4 ، 1425 هـ – 2004م : 2/ 24 .

ثانياً : الحِجَاج بين التنظير و الاستعمال :

عَرفَ مبحث الحِجَاج تطوراً بارزاً في الدراسات اللغوية والفلسفية لاسيما خلال النصف الثاني من القرن العشرين، بعد أن تعرضت صنعة الخطابة لكساد امتد خمسة عشر قرناً، أي إلى عصر النهضة، وهي الفترة التي شهدت تحول الخطابة إلى بحث في المحسنات البلاغية والأسلوبية مع إغفال شبه تام للأمور المتعلقة بالفعالية الحِجَاجِيَّة الاستدلالية[1] .

وقد تجسدت هذه العودة الجديدة، في الانتشار الكبير للأبحاث المتمحورة حول هذا الموضوع مع مطلع الخمسينات من القرن العشرين، وفي الاهتمام المتزايد للجامعات والمعاهد الغربية بالدرس الحِجَاجِي، حيث كان نتاجاً وتطوراً وفرعاً من فروع اللسانيات الحديثة [2]. خصوصاً، بعد أن تبينت فائدة الحِجَاج في مقاربة مجموعة من الظواهر المستجدة في الفكر الفلسفي، والكثير من الفروع الغلمية الإنسانية، كاللسانيات وعلم الاجتماع وعلم النفس والقانون والاقتصاد[3] .

والحقيقة أن مبحث الحِجَاج أوسع من أن تحده قدرة فرد وأشمل من أن تحيط به مجموعة من الأبحاث، وهذا ما يقرره الكثير ممن كتبوا في الحِجَاج؛ فالحِجَاج لا ينحصر في استعمالات خطابية ظرفية، وإنما هو بُعْد ملازم لكل خطاب على الإطلاق ابتداءً بالحديث اليومي الممارس بين عامة الناس، وانتهاءً بالحديث العلمي الخاص لاسيما علمي المنطق والدراسات اللغوية

---

(1) ينظر: الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، د/ الراضي رشيد، علم الفكر، العدد (1)، المجلد (34)، يوليو – سبتمبر 2005م: 257 .

(2) ينظر: توطئة الفصل الأول من هذا البحث: 49 – 52.

(3) ينظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) – تون. فان دايك، ترجمة وتعليق: د/ سيعد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط2، 2005م: 114.

(اللسانيات)، والسبب في ذلك أن كل خطاب حال في اللغة، تمنحه اللغة العناصر الأولية والقاعدية لكل حِجَاج، أي عناصر الاستدلال والتدليل [1] .

يقول أوريلان: "إن الحِجَاج وهو يستدعي الاستدلالات عن ذاته بواسطة رموز هي أساساً رموز اللغة لكن دون استثناء الصور التمثيلية إنه يعتمد العلاقات بين الأشخاص ويجند مقاصد واستراتيجيات ونظريات الإقناع وهو يتنزل في سياق اجتماعي واقتصادي وسياسي و أيدلوجي وبهذا فهو يندرج ضمن نظم متعددة كالمنطق والفروع المختلفة من دراسة اللسان والأنظمة الرمزية (لسانيات تحليل النصوص والخطابات الدلالية) وعلم النفس وعلم الاجتماع التربوي والتواصلي" [2].

وهذا ما يفترض في المحتج ثقافة واسعة تجعله قادراً على النفاذ إلى عالم المتلقي والفعل فيه بتغيير آرائه ومواقفه، بل وما يرتئيه لنفسه من سلوك وهو شرط أساسي أكدت أهميته البلاغة القديمة [3] .

لذا تُعَدُّ عملية المُحَاجَّة وطرح الحُجَج في أي خطاب نوعاً من النشاط الاجتماعي الذي يُوَجَّه للتواصل والحوار والتفاعل مع الآخرين بهدف الاستمالة والإقناع، وهي عملية تفكير واستدلال عقلي فيما يطرحه الخطاب من وجهة نظر تقبل الجدل بشأن ما تقدمه من أدلة وبراهين سواء بالرفض أو الاتفاق أمام ما يُطرح من وجهات نظر أخرى، وليس فقط ما

---

(1) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) – عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت – لبنان ، ط1، 2001م:33، والحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي – أ/ حبيب أعراب، عالم الفكر، العدد (1)، المجلد (30)، يوليو – سبتمبر، 2001م : 100، والحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 209.

(2) الحِجَاج ، بيار أوريلان ، المطبوعات الجامعية بفرنسا ، 1993م : 87 (la Presses Universitaires de France Pierre Oleron, argumentation)، نقلاً عن الحِجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه) – أ. د/ سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط1، 1428هـ – 2008م: 42 .

(3) ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم : 42 .

يطرحه الخطاب من آراء نهائية، فالمحَاجَجَة تحاول الوصول لحل بين آراء متنازع عليها[1]. وتسلك في ذلك طريق الأفكار والمعتقدات المسلم بها عند المتلقي سعياً إلى حيازة قبوله لتنتهي بذلك إلى إقناعه.

ويضربُ الحِجَاج بجذورٍ قوية في الخطاب العربي، حيثُ لعب دوراً مهماً في الحياة العقدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية[2]، إضافة إلى اعتماد الأسلوب الحِجَاجي في الخطاب العلمي البلاغي[3]. كما نجد ملامح الدرس الحِجَاجي واضحة جلية عند النقاد العرب، منهم الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، والسكاكي في (مفتاح العلوم)، وحازم القرطاجني في (منهاج البُلَغَاء)، وإسحاق بن وهب في كتابه (البرهان في وجوه البيان)[4] وغيرهم كثير.

الحِجَاج في اللغة:

في اللغة العربية نجد الحِجَاج والمُحَاجَّة، مصدراً للفعل حَاجَجَ. وفي لسان العرب لابن منظور جاء[5]: حَاجَجْتُهُ أُحَاجُّه حِجَاجاً و مُحَاجَّةً من حَجَجته بالحجج التي أدليتُ بها، والحُجَّة: البرهان، وقيل الحجة ما دوفع به الخصم، وتجمع الحجة على حُجَج وحِجَاج. وهو

---

(1) ينظر: حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية - رويض محمد، مجلة فكر ونقد، العدد(26)، فبراير 2000م : 40، والبلاغة والاتصال- د/ جميل عبد المجيد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط،2000م:110، ومفهوم الخطاب السياسي في الخطاب اللبرالي- د/ أميمة مصطفى عبود، الشبكة الليبرالية السعودية - منتدياتنا العامة - صدى الصحافة والإعلام، الخميس - 8/ شباط/ 2007م.

(2) ينظر: النص والخطاب والاتصال - أ.د/ محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1426هـ - 2005م:192، والبلاغة والاتصال: 126- 127.

(3) منها على سبيل المثال ما نجده من طابع حِجَاجي عند عبد القاهر الجرجاني في (دلائل الإعجاز) في محاولته لإقناعه الناس بفكرة النظم في القرآن، [ينظر: دلائل الإعجاز - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت: 474هـ)، قرأه وعلق عليه: أبوفهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي- القاهرة، ط5، 1424هـ - 2004م: 80- 104].

(4) للاستزادة ينظر: النص والخطاب والاتصال: 193- 198، والبلاغة والاتصال :143 - 173.

(5) ينظر : لسان العرب - جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت:711هـ)، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان،ط3، 1419هـ - 1999م.، مادة (حجج).

رجل مِحجَاج: أي جَدِل. و احتج بالشيء: اتخذه حُجَّة، وحاَجّه محاَجّة و حِجاجاً: نازعه الحُجَّة. وحَجَّه يَحجُّه حَجّاً، غلبه بالحجة، وفي الحديث : << فحجَّ آدم موسى >>، أي غلبه بالحُجَّة . ويقال حاججته فأنا محاجٌ وحَجِيج، ومنه حديث معاوية: فجعلتُ أحجُّ خصمي: أي أغلبه بالحجة. وقال الأزهري: إنما سميت حُجَّة لأنها تحجُّ أي تقصد، لأن القصد لها وإليها . وقال الجرجاني: "الحُجَّة ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحُجَّة و الدليل واحد"[1] .

وفي اللغة الإنجليزية الحديثة – على سبيل المقارنة بما ورد من معان في المصطلح العربي– تشير مادة (Argue) إلى وجود اختلاف بين طرفين، ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره؛ من خلال تقديم الأسباب والعلل التي تكون حُجَّةً إما داحضة أو داعمة لفكرةٍ أو رأي أو سلوكٍ ما[2].

وفي الفرنسية، نجد أن لفظة (Argumentation) تشير إلى عدة معانٍ متقاربة، أبرزها ما يأتي:

- القيام باستعمال الحُجَج .
- مجموعة من الحُجَج التي تستهدف نتيجة واحدة .
- الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حُجَج، أو عرض وجهة نظر مُعَارِضة، مصحوبة بحُجَج.[3]

ولا شك، بناءً على ما ورد في التعريفات السابقة، أن المعنى اللغوي للحِجَاج في الإنجليزية والفرنسية، لا يختلف في جوهره عن معناه في العربية، فهو "جملة من الحُجَج التي

---

(1) التعريفات – علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، د.ط، 1985: 482 .

(2) ينظر: مادة (Argue) في:

- **Longman language activator, first published person education limited, England,1993, second impressin ,2003,P 55-57 .**

(3) ينظر: مادة (Argumentation) في:

- **Le grand Robert : Dicionnaire de la langue Francaise. T.1 Paris, 1989. p5 35.**

يـؤتى بهـا للبرهـان عـلى رأي أو [إبطالـه]، أو هـو طريقـة تقـديم الحُجَـج والاسـتفادة منهـا. والمحَاَجَّة هي إنتاج مجموعة حُجَج مرتبة بطريقة ما قصد إثبات أو تفنيد قضية من القضايا. وقد تعني المحَاَجَّة بتوسيع دلالتها: كل وسائل الإقناع باستثناء العنف و الإكراه"[1].

كما يتضح من خلال التعريفات القاموسية السابقة أن لفظ الحِجَاج- وهو ما ذهب إليه أ/حبيب أعراب- يحمل في مضمونه دلالة: (التخاصم) و (الجدل) و (الغلبة)، وهي عمليات مأخوذة هنا بمعانيها الفكرية والتواصلية[2].

الحِجَاج في الاصطلاح:

إن الدلالة اللغوية لمعنى الحِجَاج تقترب من الدلالة الاصطلاحية للحِجَاج في الدراسات الحديثة؛ حيث نجد في جملة المفاهيم الحديثة للحِجَاج اتفاقاً فيما بينها على كون الحِجَاج عملية اتصالية، تعتمد الحُجَّة- بالأساس - وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم، ولعل أول هذه المفاهيم على ذلك وأكثرها اختصاراً مفهومان:

الأول: طريقة تحليل واستدلال، بقصد تقديم مبررات مقبولة للتأثير في الاعتقاد والسلوك.

الثانية: عملية اتصالية يستخدم فيها المنطق، للتأثير في الآخرين[3].

ثم تتعدد التعريفات الاصطلاحية للحِجَاج في علم اللغة النصي والنظرية الحِجَاجِيَّة المعاصرة، وكلها تدور حول عناصر موضوعية وبنائية شتى؛ نجد الدكتور محمد العبد في كتابه (النص والخطاب والاتصال)[4] قد عرض لأهم هذه التعريفات في النظرية الحِجَاجِيَّة المعاصرة عند كلٍ من أندرسين Anderen، ودوفر Dover، وعند بيرلمان Perelman، وتيتكا

---

[1] حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية : 39.

[2] ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن (دراسة مصطلحية) – د/ لهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق، الجزء(3)، المجلد (81)، جمادي الآخرة 1427هـ - 2006م: 503، 505، 547، و الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 99.

[3] ينظر : البلاغة والاتصال : 105 – 106 .

[4] ينظر : النص و الخطاب و الاتصال :187 – 189 .

Tytcca، وريك Rieke، وسيلارز Sillars ، كما عرض للتعريفات أيضاً عند كلٍ من أوتس ماس Uts Maas، وديبورا شيفرين Deborah Schiffrin، وهاينمان Heinemann، وفيفيجر Viehweger . ثم خرج بخلاصة عامة لتلك التعريفات قال فيها: إن "الحِجَاج جنس خاص من الخطاب يبنى على قضية أو فرضية خلافية، يعرض فيها المتكلم دعواه مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطاً منطقياً، قاصداً إلى إقناع الآخر بصدق دعواه والتأثير في موقفه أو سلوكه تجاه تلك القضية"(1) .

فأساس الحِجَاج، إذن، هو الارتكاز على دليل معين قصد إثبات قضية من القضايا، ومن ثم بناء موقف ما. **وعلى ذلك يمكن تعريفه بأنه: عملية اتصالية، مبنية على قضية خلافية، تهدف إلى إقناع المتلقي والتأثير في سلوكه عبر سلسلة من الحجج المنطقية والمنطلقة – غالباً – من أفكار ومعتقدات مسلم بها عند المتلقي.**

أنواع الحِجَاج :

إن الخروج من الدلالة القاموسية والاصطلاحية للحِجَاج إلى دلالته النظرية والاستعمالية الواسعة، والانطلاق في فضاءاته المتشعبة، يجعلنا نقف على أكثر من سياق وأكثر من حقل وظيفي له.فعلى مستوى الإجراء والاستعمال، يظهر أن كل محاجة أو حِجَاج يستمد معناه وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة ومن خصوصية الحقل التواصلي الذي يظهر فيه(2) .

فيما كان قديماً "تابعاً تبعية عضوية و استعمالية لمجالات و أفعال تتطلبه و تستدعيه "(3) . فقد كان الحِجَاج في منظور التصور التقليدي "عبارة عن نشاط ليست له أي علاقة ببنية اللغة، فهو يتعلق فقط بآثار الكلام، لأن الانتقال من ملفوظ ما، أو متوالية من الملفوظات، إلى نتيجة

(1) النص و الخطاب و الاتصال: 189.

(2) ينظر : الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي : 100 ، ومفهوم الخطاب السياسي في الخطاب اللبرالي- د/ أميمة مصطفى عبود.

(3) الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجي : 99 .

معينة (وهو جوهر الحِجَاج)، تتحكم فيه اعتبارات خارج بنية اللغة، فالمعلومات الواردة في الملفوظ، إذا ارتبطت بسياق محدد، تفيد معنى معيناً يصح استنتاجه من هذا الملفوظ، فإذا قال متكلم (هذا الكتاب مفيد) وهذا الاستنتاج أنه يحض على قراءته، ويحتج لذلك بكونه مفيداً، وهذا الاستنتاج حسب التصور الكلاسيكي للحِجَاج، يتم بمقتضى قانون الخطاب، وقوانين الخطاب هذه على رغم أنها تحكم اشتغال النسق اللغوي، فإنها لا تنتمي إلى هذا النسق، فهي من طبيعة اجتماعية وثقافية، أي أنها توجد خارج بنية اللغة"[1].

ولأن الحِجَاج والمُحَاجّة كانت تُحدُّ بأنها "سلسلة من الأدلة تفضي إلى نتيجة واحدة أوهي الطريقة التي تطرح بها الأدلة"[2]. هذه الأدلة يمكن أن تكون استقراء أو قياساً ظاهراً ومجاله (الجدل)، ويمكن أن تكون مثلاً أو ضميراً و مجال ذلك (الخطابة). فهذا يعني وجود نوعان من الحِجَاج[3] ؛ حِجَاج جدلي وحِجَاج خطابي.

1- **الحِجَاج الجدلي:**

ومداره مناقشة الآراء مناقشة محضة بغية التأثير العقلي المجرد، ورَدّ الخصم عن رأيه ببيان بطلانه بحجة أو شبهة، وتمثله في التراث العربي مناظرات (علم الكلام)[4] . ويمكن أن

---

(1) الحِجَاجِيّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو:225 .

(2) المعجم الفلسفي، مراد وهبة ، دار الثقافة الجديدة ، مصر ، 1979م : 393.

(3) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) :18 .

(4) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) :18، والكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) – أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: 1094هـ)، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه: د/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط2، 1413هـ – 1993م : 353 .

- وعلم الكلام كما يعرفه التهانوي بأنه علم النظر والاستدلال وهو " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج و دفع الشبه" : [كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم – محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة د. رفيق العجم، تحقيق: د/ علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان ، ط1، 1996م: 1/ 29].

يندرج تحت ما يسمى بالخصومة في الحقيقة، وهو ما جاء عند الجرجاني في تعريفه للجدل، تعريفاً مستَمَدّاً من المقولات الفلسفية، وهو تعريف يُدخِل الجدل في باب الباطل حيث قال: الجدل عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. وهو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات، والغرض منه إلزام الخصم وإفحام قوله بحجة أو شبهة، أو يقصد به تصحيح كلامه، وهو الخصومة في الحق [1].

كما لا يمنع أن يكون الحِجَاج الجدلي هو مقابلة الحُجَّة بالحُجَّة، بالآداب المعروفة للوصول إلى الحق، ولو على لسان الخصم، وهو الهدف الأسمى للمجادلة [2]، وذلك ما أشار إليه القرآن الكريم مخاطباً الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125] .

2- **الحِجَاج الخطابي :**

وهو - كما يعرض له أرسطو- حِجَاج موجه إلى مخاطَبِين لهم أوضاع خاصة، في مقامات خاصة. والحِجَاج هنا لا يأتي لغاية التأثير النظري العقلي وإنما يتعداه إلى التأثير العاطفي وإلى إثارة المشاعر والانفعالات، كما يسعى إلى إرضاء المخاطب واستمالته ولو كان ذلك من خلال خداعه وإيهامه بصحة الواقع على نحو تبدو معه الخطابة من قبيل التخييل [3] .

أما بعض الأبحاث والدراسات الحديثة فقد جعلت من الحِجَاج موضوعاً خاصاً بها، وقد تفاعلت هذه الأبحاث مع اللغويات والمنطق والفلسفة والبلاغة ... إلخ، وانتهجت طريقاً آخراً بعيداً عن الجدل والخطابة، فصار الحِجَاج من منظور هذه الدراسات يشير إلى

---

(1) ينظر: التعريفات: 78.

(2) ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية): 541 .

(3) ينظر : الخطابة (الترجمة العربية القديمة) – أرسطو طاليس، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ، الكويت، دار القلم، بيروت – لبنان، د.ط ، 1979: 10، 202، 203.

ذلك الخطاب الصريح أو الضمني الذي يستهدف الإقناع مهما كان متلقي الخطاب، ومهما كانت الطريقة المتبعة[1] .

وكان أول ظهور لهذا النهج هو كتابان في الحِجَاج صدرا عام 1958م هما:

- (The Uses of Argument) لـ (Stephen Toulmin)

- (Traite de Largumentaion) لـ (Chaim Perelman) و(Titka) ، ليضعا الحِجَاج في إطار فلسفي[2] .

ثم ما لبث أن صار بعدها مع (أنسكومبر وديكرو) مبحثاً لغوياً منفصلاً يُعالَجُ في إطار لساني بحت [3]. فيما جاء (مايير) محاولاً استثمار الجهود الفلسفية واللسانية، في مجال الفلسفة، وذلك بوضع الحِجَاج في إطار نظرية أوسع وأشمل هي نظرية (المساءلة)[4]، ضمن كتابه

---

(1) الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجي: 99، والحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 37.

(2) ويأتي مفهوم الحِجَاج عند تولمين (Toulmin) مستنداً في جوهره إلى صناعة البرهان في المنطق، فيما نجد مفهومه عند بيرلمان وتيتيكا يستند إلى صناعة (الجدل) من ناحية، و (الخطابة) من ناحية أخرى، ليدخل بذلك في حدود لا هي بالجدل ولا بالخطابة، وهذا ما جعلهما يطلقان عليه تسمية الخطابة الجديدة. [ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 27- 28، وبلاغة الخطاب وعلم النص- د/ صلاح فضل، عالم المعرفة، العدد (164)، 1997م: 73، والبلاغة والاتصال: 105] .

(3) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 33. و الحِجَاجِيّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 214 .

(4) M.Meyer, Logique et argumentation, op.cit. P112

- نقلاً عن الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 37

- ويقصد بنظرية المساءلة عند مايير: اعتباره الحجة جواباً أو وجهة نظر يجاب بها عن سؤال مقدر يستنسخه المتلقي ضمنياً من ذلك الجواب، ويكون ذلك بطبيعة الحال في ضوء المقام، وبوحي منه، وما السؤال عنده إلا مشكلة تتطلب حلاً. وحلها يكمن في الإجابة عنها، إجابةً يُفهم منها ضِمناً أن تلك المشكلة موجودة بحيث لا يكون المتلقي في نهاية المطاف أثناء قراءته للحجج الصريحة أو الأجوبة في خطاب ما إلا طارح أسئلة يستنتجها ضمناً من خلال تلك الأجوبة المقدمة في النص، مستعيناً بالمعطيات التي يوفرها المقام.

- ينظر: [Alain Berrondonner, Elèments de pragmatique linguistque, editions de Minuit, Paris, 198 :p124, 125, 136, 137] نقلاً عن الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 38، 39.

(المنطق والكلام والحِجَاج). وقد استبعد هؤلاء علاقة الحِجَاج بالجدل والخطابة، بل ونفوا عنه أيضاً تهمة المغالطة والدعاية والاستمالة.

وفيما يأتي عرض لأهم أنواع الحِجَاج في الدراسات الحديثة تبعاً لسياقاته المختلفة:

3- الحِجَاج اللساني :

ينصرف الحِجَاج من منظور التوجه اللساني إلى "البنية اللسانية للملفوظات الحِجَاجِيَّة ومختلف الآليات التي تتيح إمكان قيام الحِجَاج داخل اللغة، فالوظيفة الحِجَاجِيَّة للخطاب تَبرز في البنية التركيبية للغة ذاتها، أي أن الحِجَاج (مؤصَّل) لغوياً قبل أن يكون مَظهراً من مَظاهِر التداول الخطابي" [1]، وهذا يشير إلى قول أبرز منظري (نظرية الحِجَاج المعاصرة)، منهم ميشال مايير الذي يعتبر البعد الحِجَاجِي بعداً جوهرياً في اللغة لكون كل خطاب يسعى إلى إقناع من يتوجه إليه[2].

4- الحِجَاج الفلسفي :

وقد ارتبطت الفلسفة بالحِجَاج في كونها خطاباً عقلياً لفظياً أدواته الحجج العقلية والاستدلالات المنطقية الكلامية في مواجهة خطاب الاعتقاد الأسطوري الذي لا يُفَسِّر ولا يُقنِع، بل يُتخَيل ويسود، وينغرس في الوجدان والمشاعر الفردية والجماعية [3]. ومجال الحِجَاج الفلسفي هو الأشكال القولية الفلسفية المُشَكَّلة من نصوص قد تطول وقد تقصر. والممارسة الحِجَاجية والاستدلالية في الفلسفة ليست مقصورة لذاتها. ومن ثم ليست مفردة كلياً عن الإجراءات والأبعاد الأخرى في هذا النمط من القول والفكر حيث تكون الحِجَاجِيَّة الفلسفية مبررة بغاياتٍ بعضها عقلية (إقناعية، حوارية)، وبعضها منهجية وفكرية (سجاليَّة، جدليَّة، تحليليَّة، نقديَّة ..)، وكل ذلك في ارتباط عضوي مع ما تتطلبه روح التفلسف من وضع

---

(1) الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 214.

(2) ينظر: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 99.

(3) ينظر: نفسه: 119.

الإشكاليات فلسفياً ومعالجتها معالجة (تمفهم) اللغة وتشيد الأطروحات والمواقف والمنظورات تشييداً عماده الحجج والاستدلالات المنطقية[1]. فهي – أي الفلسفة – عندما "تستثمر وتوظف أدوات البرهان المنطقي من أجل البحث [في سياقها التخاطبي]، فإنها سرعان ما تتخلى عن الصرامة المنطقية لصالح أدوات التبليغ، كما تصطنع مناهج بلاغية، وجدلية تستهدف ليس فقط الإقناع، بل الاستقطاب والتأثير واستفزاز الخيال. إنها بذلك تستنهض كل الملكات بقصد جعل الآخر ينخرط في حركتها الفكرية" [2] لأنها لا تهدف للتأثير المباشر في الأشخاص، بل تمنح الأفكار قوتها الإفحامية [3].

5- **الحِجَاج البلاغي** [4] :

ويعني أن هناك من الحُجَج ما يخضع في بنائه وترتيبه لقواعد البلاغة والبيان، و يتسم هذا النوع من الحِجَاج بمجموعة من السمات، تتمثل في الآتي:

- إدماجه عضوياً لرغبتين هما: إرادة المتكلم (المؤثِّر) و إرادة المتلقي (المتأثِّر) .
- خضوع حججه للتراتبية والتنظيم: القوة، الضعف، البدء، الختام، الإبطال، الإثبات..إلخ.
- اشتماله على البعد الاستدلالي والبعد الإمتاعي أو الجمع بين البيان والبديع.

ويهدف هذا الحِجَاج إلى :

1- التأثير في المخاطَب وجعله يتقاسم مع المخاطِب اعتقاده واقتناعه الخاص، ومن ثَمَّ القيام بما يريده المخاطِب .

2- استمالة وإغراء المخاطَب باعتباره ذهناً وعاطفة، أي يتعامل معه عقلاً وقلباً، لكسب تأييده وقبوله الضمني أو الصريح.

(1) ينظر: نفسه : 117 .

(2) حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية : 39 .

(3) ينظر: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي : 128 .

(4) ينظر: نفسه : 110 – 111 .

6- الحِجَاج المنطقي :

وهو الحِجَاج الذي يخضع للتسليم العقلي، ويؤدي إلى نتائج ظنية، ويقوم على دراسة الحِجَاج منظوراً إليه بوصفه محاولة حمل السامع على التصرف بصورة ما. والغاية منه: التأثير في أفكار وآراء وأوضاع ومشاعر أو سلوكيات شخص أو مجموعة من الأشخاص، باستخدام المنطق الطبيعي[1] .

7- الحِجَاج القضائي :

هو خطاب (بياني) و (منطقي) في آن واحد، لكونه يجمع بين التعليل والتصديق والإقناع. وباعتبار أن القضاء يعمل على تطبيق القوانين في ظل شروط عادلة تفترض في المواجهة والتعارض، فالحُجَّة أو البرهان فيه لا يرتقي إلى مستوى البرهان المنطقي القضوي القاطع. كما أن الحُجَّة، في هذه المجال، لا تنزل إلى مستوى الصورة البيانية والبلاغية المقيدة بالهم الجمالي والإمتاع فقط. إننا بالأحرى، أمام حِجَاج قضائي يضفي طابع الصدق والصلاحية على أشكال الادعاء والتبرير والمحاكمة، وفق ما ترسخ وتوطد، في ظل القضاء والتقاضي، من عاداتٍ حِجَاجِيَّة[2] . إلا أنه كفعالية عقلية وقولية يعتبر في بعض جوانبه قريباً من الحِجَاج الخطابي والحِجَاج الفلسفي أيضاً. فهو يجمع بين الإقناع والتأثير من جهة، وبين الحجة العقلية والاستنباط المنطقي من جهة ثانية، أي بين الصرامة المنطقية اللفظية، وبين إقناعية البلاغة والبيان[3] .

---

(1) ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية): 540، و الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو:213.

- ويقصد بالمنطق الطبيعي: المنطق الذي يسعى إلى بيان الكيفية التي تُبنَى بها المفاهيم، وطبيعة العلاقات التي تجمع بينها، وأوجه توظيفها في الخطاب الحِجَاجي. [ينظر: الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو:213].

(2) ينظر: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجِي:114 .

(3) ينظر: نفسه:114 .

والحقيقة إن المتتبع للدراسات الحديثة التي تناولت موضوع الحِجَاج، يجد بأن كل مجال من هذه المجالات المعرفية يسعى بأبحاثه إلى ضم الحِجَاج إلى جانبه، ومقاربته من زاويته المحددة؛ ونتيجة لذلك اغتنى مفهوم الحِجَاج و طُعِّم بمفاهيم ووظائف ونظريات مختلفة، بل ومازالت هذه المفاهيم في تجدد مستمر، مما أكسبه قيمة وظيفية عالية جعلته علماً مستقلاً بذاته له قواعده ومباحثه.[1]

- **أنواع الحُجَج :**

الحُجَجُ جمع حُجَّةُ ، والحُجَّةُ، عند الجرجاني: ما دل به على صحة الدعوى، وقيل الحُجَّة والدليل واحد [2]. وقيل هي الدلالة المبنية للمحجة أي المقصد المستقيم، كما قال الراغب[3]، وأصل المحجة وسط الطريق، وتطلق الحُجَّة على كل ما يدلي به أحد الخصمين في إثبات دعواه أو رد دعوى خصمه [4] .

والحُجَّة الإلزامية "هي المركبة من المقدمات المسلمة عند الخصم، والمقصود منها إلزام الخصم و إسكاته "[5].

أمّا الحُجَّة الإقناعية: فهي التي تفيد القانعين القاصرين عن تحصيل المطالب بالبراهين القطعية العقلية، وربما تفضي إلى اليقين بالاستكثار منها[6].

---

[1] ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن (دراسة مصطلحية):553، والحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 100 .

[2] ينظر: التعريفات :86.

[3] ينظر: المفردات في غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: 502هـ)، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، ط1، 1423هـ – 2002م: مادة (حجَّ): 107 .

[4] ينظر: تفسير القرآن الحكيم (المسمى بتفسير المنار)- محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط3، 1367هـ – 1948م: 7/ 574.

[5] كشاف اصطلاحات الفنون : 1/ 622 .

[6] ينظر : الكليات: 406 .

ويذكر التهانوي: أن الحُجَّة مرادف للدليل، وهو ما أورده الجرجاني في التعريفات، فتسمى لذلك دليلاً واستدلالاً؛ تسمى دليلاً لأنها تدل على المطلوب، وتهيئتها وتأليفها لأجل الدلالة يسمى استدلالاً [1].

و من خصائص الحُجَّة التي ينبغي أن تكون عليها [2] :

1- يجب ألاَّ تناقض نفسها .

2- أن تكون منسجمة مع الأطروحة المدافع عنها .

3- أن تكون أيضاً منسجمة مع غيرها من الحجج التي تدافع عن نفس الأطروحة.

ومما لا شك فيه أن أنماط الحجج وأساليب استعمالاتها في المُحَاجَّة عديدة جداً، مما يصعب على المهتم بها حصرها أو تنميطها تنميطاً نهائياً [3]، وإن كنَّا في هذا المقام لسنا معنيين بتتبع تلك الأنماط أو حصرها، إلاَّ أننا وفي محاولة **هنا سنعرض لأهم التقسيمات التي وردت لأنواع الحُجَج :**

فالحُجَّة إما أن تكون :

- **حُجَّة عقلية**: تُستَنْتَج من مبادئ أولية ومقدمات عقلية تستند إليها.

- **أو حُجَّة تجريبية**: وهي الحُجَّة القائمة على الواقع الملموس والمحسوس، كما حدث مع إبراهيم عليه السلام حين سأل اللهَ - عزَّ وجل - أن يريه كيفيه إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ ﴾ [البقرة:260]

وإمَّا أن تكون الحُجَّة، كما جاء عند الشيخ محمد رشيد رضا:

---

(1) ينظر: كشاف اصطلاحات الفنون : 1/ 622، والتعريفات :86، والحُجَّة في الاستعمال القرآني (إبراهيم وقومه نموذجاً)- إدريس حمادي، مجلة فكر ونقد، السنة الثالثة، العدد (28)، إبريل 2000م :141.

(2) ينظر: حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية :47.

(3) الحِجَاج والاستدلال الحِجَاج : 106 .

- **حُجَّة ناهضة**: يثبت بها الحق.

- **حُجَّة داحضة**: يُمَوَّه بها الباطل . " و إنما سُمَيِّتْ ما لا يُثبت به الحق حُجَّة على سبيل ادعاء الخصم حكاية لقوله ، واصطلحوا على تسميتها شبهة "[1] .

ولأن الخطاب الحِجَاجي يتألف من أكثر من حُجَّة ، و هذه الحُجَج إما أن تشترك تعزيزاً أو دحضاً، وإما أن تتباين، فيكون بعضها معززاً، والبعض الآخر داحضاً، أي معززاً للنتيجة المتعارضة مع النتيجة الأصلية. وعلى هذا الأساس جاء تقسيم أنواع الحُجَج عند انسكومبر وديكرو إلى[2]:

- **حُجَج متساندة.**
- **حُجَج متعاندة.**

فالحجج المتساندة تساق لتعزيز النتيجة نفسها، ومثالها: (هذا الكتاب مفيد، وثمنه مناسب)، ونقول عن حُجَج أنها متعاندة: إذا سيقت لتعزيز نتيجتين متعارضتين ومثالها: (هذا الكتاب مفيد، لكن ثمنه باهظ) النتيجة المضمرة: لا تشتره إذن .

وقد ترد الحُجَج المتساندة أو المتعاندة، إما على جهة الإهمال أو على جهة التقييد، ويقصد بالتقييد في الحُجَج المتساندة أو المتعاندة أن يكون هناك مفاضلة في القوة بين الحجتين أو مجموعة الحُجَج. ويقصد بالإهمال في الحُجَج المتساندة أو المتعاندة: عدم التحديد لطبيعة العلاقة بين الحُجَج المتساندة أو المتعاندة، من حيث القوة أو الضعف [3]. ويتم ذلك من خلال الروابط الحِجَاجِيَّة (بما أن / حتى / لكن / ...إلخ).

---

(1) تفسير المنار : 7/ 574.

(2) ينظر : Ansdomben et Ducrot .l,argumentation dans la langue ، ابتداءً من: 163 وما بعدها... إلخ ، نقلاً عن: الحِجَاجيات اللسانية عند انسكومبر و ديكرو: 228 .

(3) ينظر : الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو : 228 – 230 .

وقد حاول ج. ج روبريو J. J. Robrieux ، أن يضع تقسيماً لأنواع الحُجَج، ذلك في كتابه (عناصر الخطاب والحِجاج) ، وذكر منها: الحُجَّة المضادة، وحُجَّة المتلازمات [1].

كما حاولت ج. روس J.Russ، أن تضع أنماطاً للحُجَج في حديثها عن أنواع الحِجَاج، وذلك في كتابها (المناهج الفلسفية)، حيث حصرتها في: حجج التتابع والتوقف، والحجج الاستنتاجية والمثال ومشتقاته [2].

فيما تناولت د/ سامية الدريدي، في دراسة مستفيضة، أنواع الحجج معتمدةً ما ورد من تصنيف عند بيرلمان وتيتيكاه في كتابها (مصنف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة) - وهو تصنيف استخرجه عبد الله صولة ووضحه بدقة في كتاب (**أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية، من أرسطو إلى اليوم**) [3] - وهي عبارة عن أربعة أصناف كبرى، شملت عدداً كبيراً من الحُجَج الفرعية. حيث قامت بتفنيدها موضحةً إيَّاها بالأمثلة المُفَصَّلة من الشعر العربي القديم [4].

---

[1] ينظر: نظرية الحِجَاج ، المجلة التربوية الصادرة عن الجمعية المغربية لمفتشي الثانوي، العدد (7)، الدار البيضاء، مايو- 1997م، نقلاً عن : الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجِي : 106 .

[2] ينظر بهذا الصدد : Russ (Jacqueline) : les Mithodes es philosophic . Ed . Armand colin – Paris 1992,
p 55:58 ،106 : نقلاً عن الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجي .

[3] ينظر: الحِجَاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحِجَاج: الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتكاه، كتاب أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، لفريق البحث في البلاغة والحِجَاج بإشراف: حمادي صمود: 324-348.

[4] ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 191- 313 .

- وهذه الأنواع الأساسية الكبرى هي:
  1- حُجَج شبه منطقية.
  2- حُجَج تؤسَّس على بنية الواقع.
  3- حُجَج تؤسِّس بنية الواقع.
  4- حُجَج تستدعي القيم.
  5- حُجَج تستدعي المشترك.

وعلى الرغم من تعدد أنواع الحُجَج وتنوع أنماطها فهي لا تخرج عن كونها محصورة في أنواع ثلاثة هي: القياس، الاستقراء، التمثيل.

فالاستدلال إما أن يكون بالكلي على الجزئي وهو (القياس) الذي عرف بأنه قول مؤلف من قضايا متى سلمت لزم عنه لذاته قول آخر. وإما أن يكون بالجزئي على الكلي وهو (الاستقراء) الذي هو إثبات الحكم لثبوته في جزئياته. وإما أن يكون جزئياً على جزئي وهو (التمثيل)، ويسمى عند علماء الفقه (قياس) ويعني: مشاركة أمر لأمر آخر في علة الحكم[1].

في حين يرى أرسطو أن (القياس) و (الاستقراء) هما التصديقات الأساسية القائم عليهما أي خطاب[2].

طريقة القرآن الكريم في الحِجَاج والمناظرة :

نجد القرآن الكريم قد نطق بجميع أنواع الخطاب و توسل بألوان من الحُجَج، بعضها يوافق طبيعة الذهن العربي بوضوح مقدماته و نتائجه، وبعضها جاء على ما عُرِفَ بعد ذلك عند المتكلمين من اعتماد المُحَاجَّة المستندة إلى الأدلة الدقيقة، غير أنه يختلف عنها في أن كل مقدماته يقينية لا مجال فيها للظن[3].

---

(1) ينظر: الحُجَّة في الاستعمال القرآني (إبراهيم وقومه نموذجاً) – إدريس حمادي، مجلة فكر ونقد، السنة الثالثة، العدد (28)، أبريل، 2000م: 142.

(2) ينظر: الخطابة : 9- 11.

- ويظهر ذلك في قوله: "فقد يفعلوا[أي أطراف عملية التخاطب] التصديقات كلها بالتثبيت، وذلك إمّا بإحضار البرهان، وإما بالتفكير، لا في شيء آخر سوى هذين" [ينظر: الخطابة – أرسطو:11]، والبرهان هو شيء من الاعتبار، والاعتبار عنده هو الاستقراء [ينظر: الخطابة – أرسطو:11]، والتفكير عنده هو شيء من السلسجة، والسلسجة: هي المقايسة [ينظر: الخطابة :7].

(3) ينظر: القرآن المعجزة الكبرى – محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط، د.ت:394، 397، والبرهان في علوم القرآن: 2/ 25 – 27، والإتقان في علوم القرآن – أبو الفضل جلال الدين بن أبي بكر السيوطي (ت:911هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون والأوقاف والدعوة، مجمع الملك بطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، د.ط ، د.ت: 1955.

ولأن القرآن الكريم يخاطب الفطرة الإنسانية، وهي قدر ثابت ومشترك بين الأجيال في كل زمان "يأتي الوحي بالاستدلال على وفق هذا الأصل الإنساني العام، فيكون مضمونه عالميًّا وإن وضع في قالب عربي من الألفاظ والتراكيب، ويشبه في مظهره العام العلوم الإنسانية التي يتفق عليها البشر مهما اختلفت لغاتهم كأعداد الحساب، ورموز الهندسة، وأشكال الرسم"[1].

فقد تناول القرآن الكريم الكثير من الأدلة التي حاجَّ بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع مستخدماً في الأغلب أسلوباً واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل وكثير بحث؛ لأنه يخاطب منكرين جاحدين لا يملكون الرغبة والاستعداد في إعمال الذهن والفكر للوصول إلى النتائج، بل على العكس من ذلك، لو كانت النتائج واضحة جلية أمامهم لحاولوا أن يجدوا لها تخريجاً بالجدل الباطل الذي لا يستند إلى دليل أو برهان.

كما أن القرآن الكريم لم يسلك في مناظراته طريقة المتكلمين في عرض المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها لأسباب، ذكرها الزركشي في كتابه (البرهان)، أهمها[2] :

1- لأن القرآن جاء بلسان العرب وخاطبهم بما يعرفون[3]، قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم:4].

2- لأن الاعتماد في الاستدلال على ما فُطِرَتْ عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل عقلي أقوى أثراً وأبلغ حجةً.

---

[1] نظرات في الاستدلال القرآني - أ. د/ عبد الستار فتح الله سعيد، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط 1، 1428هـ - 2007م: 21.

[2] ينظر: البرهان في علوم القرآن : 2/ 24.

[3] فالعرب لم تكن تعرف أسلوب المناطقة والمتكلمين في الجدل والمناظرة، لذا جاءهم القرآن بما يعرفون من أساليب وطرق المناظرة.

3- لأن ترك الجلي من الكلام والالتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والإلغاز لا يفهمه إلا الخاصة وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجهة. وأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية.

فجاء ذلك التنوع في الأدلة القرآنية التي تخاطب الإنسان في جميع أقطاره واختلاف عصوره.

أولاً/ الأدلة الكونية:

وهي الأدلة المخاطِبَة لعقل الإنسان وفكره، ووجدانه. وهذا اللون "على سهولته أقوى أنواع الأدلة وأقربها إلى النفوس والإقناع واليقين، لدلالته على المطلوب بذاته من أقصر سبيل حيث يعتمد المسلمات البديهية المحسوسة أو المعقولة" [1].

ثانياً/ الأدلة النفسية:

وهذه الأدلة بالغة الأهمية للإنسان "وفي قضية الإيمان بالذات التي لا تعتمد مجرد المعرفة العقلية، وإنما لا بد أن تتشابك فيها عناصر هذا الكيان الإنساني البديع لتستقر وتأنس وتنفعل وتتحرك" [2]. ينزع هذا الدليل من زوايا نفس الإنسان وأعماق شعوره الداخلي و" هي درجة من أعجب ما قدمه هذا المنهاج في الاستدلال "[3]، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الأنعام:40].

ثالثاً / الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تقوم على "عمليات فكرية كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس ومشاعر النفس " [4]. وقد جاء الاستدلال العقلي

---

[1] نظرات في الاستدلال القرآني: 23 .

[2] نفسه: 25 .

[3] نفسه : 24.

[4] نفسه : 26 .

في القرآن الكريم على نمط خاص، لم يتقيد بأشكال المنطق وضروبه، بل كانت أدلته أوسع مدى منها. ومن هذه الاستدلالات:

1- **استخدام الحقائق المشهورة**، والبديهيات المستقرة[1] (حقائق متفق عليها) في ابتناء الدليل عليها فيذعن الخصم للدليل إذعاناً، قال تعالى:﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:101]، فحيث تقرر أن الولد لا يكون من غير أم، فقد بنى القرآن على هذه الحقيقة المسلمة دليل بطلان ما نسبوه إليه تعالى من الولد لأنه ليس له صاحبة، والدليل واضح يدل على المطلوب مباشرة ولا يحتاج إلى مقدمات المنطق الأرسطي، وغير ذلك من التعقيدات التي تصرف الذهن عن المطلوب الأصلي لكثرة الوسائط والالتفات إلى المقدمات [2].

2- **الأقيسة** التي يجري الاستدلال بها عن طريق إلحاق فرع بأصل في أمر مشترك بينهما ليتقرر الحكم في المجهول كما هو مقرر في المعلوم[3]، وهذا النوع متعدد في القرآن الكريم[4].

---

(1) ينظر: البلاغة والاتصال: 110.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: 7 / 411، و بصائر الحق في سورة الأنعام: 99، 100، ونظرات في الاستدلال القرآني: 27 .

(3) ينظر: نظرات في الاستدلال القرآني: 28 .

(4) وقد ذكر السيوطي في كتابه (الإتقان)، مجموعة من الأدلة العقلية، أورد تفصيلها بأدلة من القرآن الكريم، منها: دليل التمانع، ودليل التسليم، ودليل السبر والتقسيم، وغيرها . [ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1954- 1962]، كما جاء عند الإمام ابن القيم الجوزية تقسيمات هذه الأقيسة، حيث خلص في النهاية إلى أن المستعمل منها في الاستدلال هو: قياس العلة، وقياس الدلالة، وقياس الشبه، وجميعها قد ورد في القرآن الكريم [ينظر بتفصيل أكثر: أعلام الموقعين عن رب العالمين – الإمام ابن القيم الجوزية (ت: 715هـ)، تحقيق وضبط: عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت: 1/ 140- 163].

أهمية الحِجاج :

للحِجَاج أهمية كبيرة، فبه يتم السعي إلى امتلاك أساليب للإقناع، وكسب تأييد الآخرين، وطرق التعامل الفعَّال مع الحجج التي يواجهها الناس في كل مكان، وفي سائر الأوقات، عبر التلفاز و الجرائد و المجلات والنقاشات السياسية والمحاضرات [1]. كما نجد أهمية الحِجَاج في العصر الحديث، خاصة، مع النصف الثاني من القرن العشرين، فلا يخفى على أحد ما شهدته المجتمعات الغربية من تحولات اجتماعية وسياسية عميقة، خلال النصف الثاني من القرن العشرين، تجسدت بعض مظاهرها في انتعاش النُظُم الديمقراطية، وتشكيل الأحزاب السياسية والجمعيات والنوادي والهيئات الأهلية، وشيوع النقاشات العامة والخاصة حول البرامج والمذاهب والاختيارات. وقد مثلت وسائل الإعلام مجالاً أساسياً لبروز هذا التنافس، خصوصاً أنها شهدت تطوراً هائلاً مع دخول تقنيات الاتصال السمعي/ البصري إلى الحياة العامة، بحيث دخل معها العالم في حال أصبحت السمة لميزة لها هي التواصل و بالأساس التواصل الحِجَاجي الذي يسعى فيه الفرد إلى إقناع غيره بوجهة نظره، واستمالته إلى جانبه[2] .

وهكذا يمكن القول: إن الحِجَاج يسعى إلى التأثير في الخصم وإقناعه "بمشروعية وصلاحية الموقف" [3]. وهذا يعني أن الحِجَاج يهدف إلى تأسيس موقف ما، حيث يتوجه إلى متلقٍ، يبحث دائماً لأخذ قبوله وموافقته. كما أنه يعتمد على تقديم عدد كبير من الحُجَج مختارة اختياراً حسناً ومرتبة ترتيباً محكماً لتترك أثرها في المتلقي وهذه خاصية تجعله يتميز عن البرهنة[4]، كما يهدف إلى جعل العقول التي يتوجه إليها تنخرط في الأطروحة أو الدعوى.

---

(1) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص: 73، والبلاغة والاتصال: 177، و الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو:209، 212 .

(2) ينظر: و الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو : 208.

(3) حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية : 40 .

(4) نفسه : 40 .

خصائص الخطاب الحجَاجي :

يظهر مما سبق أن الخطاب الحِجَاجي يتسم بجملةٍ من الخصائص تميزه عن غيره، ويمكن لنا أن نجمل هذه الخصائص فيما يأتي:

1- إن أهم ما تتأسس عليه دلالة الحِجَاج هو وجود اختلاف بين المرسل للرسالة اللغوية والمتلقي لها، ومحاولة الأول إقناع الثاني بوجهة نظره، عن طريق تقديم الحُجَّة والدليل على ذلك [1]. والحقيقة أن الاختلاف قضية إنسانية يفرضها التنوع في التجربة الفكرية والعملية. ويعد الاختلاف في منظور الإسلام من آيات الله العظيمة الدالة على مشيئته وقدرته وحكمته، يقول تعالى:﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴾ [الرُّوم:22]. وقال تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [المائدة:48]. ويصل الاختلاف إلى الدين على نحو ما يبين عزّ من قائل: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون:6] .

2- **القصد المعلن**: وهو البحث عن إحداث أثر ما في المتلقي، أي إقناعه بفكرة معينة، وهو ما يعبر عنه اللسانيون بالوظيفة الإيحائية للكلام (Conative)[2]، وهذا ما يسمى أيضاً بالخاصية القصدية، وتتجلى هذه الخاصية في مستويات عدة " أهمها أن عرض الحُجَّة في أثناء إنجاز الفعل الحِجَاجي يكون الغرض والقصد منه تدعيم نتيجة معينه"[3].

---

[1] ينظر: البلاغة والاتصال: 106، و البيان الحِجَاجي في إعجاز القرآن الكريم: سورة الأنبياء نموذجاً ، د/ عبد الحليم بن عيسى، مجلة التراث العربي ، مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، العدد 102 ، السنة السادسة و العشرون– نيسان ، 2006م – ربيع الثاني 1427هـ : 37 .

[2] ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 26 .

[3] ينظر: الحِجَاجيات اللسانية: 233 .

3- خطاب (غائي موجه): غايته القصوى إقناع المتلقي بما يحمله من أفكار وما يعرضه من مواقف أو إغرائه بهذه الأفكار وتلك المواقف، لِيُحدث في نهاية المطاف أثراً واضحاً في المتلقي لا من حيث أفكاره فحسب بل من حيث مواقفه وما قد يكون له من سلوك واقعي ملموس[1].

4- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية، فالحِجَاج لا يكون فيما هو يقيني أو إلزامي، فنحن لا نُحَاجِج في أمر مأخوذ على أنه حقيقة يقينية راسخة، أو في أمر مأخوذ على أنه أمر صارم واجب النفاذ[2]، فالحِجَاج من حيث البناء ينبني على منطلقات غير يقينية، فميدانه هو الاحتمال وليس ميدانه الحقائق البديهية المطلقة، وهناك دائماً نسبة من الشك – لدى المتلقي – مما يدفعنا باستمرار إلى البحث عن حُجَج من أجل تحقيق درجة أعلى من الإقناع[3]؛ وعليه فإن الأدلة التي تقدمها المُحَاجَّة ليس من شأنها أن تكون حاسمة فاصلة فيما تثبته أو تنفيه، فلا تقرر ما تقرره أو تنفي ما تنفيه على سبيل الحقيقة المؤكدة الراسخة التي لا تقبل الشك أو احتمال الخطأ (لدى المتلقي وهو المقصود بهذه العملية) فالمسائل التي تدور حولها أي مُحَاجَّة لا تقف عند حقيقة واحدة أو مطلقة، بل لها حقائق متعددة، وعلى الأدلة أن ترجِّح إحداهما على الأخرى، وهذا ما تقصده عملية المُحَاجَّة من إيراد الحُجَج المتعددة[4].

---

(1) ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 35.

(2) ينظر: Prerelman : the New Rhetoric ,P 134, ضمن كتابه: The Idea of Tustix and the Problem of Argument , Translated from the Frenxh : Tohn Petric , Newyork , the Humanities press , 1963 نقلاً عن: البلاغة و الاتصال:106.

(3) حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية: 39.

(4) ينظر: Prerelman : the New Rhetoric ,P 134, ضمن كتابه: The Idea of Tustix and the Problem of Argument , Translated from the Frenxh : Tohn Petric , Newyork , the Humanities press , 1963. نقلاً عن: البلاغة والاتصال: 106.

5- **الحيادية والموضوعية**: فحتى يكون الحِجَاج ناجعاً ينكر ذاته، وحتى يفعل المـُحْتَج في المتلقي يختفي وراء المحلل الرصين الذي يعرض الأحداث بموضوعية وتجرد تامّين[1].

6- الحوارية: تُعَدُّ هذه الخاصية مميزة في الخطاب الحِجَاجي ذلك أن النص الحِجَاجِي "في جوهره حوار مع المتلقي، حوار يقوم على علاقة ما بين مؤسس النص ومتلقيه وهي علاقة تتخذ دون شك أشكالاً عديدة يكشفها الخطاب ذاته باعتباره يراهن أحياناً كثيرة على إقناع أكبر عدد ممكن من المتلقين بما جاء فيه، بل قد يطمح أحياناً إلى إقناع ما يسمى بـ(المتلقي الكوني)، عموماً تبقى الخاصية (التحاورية) هامة وأساسية في تأكيد حِجَاجِيَّة النص، إذ تجعله بشكل ضمني أو صريح موضع رؤى متباينة متناقضة فيتأسس حول أطروحتين متباينتين حتى و إن اقتضت استراتيجية الإقناع تغيب إحداهما أو أقصاهما بحيث لا يجليها ظاهر النص ولا تلمحها القراءة التي تقف عند حدوده لا تتجاوزها"[2] .

7- **التناغم والانسجام** بين أجزائه ومكوناته، بعيداً عن التناقض، فلا نتائجه تناقض مقدماته، ولا تناقض أوائله أواخره، ولا تعارض دقائقه عمومياته[3]. كما أن العلاقة بين أجزائه علاقة منطقية استنباطية أكثر من كونها علاقة تصورية مباشرة كما هو الحال في النص غير الحِجَاجي[4] .

8- يستمد الخطاب الحِجَاجِي خصائصه من الحقل التواصلي الذي يتحقق فيه، وعليه فإنه لا يمكن فصل الخطاب الحِجَاجِي عن سياقه المرجعي، فهو خاضع لإجماع متلقي

---

(1) الحِجَاج في الشعر العربي القديم : 36 .

(2) الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 28 .

(3) ينظر: نفسه: 36 .

(4) ينظر : النص الحِجَاجي العربي : 243 .

الخطاب في إطار مكاني محدد و سياق أو واقع بعينه (ضمن أفكار، و قِيَم مسلم بها) وهذا ما يجعله أكثر ارتباطاً بمجال التداوليات. و نتيجة لتعدد أنواع الحِجَاج، بتعدد السياقات المرجعية، فإنه يصبح "عملياً بعداً من أبعاد الخطاب الإنساني المتاح باللغة المكتوبة و المنطوقة . كما أنه فعالية لسانية منطقية ضمن هذا الخطاب" [1] .

9- مهما يكن نوع الحِجَاج سياسي أو قضائي، أو فلسفي لا يمكن أن يتخلص كلية من الرواسب البلاغية والخطابية، فالحِجَاج الذي يتغذى من اللغة الطبيعية وهاجس الإقناع و التأثير يظل دائماً محتفظاً بقدر معين من البلاغة والخطابة [2].

10- **خاصية التوجه الحِجَاجي**: حيث يشمل النص الحِجَاجي على ملفوظين اثنين يقوم أحدهما بتعزيز الآخر، فيسمى الأول حجة والثاني نتيجة [3]، والحُجَّة تكتسي بالنسبة إلى النتيجة قيمة معينة، إذ إنها تعززها أو تدحضها بدرجات متفاوتة[4] .

11- مبدأ القوة الحِجَاجِيَّة و مبدأ التعارض الحِجَاجِي، وهما مبدآن تتولد عنهما الحُجَج المتنوعة (المتعاندة والمتساندة) [5] .

---

[1] الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 98 .

[2] ينظر: نفسه: 111 .

[3] ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 227 .

[4] ينظر: نفسه : 228 .

[5] مبدأ القوة الحِجَاجية :

تحدد درجة قوة الحجج في تعزيز النتائج، ويفاضل بينهما من خلال مجموعة من الروابط الحِجَاجِيَّة مثل: (لكن ، وحتى)، بحيث يمكننا الحديث عن طبيعة تدرجية للحجج تتيح لنا دراسة النشاط الحِجَاجي اعتماداً على عبارات مثل: (أكثر ، أقل)، إن هذا المبدأ لا يرتبط فقط في طبيعة بعض الملفوظات التي ترد في الخطاب كحجج، فهذه الملفوظات ضمن سلم حِجَاجي واحد ، فيلعب ورودها في الخطاب وظيفة حِجَاجِيَّة قياساً إلى الملفوظات الأخرى الموجودة في رتب من المشترك كقولنا: هند جميلة جداً "إن قيمة هذا الملفوظ، تتحدد من خلال العلاقة التي يقيمها مع طبقة من الملفوظات الأخرى، التي تشترك معه في الانتماء إلى السلم الحِجَاجي نفسه، حيث يتضمن كل ملفوظ خاصية معيارية في صورة محمول تجعله يحتل رتبة معينة من هذا السلم، و يمكننا التمثيل لذلك بالشكل الآتي:

فيما وضع أولفي روبول خمس خصائص مميزة للنص الحِجَاجِي يستلهمها من قول بيرلمان وتيتكا[1]، أو ربما كان تلخيصاً موجزاً لها:

1- أنه يتوجه إلى سامع.

2- يُعَبَّر عنه بلغة طبيعية، وليست بلغة اصطناعية، وهذا يعني أنه بعيد عن النص المنطقي الذي يعتمد اللغة الاصطناعية.

3- مسلماته لا تعدو أن تكون احتمالية.

4- لا يفتقر تقدمه إلى ضرورة منطقية بمعنى الكلمة.

5- نتائجه ليست ملزمة.

الحِجَاج والبرهان :

لم يفرق القدماء بين مصطلحي **الحِجَاج والبرهان** فقد خلطوا بين معاني هذه المفردات. فـ" إدراج مفهوم الحجة بمعنى الشاهد والاستدلال والبرهان ضمن دائرة البيان والبلاغة الإقناعية، هو الذي جعل القواميس العربية تذكر هذه المفردات أو المفاهيم بمعنى واحدة ولا

=

↑
– جملية جداً.
– جميلة.
– جميلة بعض الشيء.
– متواضعة الجمال .

مبدأ القوة الحِجَاجِيَّة المرتبط بالطبيعة السليمة لبعض الملفوظات مطبقاً على خاصية الجمال النسائي. فالقيمة الحِجَاجِيَّة للملفوظ السابق، مستمدة من وضعه في سلم (الجمال النسائي) كقيمة عليا بالنسبة إلى باقي الملفوظات الواردة في السلم نفسه، فهو يمثل حُجَّة أقوى في صالح النتيجة الإيجابية الموافقة له." [الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو:230 ، 231].

أما مبدأ التعارض الحِجَاجِي: ويقتضي تعريفه أن يكون الحُجَّة الثانية نتيجة إلى نقيض الحُجَّة الأولى.[ينظر: الحِجَاجِيَّات اللسانية : 232].

[1] ينظر: هل يمكن أن يوجد حِجَاج غير بلاغي ؟ - أوليفي روبول، ترجمة: محمد العمري، مجلة علامات في النقد، الجزء الثاني والعشرين، المجلد السادس، ديسمبر، 1996م : 76 – 77 .

تميز بينها دلالياً أو وظيفياً"[1]. من ذلك ما ورد في لسان العرب: (البرهان) الحجة الفاصلة البينة يقال برهن يبرهن برهنة إذا جاء بحجة قاطعة للدد الخصم [2]. كما جاء في الكليات: البرهان: الحجة والدلالة[3]. والحجة: البرهان[4].

فيما نجد الدراسات الحديثة قد فرقت – إلى حد ما – بين مصطلحي الحِجَاج والبرهان[5]. ذلك أن تعالق الملفوظات [6] الواردة في البنى الاستدلالية البرهانية، لا يقوم على الملفوظات ذاتها، بل على القضايا التي تمثلها هذه الملفوظات، أي على وقائع العالم وأحوالها حقيقة كانت أو مفترضة. أمَّا العلاقة الحِجَاجية التي نجدها في الخطاب، فإن تعالق الملفوظات فيها يستجيب لاعتبارات داخلية، مرتبطة بطبيعة الملفوظات ومعناها ذاته، وليس بأوضاع العالم، أو العلاقات المنطقية والعقلية التي تحكم قضايا البنى البرهانية. فالاستدلال البرهاني يستمد مشروعيته وقوته من القوانين المنطقية التي ينتظم وفقها، ومن طبيعة القضايا التي يشير إليها في العالم كقولنا مثلاً:

(كل التلاميذ حاضرون، ومحمد تلميذ، إذن محمد حاضر).

أمَّا النشاط الحِجَاجي فليس هناك لزوم في النقلة من المقدمات إلى النتائج كما في الاستدلال البرهاني، ولكن هذا الانتقال يتم بناءً على معرفتنا بالعالم أولاً، ثم استناداً إلى مدلول الحُجَج المعروضة في هذا الملفوظ، فهذه الحُجَج تقدم لنا مبررات، أو بتعبير آخر شواهداً تجيز توقع نتيجة معينة كقولنا:

السماء غائمة، ومؤشر البارومتر نزل بشكل واضح، إذن فسوف تمطر اليوم.

---

(1) الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 109.

(2) ينظر: لسان العرب: مادة برهن.

(3) ينظر: الكليات: 248.

(4) ينظر: نفسه: 406.

(5) ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 226.

(6) الملفوظ: يقصد به الجملة في السياق.

ثم إن النتيجة في النشاط الحِجَاجِي احتمالية وليست أكيدة ١٠٠٪ [1] ، أمّا البرهان فإمّا أن يكون صائباً وإما أن يكون خاطئاً. فالبرهان يكون صحيحاً بصحة نتائجه وكفايتها الذاتية، أي استغناؤها عن دعم أو تقوية خارجية، كما أن صدق البرهان هو صدق قضاياه وما يلحمها من علاقات ومن ثم لا تقاس قيمة البرهان برأي أو موقف الآخر منه وتقييمه له، بل قيمة مباطنة له. أما الحِجَاج فلا يملك صرامة وإلزامية البرهان ولا موضوعية وقوة الدليل، ذلك أن صلاحية الحِجَاج تقاس بمعايير خارجية أي بمعايير قوته وضعفه في الإقناع، فغاية الحِجَاج، إذن، ليست هي للصواب أو الصحة بل التأثير والاستمالة [2]. ومن ثم تتعدد الحجج في الفعل الحِجَاجي، حيث يتم اختياراً حسناً، وترتب ترتيباً محكماً لتترك أثرها في المتلقي [3]، بينما يمكن الاكتفاء في الاستدلال البرهاني بدليل واحد فقط وإثبات النتيجة.

كما نجد أن الحُجَج لا تلزم عنها نتيجة بصورة ضرورية كما هو الحال في البرهان، بل غايتها أنها تزيد من الدرجة الاحتمالية للنتيجة، ومن ثم درجة الاعتقاد فيها فتكون هذه الدرجة أكبر، كلما كانت هذه الحُجَج أجود وأكثر [4].

وأخيراً نجد أن الحِجَاج بما يقوم عليه من دلالة صرفية دالة على معنى المشاركة في تقويم الحُجَج، ومقابلة الحُجَّة بالحُجَّة، أشمل وأوسع من مفهوم الاستدلال البرهاني الذي يظل محافظاً على حدِّه المنطقي [5]، فالبرهان مستقل عن كل فعل تداولي، لأنه يرتبط باللغة

---

[1] ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو : 226 .

[2] ينظر: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي : 117 .

[3] ينظر: حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية : 40 .

[4] ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 227 .

[5] ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 9.

الاصطناعية لا الطبيعية، في حين نجد الحِجَاج ذا فعالية تداولية، لأنه يتعلق بالخطاب الطبيعي من جهتي الاستعمال والمضمون [1] . كما أن الحِجَاج أعم من البرهان لاختصاصه بيقين المقدمات. [2]

(1) ينظر: مفهوم الحِجَاج في الفلسفة : 40 .

(2) ينظر: الكليات: 406 .

الفصل الأول:

عناصر الخطاب ودورها في إنتاج الخطاب الحِجَاجِي.

إن خلاصة القول فيما توصلنا إليه في المهاد النظري أن مفاهيم الحِجَاج تتعدد لتعدد مجالاتها المختلفة، الأمر الذي قد يثير الكثير من الصعوبات المنهجية في مجال الدراسات الحِجَاجِيَّة عامةً، وفي دراسة القرآن الكريم خاصةً.

إلاّ أننا – وفي دراستنا هذه – سننطلق من فكرة أن القرآن الكريم خطاب، يقتضي التأثير والإقناع.

والخطاب في تعريف لتش (Litch) وزميله شورت (Chort) : تواصل لساني يُنْظَر إليه كإجراء بين المخاطِب والمخاطَب؛ أي فاعلية تواصلية يتحدد شكلها بواسطة غاية اجتماعيَّة[1].

كما يعرفه بنفينست (Benvenicte)، بأنه وفي أعم مفاهيمه: كل قول يفترض متكلماً وسامعاً، مع توافر مقصد التأثير بوجه من الوجوه في هذا السامع [2].

فالقرآن الكريم خطاب موجه للتأثير في آراء المخاطبين، غايته استمالة العقول وتوجيه النفوس وتقويم السلوك وإصلاحها، نزل ليُسَطِّر للفرد نظام العلاقات، علاقته بخالقه، وعلاقته بنفسه وعلاقته بغيره من البشر وبقية الكائنات والكون من حوله. يقول ابن عاشور في حديثه عن أغراض القرآن : "إن الغرض الأكبر للقرآن الكريم هو إصلاح الأمة بأسرها. فإصلاح كفارها بدعوتهم إلى الإيمان و نبذ العبادة الضالة [...]، وإصلاح المؤمنين بتقويم أخلاقهم وتثبيتهم على هداهم وإرشادهم إلى طريق النجاح وتزكية نفوسهم ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدة الدعوة"[3]، وهذه أغراض ذات صلة وثيقة بمضامين الحِجَاج: أهدافه وخصائصه[4].

---

(1) ينظر: مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري - د/ نعمان بوقرة،عالم الكتب الحديث، إربد– الأردن، ط1، 1428هـ - 2008م: 21.

(2) : Emil Benevniste, Problémes de linguistique générale I , Editions Gallimard, 1966, p246. نقلاً عن الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 41. واستراتيجيات الخطاب– عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط1، 2004م : 37.

(3) التحرير والتنوير: 1/ 81.

(4) ينظر: التمهيد من هذا البحث، خصائص الخطاب الحجاجي: 38– 41.

ومن خلال التعريفات السابقة نجد أن الخطاب يتجاوز حدود اللغة بوصفها نظاماً للعلامات ليدخل عالماً آخراً، هو عالم اللغة بوصفها وسيلة اتصال.

والتواصل (Communication) – أو العملية التواصلية – كما يعرفها أمبرطو إيكو (Eco): هي نقل الرسالة من المخاطِب إلى المخاطَب، مع وجود استجابة تأويلية لدى المخاطَب تثيرها هذه الرسالة[1].

وكون الخطاب وسيلة اتصال، فهو – إذن- إنجاز يقتضي لقيامه توافر عناصر الاتصال التي لا يمكن أن تتم أي عملية تواصل إلا بها، وهي[2] :

- المخاطِب.
- المخاطَب.
- الخطاب.
- فعل التأثير الخطابي.

وهكذا فإن الخطاب بهذا الوصف يخضع لقواعد وشروط القول والتلقي، وهو مجال اهتم به – في عصرنا الحديث – درس التداوليات بمدارسه المختلفة.

ومن هنا فإننا بدراستنا للحجاج، نكون قد دخلنا في صميم الدرس التداولي؛ إذ يُعَدُّ الحِجَاج أحد فروع (التداولية اللسانية)[3]، التي يمكن ترجيعها إلى أربعة اتجاهات[4] :

(1) ينظر: دروس في السيميائيات – د/ حنون مبارك، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987م: 16 .

(2) ينظر: في ماهية النص الشعري (إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي) – محمد عبد العظيم، مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت- الحمراء، ط1، 1410هـ - 1994م : 10، والنظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون (دراسة ونصوص)– فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- الحمراء ، ط1، 1413هـ - 1993م : 40 .

(3) وهو ما يقرره (ديكرو) وزميله (أنسكومبر) في كتابها (الحجاج في اللغة)، ينظر: J.C. Anscober et, L,argumentation dans La Langue et O. Ducrot, op ,cit, p :173، نقلاً عن : الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 33.

(4) ينظر: السياق والنص والشعري (من البنية إلى القراءة) – علي آيت أوشان، مطبعة النجاح الجديد، الدار البيضاء، ط1، 1421هـ- 2000م: 16.

- تداوليَّة أفعال الكلام.
- التداوليَّة الإشارية.
- التداوليَّة الحِجَاجِيَّة.
- التداوليَّة الوظيفيَّة.

والتداولية هي مبحث من مباحث الدراسات اللسانية التي تطورت إبان سبعينات القرن العشرين، وهي العلم الذي يختص بتحليل الأفعال الكلامية، ووظائف المنطوقات اللغوية في عملية الاتصال بوجه عام[1]. ويهتم بدراسة كيفية الإنتاج والفهم لفعل كلامي في إطار تواصلي محدد.

وقد كان ظهور هذا العلم نتاجاً لتداخل عِدَّة تخصصات شملت علوم الفلسفة واللغة والانثروبولوجيا، بل وعلم النفس والاجتماع أيضاً[2]. بيد أن أول ظهور له كان توجهاً فلسفياً معاصراً، في الولايات المتحدة الأمريكية، في أواخر القرن التاسع عشر، من قِبَل شارك سندرس بيرس – مؤسس هذا التيار، ووليام جيمس، وجون ديوي[3].

إلا أن التأويلات التداولية للسيميائية، ودراسة الاتصال اللفظي التي وضعها شارل موريس، وهو أحد الفلاسفة الأمريكيين، في كتابه (أسس نظرية العلامة) عام 1938م، كان من شأنها أن ساعدت في التقريب بين السيمياء واللسانيات[4]، وأكسبت مبحث التداولية استقلالية بوصفه ميداناً فرعياً من اللسانيات.

---

(1) ينظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) – تون أ. فان دايك، ترجمة وتعليق: د/ سعيد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب – القاهرة، ط2، 2005م: 114.

(2) ينظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) – تون أ. فان دايك: 114.

(3) ينظر: العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة – د/ الزواوي بغورة، عالم الفكر، العدد(3)، المجلد(35)، مارس 2007م: 99.

(4) ينظر: نفسه: 99- 100.

وبهذا يكون (شار موريس) هو أوّل من أعطى تعريفاً للتداولية، حيث اعتبرها البعد الثالث من أبعاد السيميائيات العامة، عندما ميَّز بين ثلاثة فروع للسيميائيات هي[1]:

- علم التركيب (Syntax) : ويُعنى بدراسة علاقة اللغة باللغة، أي دراسة العلاقات الشكلية بين العلامات.
- علم الدلالة (Semantics): ويُعنى بعلاقة اللغة بالواقع.
- علم التداولية (Pragmatics): ويعني علاقة اللغة بالمتلقي، وبالظواهر النفسية والحياتية والاجتماعية المرافقة لاستعمال هذه الرموز وتوظيفها.

فيما يرجع الفضل في ظهور التداولية كمنهجٍ ونظريةٍ متكاملةٍ إلى الفيلسوف الإنجليزي (أوستين)، إثر صدور كتابه (**كيف نصنع الأشياء بالكلمات**)، وهو كتاب ضم محاضراته التي ألقاها في جامعة هارفرد سنة 1955م[2]، حيث تتحدد عنده التداولية بأنها "دراسة للتعامل اللغوي من حيث هو جزء من التفاعل الاجتماعي"[3]. فليست اللغة عنده وسيلة للتواصل فحسب، بل هي أيضاً وسيلة للتأثير في الواقع وتغيير السلوك والمواقف[4].

وهو بهذا التعريف يتعدى المستوى اللغوي للغة، إلى دائرة التأثير، من خلال استعمال اللغة لتحقيق الغرض التواصلي، ليكون بذلك قد حقق نقلةً نوعيةً في مجال البحث اللساني بشكل عام، والتداولي بشكل خاص[5].

---

(1) ينظر: علم الدلالة السمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية – أ.د/ شاهر الحسن، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1422هـ – 2001م: 157، واستراتيجيات الخطاب : 574.

(2) ينظر: المقاربة التداولية – فرانسواز أرمينكو، ترجمة: سعيد علوش، مركز الإنماء القومي: 95، و مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب – د/ محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م: 34 .

(3) ينظر: المقاربة التداولية: 95 .

(4) ينظر: السياق والنص الشعري: 63 .

(5) ينظر:نفسه : 63 .

وقد شاع مصطلح (التداولية)[1] في كتابات بعض اللغويين العرب، وهم يستعملونه للدلالة على مضمون كلمة (Pragmatics) الإنجليزية[2]، إلا أن الفضل في وضع هذا المصطلح يعود للفيلسوف المغربي الدكتور طه عبد الرحمن سنة 1970م[3].

وعلى الرغم من أن التداولية مبحث لساني جديد، غير أن التفات الدارسين إلى أعمال الخطاب وعنايتهم بتأثيراته الفعلية لم يكن بدعاً مستحدثاً في الستينات؛ إذ إن عناية الفلاسفة بالخطاب قديماً تمتد جذورها إلى الفلسفة اليونانية لاسيما أعمال سقراط وأفلاطون وأرسطو[4].

كما لا نعدم – أيضاً – أن نجد جذور هذه النظرية تمتد في أصول الدرس العربي القديم على نحو يمكن ملاحظته في سهولة ويسر، وإن اختلفت التسميات، وتنوعت طرق العرض، إلا أنها لا تختلف كثيراً عن جوهر النظرية التداولية الحديثة، حيث تظهر نظرات التداولية عند القدماء من المنظرين العرب في اهتمامهم بقضية الفهم والإفهام، وقضية المقصدية ونوايا المتكلم، وعملية التأثير ومراعاة المتلقي، ومطابقة المقال لمقام التكلم، وشروط الخطاب الناجح، والأثر الناتج عن هذا الخطاب [5].

---

(1) وقد حظي هذا المصطلح بالتداول، في الوقت الذي تعددت فيه ترجمة مصطلح الـ (Pragmatics) إلى (النفعية – الذرائعية – الاتصالية، البرجماتية، نقل حرفي للمصطلح إلى العربية..). ويعود الاختلاف في ترجمة هذا المصطلح إلى تعدد واختلاف المنطلقات والتصورات في دراسة التداولية، الأمر الذي أحدث نوعاً من التداخل بين الحقول، أدى إلى اختلاف التسميات التي انعكست، من ثم، على ترجمة المصطلح.

(2) ينظر :اللسانيات (المجال، والوظيفة، والمنهج):289.

(3) ينظر : استراتيجيات الخطاب :574، وينظر: الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه، إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، 2006م: 262.

(4) ينظر: الحجاج في الشعر العربي القديم: 17 .

(5) ينظر منها على سبيل المثال لا الحصر: الكتاب – سيبويه (ت: 180هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، د.ت: 1/ 25، 392، 2/ 54، 80، 257، والبيان والتبيين- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:255هـ)، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط7، 1418هـ – 1998م: 1/ 75،

وبصرف النظر عن تداخل الاختصاصات المقاربة للتداولية، فإن التداولية بوصفها عملية تحليل للأفعال الكلامية في عمليات الاتصال[1]، تأتي قيمتها من كونها تسعى إلى الإجابة عن أسئلة أهمها[2]:

- من يتكلم ؟ ← المخاطِب.
- من هو المتلقي؟ ← المخاطَب.
- ما هي مقصدية الكلام؟ ← الغرض التواصلي.
- كيف نتكلم بشيء ونسعى لقول شيء آخر؟ ← سيمولوجيا التواصل.

حيث تستدعي هذه الأسئلة استحضار مقاصد التكلم وأفعال اللغة وبعدها التداولي والسياق، وهي أسئلة تنطبق على كل أنواع الخطاب لاسيما الخطاب الحِجَاجِي الذي تبرز فيه مكانة القصدية والتأثير والفعالية[3].

136، 138- 139، والشعر والشعراء – ابن قتيبة (ت:276هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف – القاهرة، ط2، د.ت:/ 74- 75، وأسرار البلاغة- عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت: 474 هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، المدني جدة، ط1، 1412هـ- 1991م:26، 121، 122 ، ودلائل الإعجاز: 93- 95، 330- 334، 351، 441 ، ومواضع أخرى كثيرة متفرقة من الكتاب لا يتسع المقام لذكرها، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الأثير (ت: 637هـ)، قدمه وعلق عليه: د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت: 1/ 40- 41، 2/ 250- 255، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء – أبي الحسن حازم القرطاجني (ت: 684 هـ)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط3، 1986م :64، 71، 82، 90، 103- 104، 199، 202، 337 ، والطراز – يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت:705هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، ط1، 1423هـ – 2002م: 1/ 16، 18، 62، 63، 2/ 119، 120، 145، 148، 152 ، 3/ 140- 142.

(1) ينظر: علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات): 114.

(2) ينظر: السياق والنص الشعري: 96، و الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجِي: 102.

(3) ينظر: الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجِي: 101، 102 .

ومن هنا فإن الحديث عن الخطاب الحِجَاجي بِعَدِّه استعمالاً لغوياً ينتمي إلى الحقل التداولي الذي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل[1]، يجعله مرهوناً بمجموعة من العناصر الأساسية يرتكز عليها، فمنها ما يرتبط بالمتكلم، ومنها ما يتعلق بالمتلقي، ومنها ما يتصل بالرسالة اللغوية نفسها، مع مراعاة هذه العناصر لمقتضيات الحال الذي يساق وفقاً لها الخطاب الحِجَاجِي.

وهذه هي عناصر عملية التخاطب التي سيتم مناقشتها في هذا البحث وفي ضوئها تتضح المعالم البلاغية لهذا الخطاب، ويتجلى دورها في التأثير والإقناع.

[1] وكون التداولية تدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل، يمكن وصفها بأنها : خطاب محدد ، ينتج عن مخاطِب محدد، موجهه إلى مخاطَب محدد، في سياق تواصلي محدد، لتحقيق غرض تواصلي محدد [ينظر: استراتيجيات الخطاب: 23، والتداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي – مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م: 16 – 17. ومدخل إلى التحليل اللساني الشعري: 21] .

المبحث الأول:

المخاطِب ودوره في إنتاج الخطاب الحِجَاجي.

المخاطِب:

ويمثل الذات المحورية في إنتاج الخطاب، لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه[1].

ويختلف الخطاب تبعاً لاختلاف المخاطِب[2]، إذ يظهر "فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد، وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم"[3].

أما المخاطِب في القرآن الكريم، فالرؤية العامة لسياق القرآن، تُقَرِّر أن المخاطِب في القرآن الكريم كله هو الله تعالى، لأن القرآن كله كلام الله، ويكون المخاطَب هو الرسول ﷺ لأنه المتلقي الأول للقرآن الكريم[4]، قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: 45- 46]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل:6].

غير أن الخطاب قد يأتي على لسان أحد الأنبياء، أو الأقوام أو إحدى الشخصيات القصصية، فتختلف لذلك دلالة النص تبعاً لاختلاف المخاطِب[5].

وانطلاقاً من تعريف الخطاب بِعدِّه نشاطاً تواصلياً موجه إلى الغير للتعبير عن قصد المرسل، وتحقيقاً لهدفه[6]، يتضح أن الخطاب:

---

(1) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 45.

(2) ينظر: دلالة السياق في القصص القرآني، محمد عبد الله علي سيف، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1423هـ - 2002م: 206

(3) دلائل الإعجاز: 43.

(4) ينظر: دلالة السياق في القصص القرآني: 206، ومفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) – نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1996م: 59.

(5) ينظر: دلالة السياق في القصص القرآني: 206.

(6) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 86، 149.

1- يجري بين طرفين هما : - المخاطِب.

- المخاطَب.

2- يعبِّر به المخاطِب عن قصد.

3- يحقق هدفاً.

وعلى ذلك فالمخاطِب هو طرف الخطاب الأول الذي يتجه إلى الطرف الثاني المخاطَب، ليكمل دائرة العملية التخاطبية، بقصد التأثير في معلوماته واتجاهاته وسلوكه، واضعاً بعين الاعتبار هذا المخاطَب (لغته وعاداته وثقافته وحاجته)[1]، وإلى ذلك يشير الطبري في مقدمة تفسيره بأن المخاطَب "إن لم يفهم ما خوطب به وأُرسل به إليه فحاله – قبل مجيء الرسالة وبعده – سواء، إذ لم يفدْه الخطاب والرسالة شيئاً كان به قبل ذلك جاهلاً، والله جل ذكره يتعالى أن يخاطِب خطاباً أو يرسل رسالة لا توجب فائدة لمن خوطِب أو أرسلت إليه، لأن ذلك من فعل أهل النقص والعبث، والله تعالى عن ذلك متعالٍ"[2].

فمراعاة حال المخاطَب يحافظ إلى حدٍّ بعيد على تفاعله مع المخاطِب في عملية التلقي والفهم والتفسير، أكان ذلك في حال الخطاب المباشر "الذي يتميز بإشراك عناصر أخرى خارجه[3] تعمل على استمرار التفاعل بإكمال الثغرات في بنية الخطاب، أو في حال الخطاب

---

(1) ينظر: التواصل الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي – د/ إبراهيم أبو عرقوب، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، ط1، 1993م.: 41، 128، و استراتيجيات الخطاب- مقدمة المؤلف : V .

(2) جامع البيان في تأويل القرآن: 11/1 .

(3) ويقصد بالعناصر الخارجة: ما تحاط به عملية التخاطب من الملابسات والأحوال والظروف التي تتكاثف جميعها في التأثير على دلالة الخطاب الحرفية، منها ما يستخدمه المخاطِب من الإشارات والإيماءات المساعدة على إيضاح الفكرة وإبلاغها إلى السامع، ومنها ما يتعلق بشخصيات المتخاطبين وحياتهم الخاصة، ومنها ما يدخل في الإطار الاجتماعي كثقافة المتخاطبين وتاريخهم الاجتماعي والعلاقة بينهم، ومنها ما هو وليد الموقف، بحيث تحكمها ظروف الزمان والمكان التي وقع فيها الكلام . [ينظر: وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء الدلالة المركزية محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، الجماهيرية العظمى، د.ط ،1993م : 137] .

غير المباشر الذي يُحتِّم افتراض تلك العناصر الخارجية ليشكل صورة من صور التفاعل[1]، تختلف باختلاف حال المخاطبين، زمانهم، مكانهم، وثقافتهم، وكفاءتهم"[2]؛ حفاظاً على الاتصال القائم بين طرفي التخاطب. وهذا ما يقتضيه الخطاب الحِجَاجي، انطلاقاً من جوانب مختلفة تتجاذبه؛ " لا تتعلق باللغة فحسب، بل ترتبط أيضاً بالجانب النفسي والاجتماعي والثقافي، وغيره من المستلزمات التي تؤطِّر وتسهم في إنتاج الخطاب اللغوي الحِجَاجي "[3].

لذا يغدو من المسلمات البديهية في الخطاب استخدام آليات معينة، تتفاوت من خطاب إلى آخر بحسب نوعية السياق، وطبيعة المخاطبين.

كما يظهر للهدف دور كبير في التأثير على المخاطِب وتوجيهه في اختيار آلياته وأدواته التخاطبية، بما يكفل الإقناع والتأثير ، مراعاةً لحال المخاطَب[4].

والهدف الذي يسعى إلى تحقيقه هذا الخطاب هو الإقناع[5]، أي الحصول على موافقة المتلقي ودفعه للفعل. وحتى تتم عملية الإقناع، على المخاطِب أن يراعي الجوانب المختلفة المتعلقة بالمخاطَب. وهذا يدخل ضمن ما يسمى بالآليات الضرورية في عملية التخاطب، وتتمثل في:

(1) وهذا ما يمثل الوظيفة الثالثة من وظائف اللغة التي حددها جاكبسون، وهي وظيفة إقامة التواصل " وذلك حين يقيم المرسل اتصالاً مع المرسل إليه، ويحاول الإبقاء على هذا الاتصال" (النظرية الألسنية (دراسة ونصوص): 66).

(2) دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة – د/ سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق – القاهرة، د.ط، د.ت: 256- 257.

(3) البيان الحِجَاجي في القرآن الكريم، سورة الأنبياء نموذجاً- د/ عبد الحميد عيسى ، مجلة التراث العربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – دمشق، العدد (102)، السنة السادسة والعشرون ، نيسان 2006م – ربيع الثاني 1427هـ : 37.

(4) ينظر: استراتيجيات الخطاب : مقدمة المؤلف (V)، 149 .

(5) وهو ما يقرره بيرلمان وزميله في قولهما : بأن "إذعان العقول بالتصديق لما يطرحه المرسل أو العمل على زيادة الإذعان هو الغاية من كل حجاج؛ فأنجع حجة هي تلك التي تنجح في تقوية حدة الإذعان عند من يسمعها وبطريقة تدفعه إلى المبادرة سواء الإقدام على العمل أو الإحجام عنه، أو هي على الأقل ما تحقق الرغبة عند المرسل إليه في أن يقوم بالعمل في اللحظة الملائمة." [نقلاً عن: استراتيجيات الخطاب:456 – 457].

1. (الكفاية التواصلية).
2. (سيمولوجيا التواصل)[1].

أولاً/ الكفاية التواصلية:

وهي إحدى الآليات الضرورية في عملية التخاطب، وتتصل بـ:

1- **معرفة اللغة والعلم بأسرارها**، وإنتاج الكلام وفقاً لأصولها وقواعدها، والقدرة على الإبداع والابتكار لإنتاج الكلام البليغ؛ وليس الكلام البليغ في إيراد الأساليب والألفاظ فقط، لأن البلاغة في الحقيقة تكمن في مراعاة الحال، ومناسبة الكلام لعقل المخاطب وطبيعته ونفسيته، من ثم تأتي الألفاظ بناءً على ما يستوجبه حال المخاطَب، فليس من البلاغة مخاطبة الملوك بخطاب العامة، أو مخاطبة الجاهل بخطاب الفقيه العالم[2]، فالبلاغة كما يعرفها العلماء هي: "مطابقة الكلام لمقتضى الحال، مع فصاحة عباراته "[3].

ولأن القرآن الكريم كلام الله، ولأنه عزَّ وجل قد أحاط بكل شيء علماً، فقد نزل القرآن بلغة العرب وفق قواعد وقوانين العربية، لم يخرج عن معهود العرب في لغتهم من حيث المفردات والجمل وقوانينها العامة. فمن حروفهم تألفت كلماته، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه، وعلى قواعدهم في الصياغة والتركيب جاء تأليفه، بل وفاق العرب الذين بلغوا شأواً لا ينافس في الفصاحة والبلاغة والبيان[4].

وهو منهج حياة متكاملة، وهداية للإنسان، ففيه اللغة والبيان، والأدب والتربية، والعلوم والفنون والتاريخ ...، بل ويمثل القيم المرجعية لذلك كله، أراد الله – عزَّ وجل – أن

---

(1) وسيمولوجيا التواصل حسب تعريف (بويسنس)، هي:"دراسة طرق التواصل، أي دراسة الوسائل المستخدمة للتأثير على الغير والمعترف بها بتلك الصفة من قبل الشخص الذي نتوخى التأثير عليه" [ينظر:دروس في السيميائيات: 72].

(2) ينظر: جواهر البلاغة (في المعاني والبيان والبديع) – السيد أحمد الهاشمي، تحقيق وشرح: د/ محمد التونجي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ – 1999م: 43 – 50 .

(3) جواهر البلاغة: 50 .

(4) ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن - الأستاذ الشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني، حققه واعتنى به: فوّاز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1415هـ - 1995م: 2/239- 240.

يجعل منه منهجاً لإحداث التواصل والتحاور[1]. ولأن الهدف من الخطاب القرآني أن ينفذ إلى الفطرة التي فُطِرَ الناس عليها ؛ فقد جاء في صيغته اللغوية منطقياً من حيث هو معانٍ متلقاة في لغة يفهمها متلقيه الأُوَل هي اللغة العربية، بحسب اصطلاحهم على تأدية تلك المعاني.

والله – سبحانه وتعالى – حين أوحى للرسول ﷺ بالقرآن" اختار النظام اللغوي الخاص بالمستقبل الأول، وليس اختيار اللغة اختياراً لوعاءٍ فارغٍ؛ ذلك أن اللغة أهم أدوات الجماعة في إدراك العالم وتنظيمه"[2].

كما أن البناء اللغوي والمعرفي والفكري لهذا الخطاب، ليست واردة فيه بحسب مدارك النبي ﷺ فتكون بذلك متطابقة تماماً مع هذه المدارك كما قد يعتقد البعض، بل جاءت في صور يستعملها عامة الناس من حيث هم بشر ذوو طبيعة معاصرة لماهية مصدر الخطاب[3].

وهكذا يمكن القول إن القرآن الكريم كتاب الله – عزَّ وجل – وكلامه إلا أنه نزل في مستوى عقول البشر – متناسباً مع مستواهم الفكري والثقافي والمعرفي – وهو معجزة آخر الزمان؛ ولأنه كذلك فلا بد إذن أن يتناسب مع أمة آخر الزمان على اختلاف لغاتهم، وثقافتهم[4]، فأهم ما يميز هذه المعجزة الخالدة أنها جاءت "متفقة مع طبيعة القوم الذي ظهرت فيهم، ومع طبيعة ما يحسنون من المهارات وما تميزوا به من الصنائع والكفاءات، ولولا ذلك لما أثرت فيهم ، ولما استجابت له أنفسهم، إذ حقيقة التحدي وقيمته أن يكون فيما يحسنه المتحدى، ويدعي التفوق فيه"[5]، وإلا لما كان للتحدي معنىً.

(1) ينظر: أسرار التكرار في القرآن (المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحُجَّة والبيان)، محمود بن حمزة الكرماني (ت: 505هـ)، دراسة وتحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، د.ط، د.ت:57- 61، ومنهج السياق في فهم النص – د/ عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، قطر، ط1، محرم 1427هـ – فبراير 2006م :22.

(2) مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن): 24.

(3) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 937- 938 ، ومفهوم النص (دراسة في علوم القرآن):55، 56، 57.

(4) وألوهية مصدر النص القرآني لا تنفي واقعية محتواه، ولا تنفي من ثم انتماءه إلى ثقافة البشر. ينظر:[مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن): 27، 28].

(5) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم – أ.د/ وليد قصَّاب، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، 1421هـ – 2000م : 11.

فالقرآن الكريم – إذن – خطابٌ، التحدي فيه موجهٌ للخلق جميعاً، لإنسِهِم وجِنِّهِم، لكن المعني به في المقام الأول – من حيث اللغة – العرب القدماء، أهل الفصاحة والبيان، وأرباب اللسن والكلام، فإن عجزوا عنه، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، فجميع من بعدهم بعد ذلك أعجز[1].

كما تجدر الإشارة أيضاً إلى أن نزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين، كان ضرورة اجتماعية لنجاح رسالة الإسلام، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ [إبراهيم:4]. فمخاطبة المتلقي بغير لغته يعني بناء حواجز بينه وبين المرسل، أما مخاطبته بلغته فيعني سهولة بلوغ الرسالة وتحقيق الهدف، كما يؤدي إلى علو درجات الاتساق بين الرسالة والمتلقي، مما يؤدي إلى سمو درجات التلقي.

2- **مراعاة المستوى الثقافي والمعرفي للمخاطَب:**

حيث تتركز الكفاية التواصلية أيضاً على المعرفة التامة بثقافة عالم المخاطَب ثم استثمار عناصر هذه الثقافة في الإقناع والتأثير.

ومعرفة المخاطب تعني: الإحاطة بمستواه وبنائه الثقافي، وهذه المعرفة هي التي توجه طبيعة الخطاب وطريقته وأسلوبه، لذا فقد نزل القرآن الكريم في مستوى عقول البشر منسجماً مع استعداداتهم الفطرية، وطاقاتهم الروحية، فأخرج تعالى مخاطباته في مُحَاجَّة خلقه في أجلى صورة، لتفهم العامة من جليلها ما يقنعهم وتلزمهم الحُجَّة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يُرْبي على ما أَدْركه فهم الخطباء، فيجد العالِم فيه بغيته، والفيلسوف طلبته، والعامة من الناس ما فيه دواء لنفوسهم، وشفاء لقلوبهم، والحق الميسر الهادي لهم الذي يأخذ بأيديهم إلى العزة والرفعة[2].

---

[1] ينظر: إعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: 403هـ)، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ/ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم – بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م: 51– 52 . و أسرار التكرار في القرآن: (مقدمة المحقق): 54- 55.

[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1954- 1955، و القرآن المعجزة الكبرى: 394، 395، 396 .

ومما يدخل في مراعاة حال المخاطَب، معرفة ثقافة العصر والنظر من زاويته، فما يتناسب مع أقوام قد لا يتناسب مع أخرى، إلا أن القرآن الكريم قد جاء مراعياً لنفسيات البشر على اختلافها، فالحجة العقلية، والحجة المشاهدة، وغيرها، وما يناسب أشخاص من حُجَج عقلية، يناسب آخرين بما فيه من إيقاع وأسلوب وبلاغة.

لذلك جاء القرآن متحدياً عقل العالم بأسره، يخاطب الإنسانية كافة، منسجماً مع ما يحدث في الدنيا من تحول وتوسع، ومتحدياً التكنولوجيا الحديثة، لذا نجده يُحاجِج الكفر في عصرنا بالعلم لأنه الطريق الأمثل لإقامة الحُجَّة على عصر هذا الزمان ... زمن العلم [1].

كما أن الغاية التي يسعى إلى تحقيقها الخطاب، ودور هذه الغاية يبدو في تأثيرها في أسلوبه، وفرضها نوعاً معيناً من التعبير، فغاية الإقناع المنطقي المحض لا تقتضي شحن الرسالة بالمؤثرات الإيحائية، وظلال المعاني، في حين أن غاية التأثير (سواء أقرنت بغاية الإقناع، أم لا) تطبع الكلام بطابع الأدبية بما تقتضيه من صور فنية ومحسنات بديعية، فقد تستخدم الصور والتراكيب المؤثرة، تحقيقاً لغاية الترغيب أو الترهيب من سلوك معين[2].

3- مراعاة الجانب الروحي والنفسي لدى المخاطب:

فحتى يكون الخطاب مؤثراً، على المخاطِب أن يكون خبيراً بالبناء الروحي للمخاطَب، يدرك المسائل التي انغرست في ذهنه انغراس السهم المسموم، فيتكلم بما يريد ضمن هذه المعرفة، ليتلقى الكلام قبولاً حسناً لدى المخاطَب، وينعكس في قلبه ويستقر في منطقه[3].

= إن من يقرأ القرآن الكريم يرى فيه مطلبه، ويدرك من معانيه ما يكفيه، وهذا الجانب من القرآن عجيب إلى حد أن كل من يستمع إليه بقلب شهيد، يعتقد أنه هو المقصود الوحيد في الخطاب، فالألوف من العلماء الأعلام على اختلاف مستوياتهم قد بينوا اختلاف مستوى فهم وتمايز بعضهم عن بعض لدى طرح ملاحظاتهم وفكرهم حول القرآن. وحتى في خير القرون، كان الأمر أيضاً على هذا النمط، يعني أن فهم الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - للقرآن وإدراكهم له ليس بمستوى واحد = واختلاف المستويات هذه لا يحجب الاستفادة من القرآن. [ينظر: معرفة المخاطَب وأسلوب التفاهم- فتح الله كولن، موقع فتح الله كولن، 2007/3/10م].

[1] سيأتي تفصيل هذا في المبحث الثاني من هذا الفصل.

[2] ينظر: وصف اللغة العربية دلالياً: 132.

[3] ينظر: معرفة المخاطب وأسلوب التفاهم – فتح الله كولن، موقع فتح الله كولن، 2007/3/10م.

كما تُعَدُّ طبيعة مادة الخطاب مما يؤدي إلى تأثيره في المتلقي، ذلك أن طبيعة مادة الخطاب ذات صلة وثيقة بالمدركات المتصلة بالانفعالات الإنسانية، والتي تُعَدُّ المؤثر الأساس في الإنسان(1).

وينبغي أن يتصل الخطاب الحِجَاجِي باللين، حيث يقتضي الإقناع: أن يتدرج المتكلم مع المتلقي ببطء، وأن لا يفرض عليه تغييراً سريعاً، لأن النفس لا تحب التغيير المفاجئ(2).

ولأن سورة الأنعام، هي سورة الحِجَاج، فقد راعت جميع هذه الأمور. ولكن كيف سُخِّرت هذه المعرفة، وكيف وظِّفت في تحويلها إلى عناصر إقناع وتأثير في سياق السورة الكريمة؟ هذا ما ستقوم فصول ومباحث هذه الدارسة بتتبعه.

ثانياً / سيمولوجيا التواصل:

وتتمثل هذه الآلية في مجموعة من العناصر، ترفع من القيمة البلاغية للخطاب الذي يسعى جاهداً إلى تقرير الإقناع في نفس المخاطَب.

ومن هذه العناصر في السورة، والتي أسهمت بشكل فاعل ومباشر في بناء الخطاب الحِجَاجِي فيها ما يأتي:

1- **افتتاح السورة وختامها:**

أولاً / افتتاح السورة:

مما تجدر الإشارة إليه أن مفتتح السورة "يمثل بداية التواصل مع السورة كلها، وأن ختامها هو آخر ما يبقى في آذان السامعين وأذهانهم معاً" (3).

والابتداء: هو الوحدة البنائية الأولى من النص . وهي وحدة سمعية ومعنوية تفتح للخطاب قناة الاتصال. وهو أول ما يقرع السمع من الكلام، وبه يُسْتَدَل على ما المعنى من أول وهلة، فإذا كان الابتداء لائقاً بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه (4).

---

(1) سيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصل الثالث، المبحث الأول من هذا البحث: 213 – 234 .

(2) ينظر: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي: 150 .

(3) بلاغة الصورة القرآنية (الجماليات والتجليات)- د/ طارق سعد شلبي ، دار البراق، د.ط، د.ت: 222 .

(4) ينظر : البيان و التبيين: 1/ 112، والمثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: 3/98 .

ومن شروط المبدأ الحسن عند القدماء في كل كلام :

- **الشرط الصياغي:** ويقصد به حسن اختيار اللفظ، وصحة السبك، وجودة الصياغة الأسلوبية .

- **الشرط المعنوي:** ويقصد به وضوح المعنى، وارتباط المبتدأ بما بعده وبعده ودلالته عليه في الوقت نفسه، أي تحقق المناسبة المعنوية بين المبدأ وما بعده.

- **الشرط المقامي:** ويقصد به مراعاة، حال المخاطَب (نفسية المخاطَب)، ومراعاة الدور الاجتماعي للمخاطَب (أي مخاطبته بما يتناسب مع عقله وثقافته). ومراعاة الموقف الاجتماعي[1] . فالابتداء إذن ذو علاقة موقفية بمقام الاتصال، ولغوية بالوحدات التي تليه[2]، وفيه تتجلى "دلائل البيان" [3].

ولأن كل كلام يسعى إلى إيضاح مطلوب، فلا بدَّ وأن يكون مؤلفاً من جزأين أساسيين هما: الدعوى و الدليل . فما الدعوى ، وما الدليل والحُجَّة، وكيف وظفت في الاستعمال القرآني في سورة الأنعام و ما النتيجة التي انتهى إليها؟

إن من مقتضى الحال في الخطاب الحِجَاجِي أن تعرض القضية المطروحة للنقاش أو الجدل، ثم يتم إيراد الحُجَج والأدلة على إثبات صحتها أو عدمه. وافتتاح السورة لخير دليل على ذلك، قال تعالى: ﴿ الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ۞ وَهُوَ اللهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ۞ ﴾ [الأنعام:1-3].

---

(1) ينظر: النص والخطاب والاتصال: 118 – 121 .

(2) ينظر : نفسه : 171 .

(3) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) – أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، د.ط، 1404هـ – 1986م: 431.

تبدأ السورة بمواجهة المشركين، الذين يتخذون مع الله آلهة أخرى ، في حين أن دلائل التوحيد تحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم[1]. إن فيها تلخيصاً عاماً لمضمون السورة كلها، نجدها قد اختزلت كل ما في السورة من معانٍ، فهو سبحانه وتعالى خالق السموات والأرض بما فيهن ومن فيهن، وهو سبحانه وتعالى جاعل الظلمات والنور ومبدع المتناقضات في هذا الوجود، ثم بعد ذلك كله الذين كفروا وجحدوا بالله يجعلون له شركاء، ويبتعدون عن عباده وهو المستحق للحمد والثناء. وهذه المعاني هي التي اشتملت عليها السورة ودارت حولها موضوعاتها وإن تناولتها بأساليبَ شتى .

فهذه الموجة العريضة في مطلع السورة، إنما تخاطب القلب البشري والعقل البشري، بدليل الخلق والحياة، ممثلين في الآفاق وفي النفس، تخاطبه خطاباً موحياً موقظاً للفطرة، في صورة التقرير لا في صورة الجدل[2].

ودلالة الحمد في قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ﴾ يشمل الثناء على الله عز وجل؛ لأنه المنعم والحافظ والرزاق، وغير ذلك من الصفات التي فيها إنعام منه على الخلق، كما يشمل الثناء على الله – عز وجل – بصفاته الذاتية، كالعلم والقدرة والعظمة[3] وهو كالمقدمة لما يراد بيانه من معنى التوحيد، وذلك بتضمين الثناء ما هو محصل غرض السورة ليتوسل بذلك إلى الاحتجاج عليه تفصيلاً، وتضمينه العجب منهم ولومهم على أن عدلوا به غيره والامتراء في وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ والإنذار والتخويف.

كما أن افتتاحية السورة تتناسب مع ما وقع فيها من الإشارة إلى من عَبَدَ الأنوار وجعل الشر من الظلمة، فالله "هو خالق السموات والأرض وهي الأجرام التي ينشأ عنها الظلمات والنور، وليست مستحقة لأن تكون معبودة كما زعم قوم إبراهيم – عليه السلام – من ألوهية

(1) ينظر: في ظلال القرآن: 1022/2.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 1031/2.

(3) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم (لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة) – د/ محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2008م : 215 .

الكواكب والشمس والقمر، فكان إسناد خلق السموات والأرض لله – عزَّ وجل – مناسباً لسياق المعنى، فوضح التناسب والتلازم"[1] .

ثانياً/ اختتام السورة:

يُعَدُّ الختام أو الانتهاء قاعدة كل كلام، وينبغي لمفهوم القاعدة أن يكون مفهوماً دلالياً، وذلك أن النص لا قاعدة له ما لم يتقدم هذه القاعدة من المنطوقات والمفاهيم وأجزاء المعاني التي تربط بينها العلاقات الدلالية المختلفة حتى تقر على قاعدة النص [2] . فالانتهاء إذن قاعدة النص "وذلك على معنى أن يكون أدخل في مقصده، وأن يكون قطعاً إليه ما قبله ويدعم هو ما قبله في آن معاً " [3] .

لذا فقد ختمت هذه السورة الكريمة ببيان الحكمة من خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات النور، وبيان السبب الذي جعل الكفار يعدلون بالله تعالى غيره من المخلوقات، وبهذا يظهر الارتباط الوثيق بين أول آيات السورة، وآخرها. فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:165] ، هو المراد بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [الأنعام:2] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:164]، هو معنى قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1][4]، حيث خلق الله الإنسان وسخر له ما في السموات والأرض، وأقام له الحُجَج والبراهين، وأنزل عليه الآيات والبينات، وقرب له البصائر وجعل له وسائل التمكين والتمييز، كل ذلك ليصبح أهلاً للمسؤولية؛ ابتلاءً واختباراً، ليهلك من هلك عن بَيِّنة

---

(1) منهج السياق في فهم النص: 44 .

(2) ينظر : النص و الخطاب والاتصال : 130 .

(3) نفسه : 132.

(4) ينظر: نظم الدرر في تناسب الأيات والسور – برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (885 هـ)، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، ط1، 1393هـ – 1973م : 7/ 346.

وبصيرة، ويحيى من حي عن بيِّنة وبصيرة[1]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ (١٦٥)﴾.

كما أن خواتم السور هي مثل الفواتح في الحسن لأنها آخر ما يقرع الأسماع، فلهذا جاءت متضمنة للمعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس تشوف إلى ما يذكر بعد، فهي بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ووعد ووعيد إلى غير ذلك[2]، وقد شملت خاتمة الأنعام الترغيب والترهيب معاً، مراعاة لنفوس المخاطبين المختلفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: 165].

2- **القصة:**

تُعَدُّ القصة أحد الأساليب الناجحة في الإقناع والتأثير لما لها من أثر كبير على واقعية النفس البشرية، وما يتوافر فيها من إثارة وتشويق يلامس العواطف الإنسانية المختلفة.

ولما للقصة من سلطة على النفوس، "بسبب تعلق الناس الفطري بماضيهم القريب والبعيد، وحبهم وتشوقهم إلى معرفة أخبار القرون الماضية والاستفادة من تجارب الأولين"[3]، فقد أصبحت أسلوباً من أساليب التربية وشكلاً من أشكال تعديل السلوك الإنساني وسوقه باتجاه معين ، حيث جاءت القصة في القرآن الكريم لتؤدي رسالة سامية ودوراً بارزاً فيه، وتصبح أسلوباً استراتيجياً ثابتاً من أساليب التربية بعد أن ابتذلت في فكر الجاهلية وآدابها، وأصبحت وسيلة سوءٍ لتهييج الغرائز وإثارة الشهوات في القديم والحديث

---

(1) ينظر: بصائر الحق في سورة الأنعام: 147 .

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 182/1 .

(3) طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية) – د/ بن عيسى باطاهر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والعشرين، 1422هـ - 2001م ، الكويت : 29 .

على السواء[1]. فقد ضُرِبَتْ القصة للعبرة والموعظة وسِيْقَت مساق الحُجَّة والبرهان، ذلك أن الموعظة الخطابية عندما تسرد سرداً لا يستطيع العقل أن يجمع أطرافها، أو يعي جميع ما يلقى فيها، لكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في أحداثها تتضح أهدافها ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات[2]، وهذا ما يميز أسلوب القص.

والقصة في اللغة :[3]

الخبر وهو القَصَص. وقصَّ عليَّ خبره يقصه قصاً وقصصاً: أورده. والقصص: الخبر المقصوص. والقصة: الأمر والحديث، واقتصصتُ الحديثَ: رَوَيْتهُ على وجهه. والقصُّ: البيان، قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف:3] ، والقصُّ: تَتَبُّع الأثر، قال تعالى: ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف:64]، وقال تعالى:﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:11] .

وتأتي القصة في القرآن الكريم على أنواع ثلاثة[4] :

النوع الأول : قصص الأنبياء وتتضمن دعوتهم إلى قومهم ، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم ، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة كل من المؤمنين والمكذبين.

النوع الثاني : قصص يتعلق بحوادث غابرة ، وأشخاص لم يثبت نبوتهم .

النوع الثالث : قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله كالغزوات، والهجرة والإسراء ... إلخ.

---

(1) نظرات في الاستدلال القرآني :7.

(2) ينظر : مباحث في علوم القرآن : 316 .

(3) ينظر: لسان العرب: مادة (قصص).

(4) ينظر: مباحث في علوم القرآن: 317 .

وهذه القصص على اختلافها ليست هدفاً في حد ذاتها بل هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة في تحقيق هدفه و إبلاغ رسالته و إقامة حجته [1]، حيث تساق القصة القرآنية لإبراز هدفٍ ديني ، فهي موجهة لجلاء العقيدة ، وبيان مراميها، ذلك أن القرآن الكريم كتاب هداية وتوجيه، والقصص فيه لا تساق إلا لأغراض إيمانية، "إنها نماذج لإيضاح مبدأٍ، والدعوة إلى فكرٍ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنها وسيلة لبناء النفس الإنسانية بناءً فكرياً سليماً، وتجسيد القيم والمثل الخيرة النبيلة كما يريدها الإسلام"[2] ، فالقصة حين تطرق السمع، وتنفذ إلى النفس في سهولة و يسر، تسترسل مع سياقها المشاعر، فتتفاعل مع أحداثها القلوب والعقول معاً، على العكس من الأساليب الإلقائية التي تورث الملل عند المتلقي. فالحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع، فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين، كانت من أقوى العوامل المؤثرة على رسوخها في النفس[3].

وللقصة القرآنية فوائد جمة، تتعدد بتعدد السياقات التي ترد فيها [4] . كما تتعدد الغايات التي تساق من أجلها القصة، فيَذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتظهر معان أخرى في سائر المقامات، حيث يتم انتقاء الأحداث والإضراب عن بعضها جملةً وتفصيلاً بما يتناسب ومقتضيات الأحوال، لتأتي القصة وقد امتزجت امتزاجاً عضوياً في موضوعها لا تجعل مجالاً للفصل بينها وبين موضوعات السورة [5]؛ ذلك لأن القصة في القرآن الكريم، لها وظيفة محددة، وهدف واضح، وهذه الوظيفة تقتضي أمرين[6] :

---

(1) ينظر: التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت، د.ط، د.ت :111.

(2) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم:192.

(3) ينظر : مباحث في علوم القرآن: 316.

(4) ينظر: الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني (دراسة تطبيقية على سورة النمل) – د/ محمد وهدان، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط1، 2006م: 41-44، ومباحث في علوم القرآن: 317، 318 .

(5) ينظر: الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني : 53،51، ومباحث في علوم القرآن: 319 .

(6) ينظر: الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني: 52 .

1- عدم بتر السياق والاستغراق في القصة بما يزيد عن الحاجة ويصرف السامع عن الغرض الذي سيقت من أجله.

2- أن يكون التركيز في القصة على ما يجيء به شاهداً عليه، أي ما يخدم الغرض المنشود ويقوي المعنى المراد، "وهذه خاصية تدل على ترابط سور القرآن وتماسكها، إذ تأتي القصة القرآنية مناسبة تماماً لموضوعها من الكلام، مؤدية غرضها على أدق وجه، ولذلك ترتبط بالسياق الذي وردت فيه، ولا يرد منها إلا القدر اللازم لتحقيق الدلالة التي سيقت من أجلها" (1).

واستعمال القصص القرآني في سياق الجدل والحِجَاج "يُعَدّ سابقة مهمة في تصور الفعل الذي يمكن أن يحدثه السرد في بلورة المفاهيم الفكرية، كما أن السرد بأساليبه المتعددة، سواء ما كان منها وصفياً، أو سردياً أو إيحائياً، يساعد على تقريب المفاهيم وتقبلها أكثر من المجاهرة بالأفكار وإيراد الحُجَج مجردة من عوامل التأثير البليغة"(2)، ولأنها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسياق الذي ترد فيه – كونها عظة و عبرة – قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف:111]، فقد كانت مدخلاً لضرب المثل والقياس والاستدلال وإيراد النتائج على أفعال العباد(3). وقد أشار إلى ذلك (محمد أبو زهرة) فقال: "اتخذ القرآن القصص سبيلاً للإقناع والتأثير، وضمن القصة[تأتي] الأدلة على بطلان ما يعتقد المشركون وغيرهم، وقد يكون موضوع القصة رسولاً يعرفونه ويجلونه، إذ يدعي المجادلون أنهم يحاكونه ويتبعونه، فيجيء الدليل على لسانه فيكون ذلك أكثر اجتذاباً لأفهامهم، وأقوى تأثيراً في نفوسهم، وقد يكون مفحماً ملزماً إن كانوا يجادلون غير طالبين للحق"(4)؛ لذا جاءت القصة في سورة الأنعام

---

(1) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 194 .

(2) بلاغة المجادلة – حسن النعمي، جذور، ج 19، مج 9، محرم 1426هـ - 2005م : 17 .

(3) ينظر: بلاغة المجادلة : 17، ودراسة نصية أدبية في القصة القرآنية ، د/ سليمان الطروانة ، مكتب الراوي، بغداد، ط1 ، 1413 هـ - 1992م: 31.

(4) القرآن المعجزة الكبرى: 399 .

مقوماً من مقومات الحِجَاج من أجل الإقناع والتأثير وبيان الأدلة على بطلان مزاعم المشركين.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۞ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ ﴾[الأنعام: 75 - 83].

إن الغرض من ذكر قصة إبراهيم عليه السلام أن تكون حجة في حد ذاتها، وإن المتأمل فيها ليجد حُجّتها تتجلى فيما يأتي:

1- هي حُجّة على كفار قريش عبدة الأوثان الذين كانوا يزعمون أنهم على دين آبائهم وسيد آبائهم هو إبراهيم عليه السلام؛ فجاءت هذه القصة لتنقض حُجّتهم التي احتجّوا بها، وتقرر فساد قولهم من وجهين:

- أنهم على دين آبائهم وأشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام فليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم أولاده، فتقليده - وهو أشرف الآباء - أولى من تقليد غيره.
- أن إبراهيم عليه السلام قد تبرأ من عبادة الأصنام وأنكر على قومه التعبد إليها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:74]

2- أن قصة إبراهيم عليه السلام وهذه الجزئية من القصة بالذات دعوة للبشر والفطرة السليمة للتأمل في الكون، واتباع الدليل، ثم الاحتكام للعقل، ومن ثم، فهي حُجَّة عقلية يُحاجَج بها كل منكر جاحد، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام:75].

فإن كان تقليد الآباء أمر متقطع لا يبقى منه في الدنيا خير ولا أثر، فإن متابعة الدليل أولى بالأخذ، وهو منهج أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴾ [الأنعام 76 – 79].

وهكذا نستطيع القول إن مجيء هذه الجزئية – في هذا السياق- متناسبة مع الغرض الذي سيقت من أجله؛ فهي دعوة لترك التقليد، ونبذ الجمود الفكري وإعمال الذهن والفكر والتأمل في هذا الكون الفسيح الأرجاء، العظيم البناء، الدقيق الصنع، إنها أدلة كونية يدركها كل ذي بصر ثاقب وبصيرة نيِّرة.

كما يتبين لنا أيضاً أن في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه (كناية) واضحة عن الرسول ﷺ مع قومه.

المخاطِب: إبراهيم عليه السلام ➤ محمد ﷺ.

المخاطَب: والد إبراهيم وقومه ➤ قريش.

كما لا تفوتنا الإشارة هنا، أنه ولأهمية البعد الوظيفي للقصة في القرآن الكريم فقد حَفِلَت طوال السور بعدد من قصص الأنبياء ما عدا سورة الأنعام، حيث ذُكرت فيها قصة إبراهيم عليه السلام، فيما أشير إلى بقية الأنبياء بذكر أسمائهم فقط ، فلماذا ذكرت أسماء الأنبياء، دون الإشارة إلى قصصهم في سياق السورة ؟!

والحقيقة أن التلبث إزاء هذه الجزئية المهمة يجعلنا نقف على أمرين غاية في الأهمية، إن جاز لنا نعتهما بذلك:

1- أن ذكر أسماء الأنبياء دون ذكر قصصهم هو إحالة على قصصهم (بالفعل) التي كانت بالتأكيد معروفة عند العرب واليهود آنذاك ؛ ذلك أن أسماء الأعلام "تحمل تداعيات معقدة تربطها بقصص تاريخية أو أسطورية، وتشير قليلاً أو كثيراً إلى أبطال وأماكن"[1] معروفة عبر التاريخ .

2- أن ما ذُكِر من أسماء الأنبياء على اختلاف أزمنتهم وفترات إرسالهم والأقوام التي أرسلوا إليهم لَيؤكد وحدة الدين ووحدة العقيدة، بمعنى يؤكد أن الدين واحد، والرب واحد، ودعوتهم واحدة. قال عز وجل:﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:19]، وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[آل عمران:67] .

وعليه فإن هذه الإشارات الملفتة للنظر في سياق السورة، ليست من قبيل المصادفة، فقد جاءت لتؤكد حقيقة أن الدعوات الإلهية كلها تستقي من نور واحد، وأنها جميعهاً مشتركة في الأصول، وتشكل بمجموعها دعوة إلهية واحدة، وقد جاءت هذه الدعوات جميعها يكمل بعضها البعض الآخر، ابتداءً بأول نبّي بُعِث إلى قومه، وانتهاءً بدعوة النبي ﷺ ،خاتمة هذه الدعوات ومكملتها.

وما يدعم هذا القول هو الدعوة الواضحة للرسول ﷺ بأن يقتدي بهدي أولئك الأنبياء ويتبع طريقهم التي ساروا عليها، قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام:90].

3- **الأمثال:**

إن المعاني السامية لا تأخذ صورتها الرائعة حتى تصاغ في قالب حسي، يقربها إلى الأفهام بقياس الخفي بالجلي والغائب بالشاهد[2]، فيزيد في الفهم، ويقرب الفكرة إلى الأذهان، ويختصر الكثير من الشرح والتأويل.

---

(1) J.Molino et J.Tamine. Introductional, Analyse, Linguistique La poesie . Paris , p.u.F . 1982.p: 88,111.

- نقلاً عن: إستراتيجية التناص – د/ محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي – المغرب ، ط2، 1986م: 75 .

(2) ينظر: القرآن المعجزة الكبرى: 38، والإتقان في علوم القرآن: 1934/5 .

وفي المثل يظهر ذلك القالب الحسي الذي يُبْرِز المعاني في صورة تستقر في الأذهان. فهو دعامة كبرى من دعائم الإقناع والتأثير، إذ يستعمل - كما يقول الزركشي- لإخراج ما لا يعلم ببديهة العقل إلى ما يعلم بالبديهة، وما لم تجر به العادة، وما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة[1].

وقد نبه دارسو النص القرآني، والبلاغيون العرب إلى أهمية المثل في توفير سُبُل الإقناع العقلي للنفس البشرية، كما أشار القرآن الكريم إلى هذا الهدف في قوله تعالى: ﴿ **وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ** ﴾ [العنكبوت:43].

ويُعَدُّ المثل من أنجح وسائل التربية، وهو ما يشير إليه بن وهب في كتابه (البرهان في وجوه البيان) بقوله: "وأمَّا الأمثال فإن الحكماء والعلماء والأدباء لم يزالوا يضربون ويبنون للناس تصرف الأحوال بالنظائر والأشكال، ويرون هذا النوع من القول أنجع مطلباً، وأقرب مذهباً"[2]، ولذلك قال عزَّ وجل : ﴿ **وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ** ﴾ [الروم:58] .

ولأن القرآن الكريم قد نزل على طريقة العرب في القول، وبحسب ما يفهمون من المعاني، فقد ضرب الله – عز وجل – الأمثال في القرآن الكريم وربطها بموكب الإيمان، كما ربطها بالهدى والضلال ، فوضعها أمام المؤمنين للرد على قضية مثارة عندهم، أو لفتهم لفتة إيمانية ليعقلوا بها ويدركوا ما غاب عن أبصارهم وأسماعهم الظاهرة ، فيقرب إلى أذهانهم عالم هو غيب عنهم[3]، ذلك أن عالم الغيب لا يصل إليه العقل البشري مهما اجتهد، فهو عالم محجوب عنه. من هنا كانت ففلسفة أمثال القرآن هي تنزيل القضايا العميقة والرفيعة إلى مستوى يتناسب مع أفق تفكير الناس.

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 1/ 486.

(2) البرهان في وجوه البيان – إسحاق بن إبراهيم بن وهب، تحقيق: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، 1969م: 117-119.

(3) ينظر: أمثال القرآن الكريم: الشيخ محمد متولي الشعراوي، أشرف عليه واعتنى به : أحمد الزعبي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ط ، د.ت : 3 ، وفي الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 64.

والمثل:

في الأصل – كما جاء عند الزمخشري- بمعنى النظير يقال: مَثَل ومِثْل ومَثِيل، كشَبَه وشِبْه وشبيه[1].

وفي اللغة "جملة من القول موجزة بليغة تقوم على تشبيه ما حضر بما غاب لوجود أمر جامع بينهما، أو وجه مشترك يلتقيان عليه. أو هو قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر بينهما مشابه، ليبين أحدهما ويصوره" [2].

فهو إذن استقراء بلاغي، وحجة تقوم على المشابهة بين حالتين في مقدمتها، وإيراد استنتاج نهاية إحديهما بالنظر إلى نهاية مماثلتها [3].

وتأتي أهمية الأمثال في القرآن الكريم – كما يقول السيوطي – في كونها تقرب المراد للعقل، وتظهره بصورة المحسوس، ذلك أنها تصوِّر المعاني بصورة محسوسة فتصبح أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس[4]، ويقصد بها أن تعطي الفكرة والعبرة المراد إيصالها بشكل واضح جلي إلى أذهان المخاطبين، فتكون بذلك أوقع في النفس، وأقوم في الإقناع، فلها آثار نفسية عميقة على المخاطَب والتأثير فيه؛ وعلة تأثيرها – حسب قول الجرجاني: أن "أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني وذلك يتحقق في التمثيل، لأنه ينتقل بالنفس من المدركات العقلية المجردة إلى ما يدرك بالحواس أو يعلم بالطبع"[5].

---

(1) البرهان في علوم القرآن: 1/ 490 .

(2) المفردات في غريب القرآن: مادة (مثل): 482- 483.

(3) ينظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول نموذجاً) – د/ محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع – الدار البيضاء، ط1، 1406هـ - 1986م : 68 .

(4) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1933 - 1934 .

(5) أسرار البلاغة: 121 .

وصفوة القول أن للأمثال أهمية كبيرة في التأثير والإقناع، وهي من الوسائل الأساسية التي اعتمدها القرآن الكريم في قضية الحِجَاج، حيث ينضوي معظمها على القياس، فتذكر المقدمات ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي يقتنع بها ويراها أكيدة[1]. فهي تهدف إلى توجيه القدرات الذهنية لدى المتلقي نحو فهم الحقائق المعروضة وإدراكها في صورتها المحسوسة، ومن ثَمَّ فقد كان للأمثال في سورة الأنعام دور كبير في إنتاج الخطاب الحِجَاجِي.

وتتعدد طرق التعبير عن الأمثال في القرآن الكريم، فمنها الأمثال المصرحة[2]، والأمثال الكامنة [3]، والأمثال المرسلة [4]. وقد ورد من هذه الأمثال في سورة الأنعام نوعان:

أولاً/ الأمثال المصرحة:

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:20] .

والدلالة المتأتية من هذا التمثيل تُظْهِر المعنى وفق ما أراده الله – سبحانه وتعالى، فمعرفة المخاطبين للرسول ﷺ كمعرفتهم لأبنائهم، وهي معرفة دقيقة؛ وعلى ذلك فإن نكرانهم له ولما جاء به من الحق هو قمة الجحود والتكذيب، وفي هذا تعرية للباطل، وفضح لتناقض المشركين

---

(1) ينظر: فنون الحوار والإقناع – محمد راشد ديماس، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 1999م : 172.

(2) الأمثال المصرحة : و هي ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه ، و هي كثيرة في القرآن مثل ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة:17] ، وقد ورد هذا النوع من الأمثال في القرآن على أشكال ثلاثة : التشبيه والاستعارة والقصة.

(3) الأمثال الكامنة : وهي التي لم يصَّرح فيها بلفظ التمثيل ، و لكنها أقوال موجزة حكيمة، تدل على معان رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبها مثل ما في معنى: خير الأمور أوسطها ﴿ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [البقرة:68] .

(4) الأمثال المرسلة: وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه فهي جارية مجرى الأمثال جمعت بين الحكمة والإيجاز والبلاغة،كقوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام : 67] ، ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرُّوم:32]، [ينظر (1) و(2) و(3): الإتقان في علوم القران: 1936، ومباحث في علوم القرآن: 293- 297].

والمنافقين في مواقفهم، الأمر الذي ينقض أي حُجَّة يحتجون بها، وينهي أي جدل قد يخوضون فيه.

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:71] .

في قوله تعالى : ﴿ وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ﴾ نجد فيها تصوير للحقائق الفكرية والوجدانية، وكشف المشاعر النفسية التي لا تتجلى إلا بتجسيمها في صورة حسية، لتنعكس بذلك صورة الممثَّل له في ذهن المخاطَب وتبدو الفكرة أكثر وضوحاً.

ثانياً/ الأمثال المرسلة :

وهي النوع الثاني من الأمثال في سورة الأنعام :

قال تعالى: - ﴿ لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ [الأنعام:67] .

- ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام:104] .
- ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام:152] .
- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام:164].

وفي هذه الأمثال تتجسد جوامع الكلم التي تتناسب مع تفاوت الأفهام، وتنوع إدراكها، كما نجد فيها بالإضافة إلى البلاغة والإيجاز – التي تترك للخيال البشري قدراً من التفكير والمشاركة في استيعاب الحقائق – استخلاصاً لسنن قائمة في الحياة، وهي قواعد وسنن تقام بها الحُجَّة على الناس؛ كونها تتحدث عن قاعدة وسنة ربانية في الكون لا تتغير بتغير الزمان

والمكان، ولا تتنوع بتنوع الأشخاص والأفهام، ولا تختلف باختلاف الأجناس، قائمة على العدل تعكس طبيعة العلاقة بين الخالق والمخلوق[1].

---

[1] وفي السياق العام للسورة، والذي يتجلى في قضايا العقيدة (الألوهية والعبودية)، ما يُعَلِّل السبب في توظيف هذه الأمثال، بما يظهر حكمة الله – عز وجل.

- ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي أن لكل نبأ من الأنباء التي جاء بها القرآن الكريم، منها ما يتعلق بعذاب المشركين، وقت استقرار ووقوع، يعني قرار يستقرّ عنده، ونهاية ينتهي إليه، فيتبين حقه وصدقه، من كذبه وباطله [ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 419] ، فلكل نبأ مستقر، وكل حاضر إلى مصير.
- ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ [الأنعام:104] ، ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾، أي من عَلِم الحقّ فقد عَلِم علماً ينفع نفسه ، ومن تعقل الحُجّة وعرفها وأذعن لها فَنَفْعُ ذلك لنفسه؛ لأنه ينجو بهذا الإبصار من عذاب النار، ﴿وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾ أي ضلّ عن الحقّ وعمي عن الحجة ولم يتعقلها ولا أذعن لها فقد ضلّ ضَلالاً وزره على نفسه .[ينظر: فتح القدير: 149/2، والتحرير والتنوير: 419/7].
- ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ جاءت جملة: (لا نكلف نفساً إلا وسعها) متعلّقة بالتي وليتها احتراساً وهي قوله تعالى:﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. والمقصود من هذا الاحتراسِ أنّ لا يَترك النّاسُ التّعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة. والمعنى: لا نكلّفكم تمام القسط في الكيل والميزان بالحبّة والذرّة ولكنّا نكلّفكم ما تظنّون أنّه عدل ووفاء؛ لأن مراعاة الحدّ من القسط الذي لا زيادة فيه ولا نقصان مما يجري فيه الحرج، ففيه ترخيص فيما خرج عن الطاقة. كما أن فيه تهوين لأمر التكاليف التي أمر الله عز وجل بها ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ إلا ما يسعها ولا يعسر عليها[1]، فلا يكلف الله الإنسان إلا ما كان له طاقة به، وقدرة على إنجازه.
- وفي قوله تعالى:﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، إخبار عن الوقائع يوم القيامة، في جزاء الله تعالى وحكمه وعدله، أن النفوس إنما تجزى بأعمالها ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، فلا تأخذ نفس آثمة بذنب نفس أخرى، ولا يؤاخذ مما أتت من الذنب وارتكبت من المعصية سواها، فكل كسبها للشرّ عليها لا يتعداها إلى غيرها. وهذا من عدله تعالى، فكل نفس مرتهنة بعملها [ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 286/12، ومعالم التنزيل: 212/3، والكشاف: 75/2 ، وتفسير القرآن العظيم: 384/3] ، وهو مثل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:286]، وقوله: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:15].

وفيما سبق تتجلى العدالة الإلهية، تكليف الأفراد بإمكانياتهم وقدراتهم التي خلقهم الله – عزّ وجل – عليها فلا يشق عليهم ما لا يطيقون، ولا يكلفهم ما لا يستطيعون، وهو قمة العدل المطلق، فلا يترك بذلك مجالاً لمُحْتَجّ أو مجادل .

4- **الحوار:**

والحوار في اللغة من المرادة وترجيع الكلام. قال الراغب: الحوار والمحاورة: المرادة في الكلام، ومنه التحاور[1]. والحور: الجواب، يقال كلمته فما ردَّ إليَّ حوراً أو حويراً، أي جواباً. وأحار عليه جوابه: ردَّه. وأحرت له جواباً وما أحار بكلمة. والمحاورة: المجاوبة من فعل حاور الدال على المشاركة، والتحاور: التجاوب، تقول: أحرت له جواباً وما أحار بكلمة. واستحار الرجل: أي استنطقه. وهم يتحاورون: أي يتراجعون الكلام. والمحاورة مراجعة المنطق في المخاطبة[2].

ويُعَدُّ الحوار في منظور بعض الاتجاهات التداولية أساساً في عملية الحِجَاج، وما يتطلبه من عمليات حِجَاجِيَّة تتنوع وتتباين تقنياً بتنوع أنماط التحاور ومراتب الحوار، كما تُعَدُّ الظاهرة التخاطبية الحوارية صميمية في كل خطاب على الإطلاق، فهي مكون لكل كلام، إلا أن الاتجاه الحِجَاجِي الذي تأخذه هذه الظاهرة يبرز بوضوح أكثر على صعيد التواصل الفكري[3]، وهذا يعني أن **الحوار في الخطاب الحِجَاجي يقوم على منهجية معينة** تتمثل في:

1- أنه يقوم على المساءلة وطرح الفرضيات أو الأطروحات في شكل أحكام وجمل تؤكد أو تنفي، وقد تسبق أو ترافق هذه الأطروحات سلسلة من الحُجَج ليتسم الخطاب الحواري بأنه خطاب عقلي متماسك[4].

2- أنه يبدأ ببث قيم فكرية، ربما تكون متوافقة أو متباينة ولكنه ينتهي في النهاية إلى تلقي قيم متوافقة[5]، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا**

---

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن - مادة (حور): 140- 141.

(2) ينظر: لسان العرب - مادة (حور).

(3) ينظر: الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجي: 102.

(4) ينظر: نفسه: 112- 120.

(5) ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 197.

﴿فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:64]، ذلك أن الحوار وسيلة "تتحدد جدواها بالنظر إلى مدى قناعات ورغبات المتحاورين، والخلفيات التي ينطلقون منها، وكذا الاستراتيجيات التي تحرك الفعاليات، وتدفع الأنشطة التحاورية"[1]، إذ يقوم الحوار في أساسه على إحالات مشتركة بين المتحاورين، تعطي للكلمات دلالات موقعية خاصة، ليست لها في غير ذلك الموقع[2]. و يتم مراعاة الكليات، والأوليات محل الإجماع قبل إثارة الجزئيات، باعتبار أن هناك قواسماً مشتركة تجمع بين المتحاورين يجب أن يكون، في الأغلب، الانطلاق منها[3]، حيث ينطلق الحوار من المسلمات والبديهيات التجريبية والوجدانية والعقلية التي لا يستطيع أحد المتحاورين رفضها أو الاعتراض عليها، تمهيداً لإكمال مراحل الحوار، ووصولاً إلى النتائج المستهدفة في هذه العملية وهو إثبات النتيجة[4]. والغرض من ذلك كله هو وضع العقل وجهاً لوجه أمام الحقيقة، وإشعار الطرف الآخر بالطمأنينة والنزاهة، من خلال الحوار الهادئ، والدليل المقنع[5]. ولعلنا نلمح عظمة المنهج الحواري الذي ركّزه القرآن الكريم للنبي محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ۝ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ۝﴾ [سبأ: 24- 27]. حيث لم يطرح المحاور صوابية فكرة أو خطأ الفكر الآخر، بل على أساس فكرة مطروحة يتساوى

[1] الحوار بين الممارسة و الشعار: 84.

[2] ينظر: اللسانيات (المجال، والوظيفة، والمنهج): 695.

[3] ينظر: نفسه: 85.

[4] ينظر: مكانة العقل والعلم في الإسلام، تأليف لجنة من العلماء والمفكرين، إعداد الشيخ/ محمد جواد الفقيه، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ - 1993م: 69 – 70.

[5] ينظر: نفسه: 70.

فيها احتمال الخطأ والصواب، ما يعزز من فرص إدارة الحوار بأكبر قدر من الموضوعية العلمية التي تنشد الحقيقة من موقف حيادي، دونما أي تعقيد أو تهويل.

3- من منهجية الحوار أيضاً (اللين)، فالأسلوب الناجح للحوار يكمن في اللين، و ما يرتبط به من سلوك حميد يتجلى في التأدب والصبر والقول الحسن. وقد ألح القرآن الكريم على هذا المنهج في مواضع كثيرة ، منها حين أثنى على سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم لما كان عليه من لين وعفو و ابتعاد عن الغلظة والفضاضة، ولما كان لهذا السلوك من أثر في التفاف الناس حوله قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران :159] ، وقوله تعالى لموسى و أخيه هارون حين أمرهما أن يذهبا إلى فرعون: ﴿ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ۞ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: 43 - 44].

4- كما أن المنطلق في إجراء أي حوار مع الغير هو الاعتراف بهذا الغير واحترامه مما يقتضي قبوله كما هو، أي قبول الاختلاف معه، وهذا السلوك الذي يوفر تقدير الطرف المحاور واحترامه، يتطلب التبادل ومماثلة المعاملة، قال تعالى:﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:125] .

ومما سبق نجد للحوار قيمة كبيرة كمنهج عقلاني في مناقشة القضايا الخلافية المثيرة للجدل، من أجل الوصول إلى اتفاق حولها عبر الاقتناع من خلال البحث عن القواسم المشتركة لتعزيزها بين الأطراف المتحاورة [1].

لذا كان الحوار منهج كل دين سماوي، ومنطلق كل فكر إنساني حضاري. والمتتبع لأسلوب القرآن الكريم يجده قد " جعل الحوار سبيلاً لكل قضاياه، وجعل خلافه مع

[1] ينظر: الحوار بين الممارسة والشعار : 84 .

أعدائه ومخالفيه قائماً على الحوار ، ولم يجعل القوة سبيلاً في التعامل مع المخالفين، وإنما جعلها عقوبة للمصرين على الباطل بعد سطوع الحق "[1].

فالحوار محور خطاب الله – سبحانه وتعالى – وسبيل دعوة الهداية الربانية عبر كافة الرسالات السماوية. وقد بعث الله – عز وجل – نبيه محمد ﷺ " برسالة الهدى القائمة على الحُجَّة والإقناع والحوار "[2] ، قال تعالى : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف:108] .

أهمية الحوار:

ليس الحوار في حد ذاته هو الغاية ، بل هو وسيلة من وسائل الإقناع والتأثير، الذي يعد أحد أهداف العملية الاتصالية[3] التي لا يستغني عنها بنيان أي مجتمع إنساني. إذ يشكل الحوار "أسلوباً متكاملاً لكل عمل يهدف إلى تكوين الرأي العام وتغيير المعتقدات والسلوك"[4]، الأمر الذي يؤدي بدوره إلى تغيير الموقف الفكري أو العاطفي لدى المتلقي[5].

وهكذا يمكن القول: إن القصد من استعمال أسلوب الحوار يكمن في خلق الاستعداد لدى المتلقي لتسهيل التأثير، الذي يبحث عنه المرسل، وقد يكون هذا التأثير، ذو طبيعة وجدانية نفسية، أو ذو طبيعة معرفية فكرية. وهو حين يستخدم هذا الأسلوب – ليشد انتباه المتلقي ويقوده نحو الحقيقة– ينطلق من معتقدات المتلقي وأفكاره وصولاً إلى إقناعه وحيازة تأييده للفكرة المطروحة، ومن ثَّم التأثير فيه وتغيير سلوكه.

---

(1) محاورات الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية) – نجيب علي عبد الله السودي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، د.ط، 1425هـ – 2004م : 24 .

(2) الحوار بين الممارسة والشعار : 90 .

(3) ينظر: استراتجيات الخطاب : 444 .

(4) محاورات الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم : 24 .

(5) ينظر : استراتيجيات الخطاب: 444 .

وتتجلى أهمية الحوار لكلٍ من طرفي الحِجَاج (المتكلم والمخاطَب) ، حيث يزداد المتكلم إلحاحاً وإيغالاً إلى باطن المخاطَب، وسرداً للحُجَج والأدلة، في الوقت الذي يزداد فيه المخاطَب ثقةً ويقيناً بصحة الأدلة والحُجَج والأخذ بها ، ذلك حين يستنفذ كل ما لديه من مبررات، أثناء الحوار، فيكون هذا سبباً في تقوية حجة المتكلم و اقتناع المخاطَب وتسليمه بالحُجَج والبراهين.

فالحوار إذن هو النافذة التي يطل من خلالها المخاطِب على ما في داخل الآخرين، وهو أسلوب الأنبياء ورسالاتهم الإلهية إلى الإنسان .

وهو في القرآن الكريم مبني على أساس الأساليب التي تثري النقاش وتؤدي إلى نتائج مقنعة، فلا يوافق الطرف الآخر (المخاطَب) إلا بعد اقتناع وتسليم وتصديق، وهذا ما يسعى إليه القرآن الكريم؛ لأن الإيمان لا يكون إلا عن اقتناع تام، ذلك أن غايته من مخاطبة الإنسان هي حصول الاقتناع الذاتي المقرون بالحُجَّة والبرهان في إطار الحوار الهادئ العميق(1).

كما أن قدرة الحوار على توفير أسباب الإقناع للنفس الإنسانية جعلته من أساليب القرآن المفضلة في كثير من المواطن، خاصة تلك التي تقتضي الاستدلال والمناقشة لإفحام الخصوم والمعارضين.

وهكذا يمكن إجمال اهمية استعمال الحوار فيما يأتي(2):

1- خطاب البشر بطريقة تناسب نفوسهم المجبولة على الجدال، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف:54] .

2- تحريك العقول وتنشيط النفوس لمعرفة الحقائق، وتفتيح القرائح للتفكير في أصول الأشياء والتمعن فيها، عن طريق الأخذ والرد، تحقيقاً للاقتناع الذاتي المقترن بالدليل والبرهان.

---

(1) ينظر: الحوار في القرآن الكريم – محمد حسين فضل الله، الدار الإسلامية، ببيروت، 1979م : 32 ، نقلاً عن: طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية): 27- 28 .

(2) ينظر: طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية): 28، 42 .

فأسلوب الدعوة بالحوار والكلمة الهادئة ، هي السبيل إلى ترسيخ الإيمان وثباته. وهي غاية القرآن الكريم في الدعوة، فليس أسلوبه القوة في الدعوة - وهو قادر عليها - لأن الإيمان بالله عز وجل والالتزام بدينه وتعاليمه من أوامر ونواهٍ، يتطلب إيماناً نابعاً من القلب يتبعه العمل الصادق، لا يهزه ولا يغيره ولا يضعفه شيء ؛ هذا الإيمان هو الذي يُسيِّر الإنسان، هو الذي يحركه، هو الذي يدفعه لفعل الخير والالتزام التام.

وهنا تظهر الأهمية القصوى للحوار في التصديق وثبات الإيمان ورسوخه ؛ فالإيمان الصادق ينطلق من حركة حوار تديره الذات مع نفسها ، هدفهُ الوصول إلى وحدة الإنسان في ضوء قناعاته العقدية والتزاماته الفكرية والعملية، حتى لا يبقى أسير الازدواجية بين الشيء ونقيضه، في عملية اهتزاز فكري وحسي وعاطفي، ما يسلبه الطمأنينة والأمن والاستقرار الذي يحتضن الإيمان. قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:71] .

ولأن سورة الأنعام هي سورة الحِجَاج والجدل فقد كَثُر فيها أسلوب الحوار مراعاة للمواقف الجديدة في مكة، حيث لقي القرآن من معارضيه إنكاراً شديداً وصداً عجيباً، فجاء أسلوب الحوار في السورة جواباً على ما يدور في أذهانهم من أسئلة، ورداً على ما يطرحونه من أدلة، ويقيم عليهم بذلك الحُجَّة خاصة فيما يتعلق بقضايا العقيدة الأساسية: وحدانية الله عز وجل، صدق الرسالة المحمدية، قضية البعث والجزاء، ومنها أيضاً قضايا التشريعات المتصلة بواقعهم المُعَاش. وهي القضايا الحوارية التي سنعرض لها فيما يأتي:

1- الحوار في إثبات وحدانية الله عز وجل:

وقد كانت قضية الوحدانية، من أكثر القضايا جدلاً عند المخاطبين في سورة الأنعام، فهم إما مشركون يجعلون من دون الله آلهة أخرى يعبدونها ويتقربون إليها، وإما يهود يدَّعون أنهم أبناء الله وأحباؤه، وإما نصارى يجعلون لله صاحبة وولد.

قال تعـــالى:

- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۞ ﴾ [الأنعام:40- 41].
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ۞ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ۞ ﴾ [الأنعام:46- 47].
- ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۞ ﴾ [الأنعام:63- 64].

وتهدف هذه الآيات إلى إثبات الألوهية لله وحده، وهو حوار يعتمد السؤال الاستنكاري أمام المخاطبين، يحث المنكرين لقضية الوحدانية على استعمال قدراتهم العقلية، والعودة بعقولهم للتفكير الجاد في الفرق بين الإله الذي يستحق إفراد العبادة، وبين الآلهة التي يعبدونها من دونه. فمن الذي يدعونه ويتضرعون إليه وقت كربهم؟ ومن الذي ينجيهم من كل بلاء؟ ومن هو القادر على إهلاكهم ؟! وما فائدة الآلهة الأخرى التي يشركونها مع الله وهي لا تملك لهم ضراً ولا نفعاً.

فالقرآن بهذه الطريقة يخاطب العقول ويحركها، ويلزم المخاطبين الحجة، ويفحمهم بالبرهان، ويأخذ بأيديهم إلى الاعتراف بحقيقة الوحدانية لله عز وجل. فضلاً على أن حرص القرآن الكريم ليس على الغلبة، "بل على الوصول إلى الإيمان والاطمئنان العميقين،[لذا فهو] يعالج المعاندين بمخاطبة وجدانهم وقلوبهم ونفوسهم ترغيباً وترهيباً، بقدر ما يخاطب عقولهم وقناعاتهم"[1].

[1] دراسة بيانية جمالية في أربع سور: 17!.

2- الحوار في إثبات حقيقة البعث والجزاء:

إن قضية البعث بعد الموت، من القضايا الأساسية التي شغلت فكر الإنسان منذ القدم، وظلت في تأرجح بين السلب والإيجاب حتى اليوم، إلا أن البشرية كانت بما جبلت عليه من حب البقاء ترفض فكرة العدمية، وتبحث دوماً عما يكفل لها البقاء والخلود[1].

لذا كانت حقيقة البعث بعد الموت، وضرورة الإيمان بها من القضايا الأساسية في العقيدة الإسلامية التي عرض لها القرآن الكريم حقائقه وحججه وأدلته.

قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الأنعام:29] . وجاء بعد هذه القضية الفكرية التي يتشبث بها المجرمون، الرد عليها بأسلوب آخر، فلم يكن الرد مباشراً على قولهم استصغاراً لشأنهم من جهة، واستخفافاً بهذا القول الذي لا يقبله عقل ولا يُقِره دين سماوي من جهة ثانية؛ وذلك لأن قضية البعث بعد الموت لم تكن هي القضية الأكثر جدلاً عند نزول (القرآن)، وإنما كَثُر الجدل حول قضيتين رئيسيتين هما: الوحدانية وصدق الرسالة المحمدية.

ففي قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾، جاء الرد على هذا القول بطريقة التصوير، وهي الطريقة التي تنقل المخاطَب مباشرة إلى مسرح الأحداث، حيث انتقل الخطاب إلى الرسول ﷺ ولم يُعِرْ المشركين أي اهتمام، وكأنه يقول للرسول، وللمستمع: أنظر إلى هؤلاء الذين ينكرون حقيقة البعث، وهم واقفون أمام ربهم يخاطبهم ويسألهم عن هذه الحقيقة التي كانوا ينكرون وقوعها.

وفي هذا التصوير الذي يُظْهِر حالهم يوم هم واقفون على الله أثر كبير في التأثير والإقناع.

---

[1] ينظر: مناهج الجدل في القرآن – زاهر عواض الألمعي، مطابع الفرزدق، الرياض، د.ط، 1984م:298، نقلاً عن طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية): 46.

3- **الحوار في إثبات صدق الرسالة المحمدية:**

قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَـذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:19].

وقد ابتدئت المحاورة بأسلوب إلقاء استفهام مستعمل في التقرير ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾، ومثل هذا الأسلوب يأتي لإعداد السامعين لتلقّي ما يَرِدُ بعد الاستفهام[1].

إذ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، لهؤلاء المشركين الذين يكذّبون ويجحدون نبوّتك من قومك: أيُّ شيء أعظم شهادة وأكبر؟ ثم أخبرهم بأن أكبر الأشياء شهادة: (الله)، الذي لا يجوز أن يقع في شهادته ما يجوز أن يقع في شهادة غيره من خلقه من السهو والخطأ، والغلط والكذب. ثم قل لهم: إن الذي هو أكبر الأشياء شهادة، شهيدٌ بيني وبينكم، بالمحقّ منّا من المبطل، والرشيد منّا في فعله وقوله من السفيه، وقد رضينا به حكماً بيننا[2].

وفي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ۞﴾ [الأنعام: 89 - 90].

وقد جاءت هذه الآيات في سياق الاستدلال على صدق الرسالة، وصدق الرسول المبلغ. وفيها أمر للرسول ﷺ أن يقتدي بمن سبقه من الأنبياء، فهو ﷺ ليس بدعاً من الرسل، وما جاء به ليس شيئاً مختلفاً عما جاء به من سبقه من الأنبياء والمرسلين، فرسالتهم واحدة، ودعوتهم واحدة.

قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۞ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا

---

[1] التحرير والتنوير: 166/7.

[2] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 289/11.

الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام: 155 – 157].

وفيها يظهر الحوار من طرف واحد، والمخاطَب صامت لا يجيب، وفي صمت المشركين إخفاقهم وانقطاع حجتهم، إذ يعرض القرآن الكريم كل أسئلتهم المتوقعة ليقطع عليهم أي جدل يمكن أن يخوضوا فيه.

4- الحوار في قضايا التشريعات:

منها ما جاء في الرد على المشركين في مكة، بأسلوب السبر والتقسيم، وهو أسلوب جدلي حواري يقوم على ذكر الأقسام للموضوع المُجَادَل فيه، ثم يأتي البيان على أنه ليس في أحد هذه الأوصاف خاصية تسوغ قبول الدعوى فيه، فتبطل بذلك دعوى الخصم[1].

قال تعالى: ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ المَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ البَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝﴾ [الأنعام: 143- 144].

وفيها رد على دعوى المشركين التي جاء فيها: ﴿وَجَعَلُوا للهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا للهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللهِ وَمَا كَانَ للهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ۝﴾، ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝﴾ [الأنعام:137، 138- 139].

---

[1] ينظر: القرآن المعجزة الكبرى: 402.

ويبين السيوطي وجه الاحتجاج في الآيات السابقة فيقول: "فإنَّ الكفار لما حَرَّموا ذكور الأنعام تارة وإناثَها أخرى رَدّ تعالى ذلك عليهم بطريق السَّبْر والتقسيم، فقال: إنَّ الخَلْقَ لله، خَلَقَ مِن كل زوج مما ذَكَرَ ذكراً وأنثى، فمِمَّ جاء تحريمُ ما ذَكَرْتم؟ أي: ما علَّته؟ لا يَخْلو: إمَّا أَنْ يَكون مِنْ جهة الذُّكورةِ، أو الأنوثةِ، أو اشتمالِ الرَّحِمِ الشاملِ لهما، أو لا يُدْرَى له علةٌ، وهو التعبُّديُّ بأَن أُخِذَ ذلك عن الله، والأَخْذُ عن الله: إمَّا بوَحْيٍ وإرسالِ رسولٍ أو سماعِ كلامهِ ومشاهدةِ تَلَقِّي ذلك عنه، وهو معنى قولِه: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللهُ بِهَذَا﴾ [الأنعام:144]، فهذه وجوهُ التحريمِ، لا تَخْرُج عن واحدٍ منها. والأولُ يَلْزَمُ عليه أن يكونَ جميعُ الذكورِ حراماً، والثاني يَلْزَمُ عليه أَنْ يكونَ جميعُ الإناث حراماً، والثالثُ يلزمُ عليه تحريمُ الصِّنفين معاً، فَبَطَلَ ما فعلوه مِنْ تحريمِ بعضٍ في حالة؛ وبعض في حالة؛ لأنَّ العلةَ على ما ذُكِر تقتضي إطلاقَ التحريم، والأَخْذُ عن الله بلا واسطةٍ باطلٌ، ولَمْ يدَّعُوه، وبواسطة رسولٍ كذلك؛ لأنه لَمْ يأْتِ إليهم رسولٌ قَبْلَ النبي ﷺ، وإذا بَطَلَ جميعُ ذلك ثَبَتَ المُدَّعى، وهو أنَّ ما قالوه افتراءٌ على اللهِ وضلالٌ"[1].

---

[1] الإتقان في علوم القرآن: 1959 – 1960.

المبحث الثاني:

المخاطَب ودوره في إنتاج الخطاب الحِجَاجِي.

المخاطَب:

بعد أن تحدثنا عن المخاطِب وأهم ما يتعلق به في إنتاج الخطاب، ننتقل للحديث عن المخاطَب باعتباره إحدى الركائز الأساسية لكل عملية تواصل، فهو طرف الخطاب الثاني، وإليه تتجه لغة الخطاب التي تُعَبِّر عن مقاصد المخاطِب. وعليه فإنه يُمارس، بشكل غير مباشر، دوراً في توجيه المخاطِب عند اختيار أدواته وصياغة خطابه فيفرض عليه تشكيلاً بعينه، بل وقد يكون هو المحدد الوحيد لشكل تلك الصياغة النهائي. إذ يبرز للمخاطَب دور كبير في بناء الخطاب، ذلك أن بناء الخطاب وتداوله مرهون إلى حَدٍّ كبير بمعرفة حاله، أو بافتراض ذلك الحال من الناحية الإدراكية والثقافية[1]. كما يظهر ذلك في العدول إلى بنية دون أخرى، حيث لا يتصور أن يعدل المخاطِب عن وجه إلى آخر دون أن يقصد من ذلك العدول معنىً بعينه، انطلاقاً من أن العبارة التي ينتجها المخاطِب تتأثر بما وعاه من حال المخاطَب[2]، فيتأثر تبعاً لذلك الخطاب اللغوي، إيجاباً أو سلباً، باقتناع المخاطَب بمضمون الرسالة التي يتلقاها، فإما أن يصدقها، وإما أن يَرُدَّهَا، وإما أن يقف منها موقفاً محايداً، وخطابه لابُدَّ أن يتأثر بهذه المواقف[3]. ويأتي ذلك من كون المخاطَب ينظر إلى الحُجَج بحسب ما تردفه به ثقافته وخلفيته المعرفية، ومن ثَمَّ لا يكون منه أي استمالة أو اقتناع أو تأثير إلا إذا استطاع فهم الخطاب وفقاً لمداركه وثقافته.

وهكذا يمكن القول إن المخاطَب عنصر ضروري في بناء الخطاب وتكوينه، ولا بُدَّ من استحضاره عند إنتاج الخطاب، أكان ذلك حضوراً عينياً أو ذهنيًا، بِعدِّه شريكاً في العملية التواصلية، حيث يُسْهِم استحضاره في حركية الخطاب من خلال التنويعات المختلفة

(1) ينظر: في ماهية النص الشعري (إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي):167، واستراتيجيات الخطاب:47-48، مقدمة المؤلف (v-vi)، والبلاغة العربية (قراءة أخرى)- محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998م :255.

(2) ينظر: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة:243.

(3) ينظر: اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج): 701.

التي تتناسب مع طبيعته[1]، وتؤدي إلى إقناعه بمضمون الخطاب، ومن ثَمَّ التغيير في السلوك والمعتقدات وفقاً لما يهدف إليه المخاطِب.

فالمتلقي، إذن، يفهم النص بما يتناسب مع مستواه الثقافي والإدراكي، فيكون الخطاب بذلك عرضه للقبول أو الرفض من قِبَلِه، وهذا ما يجعل المتلقي محور الحِجَاج، بل ويجعل البعض يَعُد نظرية الحِجَاج ، نظرية مركزية المتلقي[2].

والقرآن الكريم بِعَدِّه رسالة موجهة للبشرية، لها محتوى وظيفي (الإقناع)، ومحتوى معرفي (المعارف والأخبار الواردة فيه)، إلا أن هذا المحتوى قد لا يصل إلى المخاطَب في أثناء عملية التخاطب لأن المخاطَب إنما يتلقى النص (الرسالة) ومحتواها وفقاً لثقافته ومداركه. فكيف راعى النص القرآني أحوال المخاطَب أثناء علمية التخاطب للوصول به إلى الاقتناع، الذي يترتب عليه أن يعتقد المخاطَب بصدق الرسالة لا بمجرد صحتها، وأن يجعل احتمال توجيهها لأفعاله أمراً وارداً، إما بفعل الحدث، وإما بالكف عنه أو تركه[3] ؟

إن أول جهد يبذله المخاطَب، بصفة عامة، في فك شفرة المعنى هو الاستدلال العقلي على المعنى المقصود، وهو ما من شأنه أن يجعل المخاطَب طرفاً مساهماً في بناء النص من حيث تأويله وبيان دلالته [4]، ذلك حين يقوم بعملية الاسترجاع، وهي إحدى الكفاءات التي تتمثل

(1) ينظر: استراتيجيات الخطاب:48.

- كما أن تحقق البلاغة مرهون بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومطابقة الحال لا يمكن تحققها إلا بالنظر إلى المتلقي ومراعاة حالاته الإدراكية المختلفة. وقد اهتمت الدراسات القديمة فضلاً عن الحديثة بالمتلقي، وإن لم تفرد له حيزاً مستقلاً، إذ لم يكن المخاطَب بعيداً عن فكر الدارسين وهم يحللون الرسالة .[ينظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى) :70، وفي ماهية النص الشعري:167].

(2) ينظر: Rich D. Rieke and Malcolm O. Sillars : Argumentation and the Decision Making Process, P1.

- نقلاً عن : البلاغة والاتصال : 109 .

(3) ينظر : اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج) : 700 .

(4) ينظر: التلقي والتواصل الأدبي – أحمد المنادي، عالم الفكر ، العدد (1) ، المجلد (34)، يوليو- سبتمبر، 2005م: 194 .

في المخاطَب، وتُعَدُّ "عملية مركبة من استحضار مضامين معينة، وافتراض وجود علاقة بينها وبين موضوع الرسالة، ثم تفحص هذه العلاقة [على ضوء الخلفيات المعرفية للمخاطَب]، لتبصرها على نحو يظهر للمسترجع كافياً"[1]. وهذا يقتضي، حتماً، تعدد أنواع المخاطَبيْن بتعدد واختلاف المعارف والثقافات والمدارك.

لذا فإن صياغة الرسالة الاتصالية وتنظيمها يعتمد على ردود الفعل أو الاستجابة المتوقعة من المخاطَب أو المخاطَبين[2]. فتختلف لذلك صور الخبر في أساليب اللغة باختلاف أحوال المخاطَب ، التي تأتي على أنواع ثلاثة[3]:

1- أن يكون المخاطَب خالي الذهن من الخبر، غير متردد فيه، ولا منكر له.

2- أن يكون المخاطَب متردداً في الخبر، طالباً الوصول لمعرفته، والوقوف على حقيقته.

3- أن يكون المخاطَب منكراً للخبر الذي يراد إلقاؤه إليه، معتقداً خلافه.

وقد يخرج الكلام على هذه الأضرب الثلاثة للمخاطَب ويسمى إخراجاً على مقتضى ظاهر الحال[4]، لاعتبارات يلحظها المخاطِب، وهي إحدى شعب البلاغة.[5]

---

(1) ينظر: اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج) : 715 .

(2) ينظر: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي: 153.

(3) ينظر: الطراز : 3/140- 142، وجواهر البلاغة: 55- 57، وعلم المعاني - د/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ - 1984م: 55- 57.

(4) - والحال هو: الأمر الداعي إلى إيراد الكلام بكيفية ما، سواء أكان ذلك الأمر الداعي ثابتاً في الواقع، أم كان ثبوته بالنظر لما عند المتكلم.

- وظاهر الحال هو: الأمر الداعي إلى إيراد الكلام مكيفاً بكيفية مخصوصة بشرط أن يكون ذلك الأمر الداعي ثابتاً في الواقع؛ فكل كيفية اقتضاها ظاهر الحال اقتضاها الحال ، وليس كل كيفية اقتضاها الحال اقتضاها ظاهره. [ينظر: جواهر البلاغة: 56، 69].

(5) ينظر: جواهر البلاغة: 69.

أما المخاطَب في القرآن الكريم، فالخطاب الأول فيه متوجه في الأساس للرسول ﷺ بِعَدِّه **المتلقي الأول للنص**[1]، إلا أن هناك قُرَّاء متعددين لهذا النص، يمكن عَدّهم في موضع **المتلقي التالي بعد المتلقي الأول**[2]، غير أن مراعاة المتلقي الأول "ليست مراعاة لعوامل شخصية ذاتية بقدر ما هي مراعاة لحالة عامة يدخل فيها المتلقي الأول جنباً إلى جنب مع المخاطَبين بالنص" [3]. وإن كان الظاهر أن المخاطبين به هم الناس جميعاً، الذين ينتمون إلى نفس النظام اللغوي للنص، أو ينتمون إلى الإطار الثقافي الذي تُعَدّ هذه اللغة مركزه [4]، إلا أنه في حقيقته خطاب موجَّه إلى مخاطَب كوني، أي أنه لا يتوسل متلقياً معيناً في زمان أو مكان مخصوصين، وإنما هو خطاب موجه إلى البشرية جمعاء، غير مقيد بزمان أو مكان[5]، قال تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ:28].

وعلى ذلك يمكن الإشارة، هنا، إلى **المخاطَب المُتَخَيَّل** وهو بالنسبة لمن يُحَاجِج "عبارة عن بنية ممنهجة نوعاً ما؛ أي أنه يؤطِّر القول ويجعله ملائماً لظروفه الواردة فيها، والمتكلم البارع هو الذي يستحوذ حِذقاً وطواعية على مدارك المعنيين بخطابه أو بنصه طيلة فترة الاستماع في حالة الإلقاء أو النظر التحليلي حالة القراءة" [6]. وهذا يقتضي صياغة خطاب يفهمه البعض في ظاهره، ويؤثِّر في البعض الآخر من خلال بعض متضمَّناته، ويعطي آخرين فرصة تأويله.

---

(1) ينظر: مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن): 67.

(2) ينظر: بنية الرواية (اللغة والدلالة وبناء الشخصية في قصة يوسف عليه السلام) – د/ رياض القرشي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء – اليمن، 1425هـ – 2000م: 30.

(3) ينظر: مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن): 99.

(4) ينظر: نفسه: 56

(5) ينظر: البيان الحِجَاجي في القرآن الكريم: 41.

(6) ينظر: مفهوم الحِجَاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة العربية المعاصرة – محمد سالم ولد محمد الأمين، عالم الفكر، مج (28)، العدد (3)، يناير – مارس، 2000م: 68- 69، نقلاً عن البيان الحِجَاجي في القرآن الكريم: 41.

ولأن القرآن الكريم خطاب حِجَاجِي، جاء للرد على خطابات تعتمد عقائداً ومناهجاً فاسدة، يقدم الحُجَج المدعمة بمستويات مختلفة، ضد ما يعتقده المتلقون من مشركين وملحدين، ومنكرين ومجادلين[1]، فقد راعى حال المخاطبين على اختلافهم، فتارة يشتد وأخرى يلين، تبعاً لما يقتضيه حالهم، يخاطب العقل والقلب معاً، ويجمع بين الحق والجمال[2]، فهو ينظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، ويراعي القدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق، ويختار الطريقة التي يخاطبهم بها، وينوع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها[3]، فيخاطبهم على قدر عقولهم، ويعرف حاجاتهم ورغباتهم ويعمل على إشباعها، ويزودهم بالمعلومات والأفكار الجديدة بطريقة تدريجية، ويشرك الحواس المختلفة للمخاطبين في عملية الاستجابة، من سمع وبصر، لأن ذلك مما يزيد من قدرتهم على الفهم[4].

كما يأتي بالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ذلك أن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، فيجادل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقبيح؛ حتى يُطَمئِن المخاطَب ويُشْعِرُهُ أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق. فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه، في أحوال كثيرة إلا بالرفق، عندها يشعر المخاطَب

---

(1) ولعل في اختلاف مستويات التلقي هذه لاختلاف المخاطبين ما يؤكد الصفة الحِجَاجِيَّة للقرآن الكريم؛ لأنها خاصية أساسية من خصائص الخطاب الإقناعي، الذي يعرفه الدرس الحديث من الناحية الوظيفية بأنه موجه للتأثير في آراء وسلوك المخاطَب، فتصبح لذلك الأساليب المختلفة والصيغ اللغوية أفعال كلام تمارس وظيفة الإقناع من خلال قوتها الكلامية التي تتجلى بدورها من خلال = = طرائق من البناء والربط والعلاقات الاستدلالية التي يمثل الحِجَاج أبرز مظاهرها. [ينظر: استراتيجيات الخطاب: 456، والبلاغة والاتصال:7، 105، وفي بلاغة الخطاب الإقناعي: 18].

(2) مناهل العرفان: 247/2.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 1/ 126، 2202/4

(4) ينظر: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي: 128.

أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وأن المخاطِب لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها، والاهتداء إليها. وهذا هو منهج القرآن الكريم في دائرة الدعوة والجدل بالحُجَّة [1].

ونتيجة لتعدد أنواع الإنكار، واختلاف أحوال المكذبين، فقد تعددت مقامات وسياقات الخطاب في موضوع السورة، بتعدد المخاطبين من منكرين ومؤمنين، بل إن المنكرين لم يكونوا على درجة واحدة، فهناك من يؤمن بعد التوبيخ، وهناك من يلزمه بالإضافة إلى التوبيخ التخويف والتهديد، ثم تخويف وتحذير مما سيلقونه يوم القيامة، ثم يتكرر هذا التوبيخ والتخويف والتحذير في مواطن متعددة بتكرر الجحود والإنكار. ومنهم من يؤمن بالخطاب اللّيِّن، والقول الحسن.

وقبل الولوج في عرض ومناقشة الحجج الواردة في السورة، نشير إلى أهم أمرين يجب أن يراعيهما المخاطِب في خطابه الحِجَاجي، وهما[2]:

1- الهدف الذي يريد تحقيقه، وهو الإقناع.

2- الحجج التي يمكن أن يعارضه بها المخاطَب، والتي يضعها في الحسبان في أثناء بناء خطابه.

وحتى يؤدي الحِجَاج إلى الإقناع، فإن أول ما يجب الأخذ به هو: حسن التدبير والبصر[3] في التقاط المناسبة بين الحُجَّة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى حتى يقطع المخاطِب السبيل على المخاطَب فلا يجد منفذاً إلى استضعاف الحُجَّة أو الخروج عن دائرة

(1) ينظر : في ظلال القرآن : 4/ 2202.

(2) استراتيجيات الخطاب: 464 .

(3) وقد ورد مصطلح البصر بالحجة عند الجاحظ في البيان والتبيين، إذ يقول: "وقال بعض أهل الهند: جماع البلاغة بالبصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة". ثم قال: "ومن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة، أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها، إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك، وأحقر بالظفر". [البيان والتبيين: (باب البيان) 88/1]، كما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الصناعتين عند حديثه عن حد البلاغة.[ينظر: كتاب الصناعتين : 15.]

فعلها، ثم يصوغها في قالب لغوي مناسب يتوجه بها إلى عقل المخاطَب. وهنا تكمن أهمية الحِجَاج فيما يولده من اقتناع لدى المخاطَب، ذلك أن المخاطِب لا يعمد من خلال الحِجَاج إلى مجرد إثارة انفعالات المخاطَب أو دغدغة عواطفه والتحايل عليه وإيهامه[1]، بل يسعى جاهداً إلى تقرير الإقناع في نفسه، ودفعه من خلاله إلى الفعل.

وإجمالاً فهناك أدوات كثيرة وآليات متعددة تسهم في بناء الخطاب حِجَاجِيّاً بما يتناسب مع السياق الذي ترد فيه، ذلك أن الحُجَج تتأثر بالتغيرات المصاحبة لحياة الناس، فالحُجَّة التي كانت ناجعة بالأمس، قد لا تكون صالحة اليوم، وقد لا تؤدي نفس الغرض، وهذا ما يجعل الحِجَاج عرضة للتغيير والتحوير في بنائه وأنساقه التي يقوم عليها، وذلك تبعاً لتغير المقام، وتغيير ظروف المحاجَج، حتى وإن ظل موضوع الحِجَاج هو ذاته[2]. وإلى ذلك يشير الدكتور عز الدين إسماعيل، في حديثه عن المعنى الثاني الذي يحكمه السياق الحضاري "أن ليست له قوة المعنى الأول واستقراره، وإنما هو قابل للتعدد، بل قابل للتغير أو التراجع أو الإهمال والنسيان مع مضي الزمن، ولأنه متولد أصلاً من علاقة خاصة بين المدلولات (المعاني)، لا الدوال (الألفاظ)، فإنه غير قادر على أن يستقر نهائيّاً في ذاكرة اللغة. ويعلل رأيه هذا قائلاً: "إن عبارة مثل (كثير رماد القدر)، عندما يستمع إليها المخاطَب من سكان المدن اليوم، ممن لم يلقنوا بالدرس معناها الثاني، لن يكون قادراً على استنباط معناها الثاني، لا لضعف كفاءته اللغوية، بل لأن معيار التأويل [أي السياق الحضاري] قد تراجع مع مضي الزمن، ولم يَعُد يشكل جانباً من تجربته اللغوية، فمع تراجع التشفير الحضاري للمعنى في زمن لاحق يصبح من الصعب الحديث عن قصد المتكلم، أو التماسه، فلا سبيل إذن إلى القطع بمقصد المتكلم من

[1] ينظر: مقدمة في الخلفية النظرية في المصطلح ، ضمن كتاب: أهم نظريات الحِجَاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس، كلية الآداب، منوبة: 14، نقلاً عن: استراتيجيات الخطاب : 457.

[2] ينظر: استراتيجيات الخطاب : 460، 461 .

نص العبارة التي يسوقها، وهذا ما يفتح المجال للاجتهاد في التفسير والتأويل"[1]، ومن ثم لن يكون للمتكلم نفسه حُجَّة على ما قصد إليه، لأن النص هو ما ينجح في أن يقوله، لا ما قد يؤكد المتكلم أنه قصد إلى قوله.

وهذا ما يجعل سبيلاً إلى من يقول: إن القرآن الكريم قد يصل إلى مرحلة يصبح فيها عاجزاً عن معالجة قضايا كل عصر، والعصور – بالطبع – في تطور مستمر، ومن ثَّم يكون في وادٍ، والناس في وادٍ آخر، أو يضطر الإنسان أن يعيش معه في ازدواجية متناقضة بين الدين والحياة.

فكيف راعى القرآن الكريم هذه الجوانب، وهل هذه العبارة صحيحة حتى فيما يتعلق بتلقي النص القرآني؟ وإن كانت قاعدة عامة فكيف راعى القرآن الكريم جوانب التشفير الحضاري مع مر العصور، وهو كتاب الله إلى قيام الساعة؟

والحقيقة أن القرآن الكريم مفتوح على الزمان والمكان والإنسان، يخاطِب كل العصور بلغاتها الخاصة، ويحاور كل الحضارات بشكل مؤثر وفاعل، فـ" الحِجَاج القرآني هو الحوار الذي يراد به الإبانة والإبلاغ والإقناع، وذلك باستخدام الدلائل العقلية والعملية واللغوية والفطرية والواقعية، والبيّنات القرآنية والكونية في الأنفس والآفاق، إثباتاً لحقيقة الإسلام والإيمان بالله ولقائه "[2]، فيهدف إلى التأثير من خلال مجموعة من الشواهد الحِجَاجِيَّة التي ينطلق فيها من ثقافة المخاطَب، منها ما هو أخلاقي سلوكي يخاطِب النفوس والضمائر من خلال الترغيب والترهيب، ومنها ما يتعامل مع عقل المخاطَب بالحجج والبراهين العقلية، ومنها ما هو نفسي يخاطب المشاعر والأحاسيس، فيحرك نوازع الخير في النفوس التي رانت عليها الأدران بأثر العادات والتقاليد والموروثات الخاطئة [3].

---

[1] ينظر : مجلة فصول – عز الدين إسماعيل، ع 3/ 4، 1987: 43، نقلاً عن: التلقي والتواصل الأدبي: 195- 196.

[2] ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن (دراسة مصطلحية): 552 .

[3] ينظر: دراسة جمالية بيانية في أربع سور: 51، وفي ماهية النص الشعري: 20، واستراتيجيات الخطاب: 499، والخطاب النفسي في القرآن الكريم (دراسة دلالية أسلوبية) – د/ كريم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1428هـ - 2007م: 75.

لذا نجد القرآن الكريم – كما ذهب إلى ذلك الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)– قد شَمِلَ جميع أنواع البراهين والأدلة والحُجَج، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به[1]، مراعياً في ذلك كله قدرات الناس العقلية والعاطفية، ذلك لأنه خطاب موجه للناس كافة يفهمه العامة بما هو عليه، كما تفهمه الخاصة بما تتوصل إليه من العمق في الفهم.

وأهم هذه الحجج والبراهين التي وردت في سورة الأنعام، والتي تُعَدُّ من آليات وأدوات البناء الحِجَاجِي في السورة ما يأتي:

1 – الاستشهاد بأحداث التاريخ:

إن الاستشهاد بالتاريخ ووقائعه، ولاسيما مصير الأمم مع أنبيائها، لَهي حُجَّة بالغة الأهمية، من حيث البرهنة المؤثرة، ومن حيث المقارنة بالمماثلة والربط، لأن التاريخ أحداث وقعت، لا تحتمل النقض، ففيه الصدق الواقعي، وهذا ما يجعل التاريخ يملك قوة خاصة في النفس البشرية، كما أن التاريخ لا يُسْرَد لذاته، بل لاستخلاص العبرة، والتفكر في العلاقات السببية بين مقدمات الأحداث ونتائجها وفق سنن إلهية[2]؛ فيوفر بذلك الحاجات السيكولوجية والمبررات النفسية باستخدام آلة التفكير والتذكر لاستيعاب تلك التجارب الإنسانية الماضية، والاستفادة من السنن الكونية والتاريخية المطردة[3].

وأهم استشهاد تاريخي في هذه السورة ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6].

---

(1) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 24/2 .

(2) ينظر: دراسة جمالية بيانية في أربع سور: 57، وطرق العرض في القرآن الكريم (الأهداف والخصائص الأسلوبية) : 57.

(3) ينظر: طرق العرض في القرآن الكريم (الأهداف والخصائص الأسلوبية) :30.

والاستشهاد بهذه القرون وبتاريخهم طريقة مؤثرة في الإقناع، لأنهم يرون آثار تلك القرون، ويعرفون ما حل بها من الهلاك، كما أن فيها إشراك لكل الحواس والمعارف عند المتلقين، قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [الأنعام:11].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ۝ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ ﴾[الأنعام:42-44].

2- **شهادة المخاطَب:**

إن شهادة المخاطَب، واقتناعه الذاتي، وإن لم يظهره للآخرين، شهادة مقدرة، فشهادة العلماء بنبوة محمد ﷺ وصدق الكتاب المُنَزَّل، لاسيما، من عندهم علم بالكتاب، برهان ساطع يرد كل جدل واعتراض[1].

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:20]. وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:114].

3- **الاعتراف بالجرم:**

قال تعالى: ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام:130].

---

(1) روى أبو حمزة وغيره أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة قال عمر - رضي الله تعالى عنه - لعبد الله بن سلام: إن الله تعالى أنزل على نبيه عليه الصلاة والسلام أن أهل الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فكيف هذه المعرفة؟ فقال ابن سلام: نعرف نبي الله ﷺ بالنعت الذي نعته الله تعالى به، إذا رأيناه فيكم عرفناه كما يعرف أحدنا ابنه إذا رآه بين الغلمان وأيمُ الله الذي يحلف به ابن سلام لأنا بمحمد أشد معرفة مني بابني لأني لا أدري ما أحدثت أمه، فقال عمر - رضي الله تعالى عنه - قد وفقت وصدقت. [ينظر: روح المعاني: 130/7]

وهذا اعتراف منهم بالجرم والكفر واستحقاق العذاب، وهو من جملة المقاولة التي تجري يوم القيامة، وقد فصلت الجملة لأنها في مقام تعداد جرائمهم التي استحقوا بها الخلود، إبطالاً لمعذرتهم، وإعلاناً بأنهم محقوقون بما جزوا به. لذا جاء الاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ ﴾؟ للتقرير، وإنما جُعِلَ السؤال عن نفي إتيان الرسل إليهم لأن المقرر إذا كان حاله في ملابسة المقرر عليه حال من يظن به أن يجيب بالنفي، يؤتى بتقريره داخلاً على نفي الأمر المراد إقراره بإثباته. حتى إذا أقر بإثباته كان إقراره أقطع لعذره في المؤاخذة به[1].

4- **الترغيب والترهيب:**

"الترغيب هو التحبيب برضا الله تعالى، ودخول الجنة والخلاص من النار، والترهيب هو التخويف من سخط الله والحرمان من الجنة ودخول النار"[2]. ولأن قدرات المخاطَب العقلية والعاطفية تتباين في تأثرها وقبولها لمحتوى الخطاب، فقد جاء الترغيب والترهيب في السورة على سبيل التأثير والإقناع متعلقان بأهم القضايا التي تُعَدُّ محل جدل وخصومة من قبل المخاطبين.

أولاً / الترغيب:

منها ما ورد في قوله تعالى:

﴿ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام:32].

﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الأنعام:48].

﴿ مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:160].

---

[1] ينظر: التحرير والتنوير: 75/8، وبصائر الحق في سورة الأنعام: 123.

[2] دراسة جمالية بيانية في أربع سور: 51.

ثانياً/ الترهيب:

ومنه ما جاء في قوله تعالى:

﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام:65].

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الأنعام:93].

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴾ [الأنعام:134].

5- **الحِجَاج العقلي:**

ويُعَدُّ الحِجَاج العقلي في الخطاب القرآني عنصراً مهماً في عملية الإقناع، وفي إدراك الحق وقبوله، لذا أعطى القرآن الكريم العقل مكانةً كبيرة، ونوه له في العديد من الآيات حتى أنه وصف الذين لا يفقهون، ولا يعقلون بأنهم كالأنعام. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف:179]، وقال عزَّ وجل: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان:44].

فالعبادة "لا تتم إلا بالمعرفة الحقة، والفهم السليم"[1]، والإنسان ليس مخلوقاً من مشاعر وأحاسيس فحسب، حتى يؤثر فيه ذكر مناقب الصالحين وصفات المؤمنين، فهو علاوة على تلك المشاعر، يحمل منطقاً في عقله، ولاشك أنه يقتنع من حيث المنطق أيضاً، والقرآن الكريم بهذه الطريقة يختار أنسب الطرق وأسهلها لضمان تأثير الخطاب، ففي هذه الطريقة من الخطاب تأثير على القلب والعقل معاً، ذلك أن المتلقي عند استقباله للمعلومات تتوجه هذه المعلومات إلى مواطن الاهتمام التي اختزنت فيها موجهات ذهنية أو وجدانية، أو اجتماعية

(1) مكانة العقل والعلم في الإسلام: 43.

"فإذا توجهت إلى مواطن التوجيه الذهني، تحركت شبكة من العلاقات الداخلية، وفي هذا الحال، يعمل العقل على ربط الأشياء المتباعدة التي لا يظهر لها في السطح وجود،[...] وبالمقدار الذي يستطيع الذهن أن يكشف عن هذه العلاقات يكون صاحبه أقدر على استبصار حقائق الأمور"[1].

وهكذا يمكن القول: إن الإيمان عن قناعة واختيار ورغبة، يسوق الإنسان إلى العمل الصالح، ويجعل الدين كله لا يتجزأ عن الحياة المعيشة، فيربط الإنسان بذلك كل معاملاته، وتحركاته وتصرفاته وسلوكياته بالدين عن إدراك عميق، ورغبة شديدة. أمَّا من يدخل الإيمان بمشاعره وأحاسيسه فقط، قد يترك الدين ويبتعد عن الإيمان عند غلبه تلك المشاعر والأحاسيس بشكل آخر، وبأقل تأثير، فلا يملك إلا أن يكون تابعاً لمشاعره، تسوقه وتُسَيِّرُهُ كيفما اتجهت. ذلك أن علاقة الإنسان بخالقه هي علاقة روحية، أكثر من كونها علاقة مادية، فلا بد إذن فيها من الانقياد والانصياع لأوامر الله – عزَّ وجل – عن قناعة ورغبة تامة[2].

لذا فقد جعل القرآن الكريم الجدال العلمي والإقناع العقلي القائم على البينة والدليل هو الأسلوب الأمثل والطريق الأقوم إلى الإيمان بالله، والتصديق برسالته، في حين رفض الإيمان القائم على الجهل والتبعية والتقليد الأعمى، كما امتدح الإيمان والعبادة القائمة على أساس العلم والمعرفة واعتبرها أعلى درجات السمو الإيماني[3].

قال تعالى:

- ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ ﴾ [فاطر:28].
- ﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة:11].
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾ [الإسراء:107].

---

(1) ينظر: اللسانيات (المجال والمنهج والوظيفة):693.

(2) للاستزادة: انظر ما ذكره سيد قطب في ظلال القرآن بهذا الشأن : في ظلال القرآن :2/ 1005-1007 .

(3) ينظر: مكانة العقل والعلم في الإسلام:36، 37 .

ومن هنا يصبح من المسلمات البديهية القول إن " العقل البشري يتطلع إلى قوة الإقناع عن طريق الحجة والبرهان والعلم، وهذا المنطق هو ما جعل القرآن الكريم يحاج العقل الإنساني في أرقى ما وصل إليه من العلم ويتحداه إلى الأبد. يسلك مع مخاطبيه مسالك التوجيه والإرشاد، ويعامل خصومه بما يتناسب وأحوالهم العلمية العقدية، فيجادل المشركين جدل هداية ودلالة، على حين يجادل أهل الكتاب جدل تخطئة وإلزام لأنهم أعلم"[1].

6- **الدليل المنطقي:**

ولا يُعَدُّ الدليل منطقياً بالمعنى الدقيق إلا أن يكون صورياً وأن تراعى فيه أصول الاستدلال المنطقي، فإذا لم يتحقق له شيء من ذلك ولكنه ظل يخاطب العقل فإنه عندئذ يقع في عداد الأدلة الخطابية وليس الدليل الخطابي أقل شأناً من الدليل الصوري فلكل منها مجال استعمال لأن الاستدلال الصوري، إنما يرمي إلى مراقبة صحة التفكير بعد وقوعه، أما الدليل الخطابي فهو التفكير نفسه يخاطب العقل حيناً ويخاطِب العاطفة حيناً آخر. والأدلة القرآنية جميعاً تخاطِب العقل لأنها وإن لم تكن صورية فهي تقوم على أساس من المسلمات العقلية[2]، معتمدة على الوقائع الموضوعية، والخلفية العامة المكوَّنة من أراء المجتمع.

- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:7].

نزلت هذه الآية في النضر بن الحرث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد لما قالوا لرسول الله ﷺ يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله تعالى ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله تعالى وأنك رسوله[3]. فجاءت هذه الآية حُجَّة عليهم، لتكشف تماديهم في غيهم وجحودهم؛ فهم حتى وإن لمسوا الكتاب بأيديهم، وتأكدوا أنه

---

[1] ينظر: مفهوم الحِجَاج في القرآن الكريم (دراسة مصطلحية): 545.

[2] ينظر: البيان في روائع القرآن- د/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1413هـ - 1993م: 483.

[3] ينظر: روح المعاني: 95/7.

حقيقة ماثلة أمامهم، وحق يشاهدونه، لقالوا ﴿ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾، وهو أقصى درجات الجحود والإنكار.

فالمعلوم أن السحر لا يتجاوز تأثيره الأبصار، وهو أمر متعارف عليه في عالم خطاب المتلقين، قال تعالى:﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر:15]، أما الشيء الملموس حقيقة، فليس من السهل إنكاره.

واللمس في قوله تعالى ﴿ فَلَمَسُوهُ ﴾ كما قال الجوهري (المس باليد)، وقوله تعالى: ﴿ بِأَيْدِيهِمْ ﴾ لزيادة التعيين ودفع احتمال التجوز الواقع في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السماء ﴾ [الجن: ٨]، أي تفحصنا. وقيل: إن ذكر الأيدي ليفيد أن اللمس كان بكلتا اليدين، وتخصيص اللمس لأنه يتقدمه الإبصار، ولأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إذا ترك العناد والتعنت: إنما سكرت أبصارنا. واللمس هنا إنما يدفع احتمال كون المرئي مخيلاً، فإذا تأيد الإدراك البصري في النزول بالإدراك اللمسي في المُنَزَّل يجزم العقل بديهة بوقوع المبصَر جزماً لا يحتمل النقيض، ولا يبقى بعده إلا مجرد العناد لشدة الإصرار على المكابرة وما يتفرع عليها من الأقاويل الباطلة[1].

- وقال تعالى:﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:9].

وقد جاءت هذه الآية رداً على المشركين طلبهم أن يكون الرسول مَلَكاً حيث يظهر إفحام الخصوم من المشركين من ناحيتين: " الناحية الأولى أنهم لو أجيبوا إلى ما يطلبون لقضي عليهم ما هددهم الله تعالى به، ولا ينظرون والثانية أنه لا يزول اللبس الذي يلبسون به الحق بالباطل لأنه لو جعله الله تعالى مَلَكاً لجعله في صورة رجل، وبذلك يجيء الالتباس الذي لبس به عليهم "[2].

---

(1) ينظر: روح المعاني: 7/96.

(2) القرآن المعجزة الكبرى: 407.

- قال تعالى: ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 81-80].

نجد القرآن الكريم في هذه الآيات قد سلك في مخاطبة المنكرين، إلى لمس البداهة، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منها إلى البصيرة ويتخطاها إلى الوجدان، بعيداً عن التعقيد الكلامي، والجدل الذهني[1].

- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: 97].

فهذه النجوم التي يعبدونها، مخلوقة مقهورة لسلطان الله، لا تجلب لأحدٍ نفعاً، ولا تدفع عنه ضرراً، بل هي مسخرة لخدمة الإنسان، فكيف يقدسها ويعظمها ويتخذها آلهة، وهي مخلوقة من أجله، ومسخرة لخدمته؟ فهذه حُجَّة تخاطب العقل، إذ كيف يعبدون ما سُخِّر لخدمتهم، وما خلقه الله تعالى لتيسير أمورهم.

ولمَّا كانت سورة الأنعام هي سورة الحِجَاج، فقد اهتمت بالرد والاحتجاج على أصحاب الشبه والضلالات التي يتعلق بها المخالفون، لاسيما القضايا الكبرى التي كانت وستظل محور الجدل معهم: فيرد عليها رداً عقلياً محكماً، لا يدع زيادةً لمستزيد.

وأهم هذه القضايا التي اشتملت عليها السورة ما يـــأتي :

1- **قضية الألوهية:**

ويأتي الرد عليها بالدعوة إلى الاستمرار في سلسلة من التفكير المترابط، والنهي عن فصل الحقيقة الكلية بعضها عن بعض، من خلال المعرفة بأسرار الطبيعة، والتأمل بها، الذي لا

[1] ينظر: التصوير الفني في القرآن: 184- 186 .

يقل شأناً عن علوم العقيدة في ترسيخ الإيمان وإصلاح البشرية، وتحقيق رسالة الدين، بل هي القاعدة لها، والداعي إلى الالتزام بها؛ لهذا نشاهد القرآن الكريم يوجه أنظار المخاطبين في السورة للنظر والتأمل في الظواهر الكونية التي لا يمكن أن توجد نفسها، ففي وجودها دليل على موجدها، وعلى نعمهِ التي أنعم بها على الإنسان بتسخيرها له[1].

قال تعالى:

- ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام:95] .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السماءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:99] .
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام:141] .
- ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:59].

إنها دعوة صريحة واضحة إلى التفكير والبحث، والتأمل، والاستنتاج في عالم الكون والطبيعة والحياة، والاستفادة منها، والتوصل إلى معرفة الله عن طريقها، من خلال الربط بين الحقائق البديهية التي اعتاد البصر على مشاهدتها، وواظب الحس على معرفتها، وتعود الذهن على إدراكها، فلا تحتاج إلى جدل عقلي يبين معالمها، ويكشف أسرارها، بل يكون مجرد التأمل

[1] ينظر: البيان في روائع القرآن: 463- 464، ومكانة العقل والعلم في الإسلام: 46، 47 .

فيها مدعاة إلى الاعتراف بوجود خالق لهذا الكون، فإذا كان هو الخالق وحده، فهو الإله وحده، المستحق للربوبية والتوحيد، المتصف بصفات الكمال والعظمة والجلال[1].

وقد جاءت عملية الحِجَاج - هنا - من خلال المطابقة بين الواقع المشاهد وما يحمله المخاطبون من أفكار ومعتقدات، باستخدام فعل لغوي مباشر هو الإخبار والتعريف، ليفضي ذلك في الأخير إلى تناقض يكشف عن زيف مزاعمهم، وبطلان حجتهم.

2- **قضية الوحدانية:**

حيث كانت المشكلة الأولى التي واجهها الإسلام، هي مشكلة التوحيد، مع جماعة تنكره أشد الإنكار. وقد جاء الرد عليها في سورة الأنعام ببساطة ويسر، مخاطباً قوة الذهن والإدراك، ليعطي بذلك مجالاً واسعاً لاستخدام القدرات الإدراكية التي يتميز بها الإنسان عن سائر الكائنات [2].

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:100-101].

وهذه من أقبح الأكاذيب والافتراءات على الله - عزَّ وجل .

جاء عند ابن عاشور، أن جملة ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ تتنزل منزلة التعليل لمضمون التنزيه من الإبطال، وقد أبطلت هذه الجملة الدعوى من جهة إبطال الحقيقة فكأنها من جهة خطأ الدليل، لأن قولهم بأن الملائكة بنات الله والجن أبناء الله يتضمن دليلاً محذوفاً على البنوة وهو أنهم مخلوقات شريفة، فأُبطِلَ ذلك بالاستدلال بما ينافي الدعوى وهو انتفاء الزوجة التي هي أصل الولادة، فهذا الإبطال الثاني بمنزلة المعارضة في المناظرة.

---

[1] ينظر : القرآن المعجزة الكبرى: 372، وطرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية): 38، ومكانة العقل والعلم في الإسلام: 47 .

[2] ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم: 168 ، 184- 186، و طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية): 39 .

والصاحبة الزوجة لأنها تصاحب الزوج في معظم أحواله، والواو في ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ واو الحال لأن هذا معلوم للمخاطبين فلذلك جيء به في صيغة الحال. وقد جُعِلَ انتفاء الزوجة مسلماً لأنهم لم يدعوه فلزمهم انتفاء الولد لانتفاء شرط التولد، وهذا مبني على المحاجة العرفية بناء على ما هو المعلوم في حقيقة الولادة [1]، فكيف يكون له جل جلاله ولد ولم تكن له صاحبة، وهو خالق كل شيء؟ وكيف يتخذ الخالق من المخلوق صاحبة، وهو الذي ﴿لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام:103] ؟ والصاحبة مخلوقة، محدودة القدرات، ولا يحيط المخلوق الضعيف بالخالق جل في علاه [2].

وقد اتجه القرآن الكريم في إبطال دعواهم إلى أمر معروف مشهور مألوف لا يماري فيه أحد، وهو أنه لو كان له ولد لكان له صاحبة، ولم يدع أحد أن الله تعالى صاحبة، فبطل أن يكون له ولد[3].

كما تشترك الدلائل الذهنية مع دلائل الخلق والقدرة التي تراها الحواس، لتظهر حقيقة الإله المستحق للتوجه إليه بالعبادة والتوحيد، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۞ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:40 - 41].

وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:63- 64].

إن هذه الآيات تضع المخاطَبين الجاحدين في مواجهة مع أنفسهم، وفي هذه المواجهة مع الذات قوة إلزام لهم بقبول الحق الظاهر بالأدلة و البراهين المشاهدة .

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير: 411/7 .

(2) ينظر: بصائر الحق في سورة الأنعام: 99 ، 100.

(3) ينظر: القرآن المعجزة الكبرى: 408- 409 .

كما أن اهتمام الإسلام بالعلم، واحترامه للعقل، جعل منهجه في القرآن الكريم قائماً على الدعوة إلى الحوار الهادئ والأسلوب العلمي الرصين، فوجه نظر الإنسان إلى التفكير والتأمل، وتحريك طاقات العقل واستخدامها، منبهاً للنفوس بما جبلت عليه من الاستعداد للمعرفة والتفكير، رافضاً منطق الاعتقاد عن طريق التقليد والمتابعة، موجباً لأسلوب التأمل والتفكير والفهم اليقيني[1].

قال تعالى:﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾. [الأنعام: 75- 79].

3- **قضية القدرية:**

وهي قولهم إن الله قادر أن يحول بيننا وبين ما نحن عليه من الشرك، حتى لا نفعله، فلولا أنه رضي ما نحن عليه من الشرك وأراده منا لحال بيننا وبينه ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾.

وهي كلمة حق وصدق، أريد بها باطل، فكل شيء بإرادته سبحانه وعلمه، والتكذيب ليس في قولهم ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا ﴾، فالله سبحانه قادر على هداية جميع الناس إلى الإيمان، ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس:99]، إنما الكذب والضلال في قولهم: إن الله أمرنا به ورضي ما نحن عليه[2].

وقد أبطل الله سبحانه هذه العقيدة الجاهلية بقوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا

---

(1) ينظر: مكانة العقل والعلم في الإسلام: 36، 72، 73، 79.

(2) ينظر: بصائر الحق في سورة الأنعام: 133- 134 .

بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۞ قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: 148-149].

وفيه إقرار لهم ببطلان ما يحتجون به من غير علم تبريراً لما هم عليه من شرك وضلال، لأن مثل هذا القول محال أن يكون له حجة، قال تعالى: ﴿إن تتبعون إلا الظن﴾.

وقال تعالى:﴿ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾،﴿ قُلْ فَلِلهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ يعني فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللَّهِ الحُجَّة البالغة عليكم على سوء مذهبكم ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنتم ومن يخالفكم في الدين؛ وعلى ذلك فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم، لأنّ المشيئة تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه[(1)]؛ فلِمَ تقولوا عن مخالفيكم إنهم ضالُّون ، وإنما هم على المشيئة أيضاً؟

فلا حُجَّة لهم، لأنهم تعلَّقوا بالمشيئة، وتركوا الأمر؛ ومشيئة الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعمّ مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر، وليس له أن يتعلَّل بالمشيئة بعد ورود الأمر[(2)].

4- قضية صدق الرسالة المحمدية:

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91].

وينقض القرآن الكريم هذه الدعوى الباطلة بالعودة إلى استخدام المقدمات التي توصِل صاحبها إلى مرحلة يستطيع الوصول بها إلى النتيجة المباشرة[(3)]، حيث يمكن تقرير حدث ما

---

(1) ينظر: الكشاف: 73/2 .

(2) ينظر: زاد المسير: 145/3 .

(3) اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج): 716.

بناءً على مقدمات معروفة، انطلاقاً من أن استخدام الحُجَج والبراهين عند المخاطبين يكون مما يؤمنون به، ولا يستطيعون إنكاره، إما من أمور ماثلة أمام أعينهم، أو أمور تشكل جزءاً من معتقداتهم وثقافتهم[1].

فقيل لهم على سبيل الإلزام ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الكتاب الذى جَاء بِهِ موسى ﴾، فإن المراد أنه تعالى قد أنزل التوراة على موسى – عليه السلام– ولا سبيل لكم إلى إنكار ذلك فلم لا تجوزون إنزال القرآن على النبي ﷺ ؟ وبهذا ينحل استشكال ما عليه الجمهور، بأن اليهود يقولون إن التوراة كتاب الله تعالى أنزله على موسى عليه السلام فكيف يقولون: ﴿ مَا أَنزَلَ الله على بَشَرٍ مّن شيء ﴾، وحاصل ذلك أنهم أبرزوا إنزال القرآن على محمد ﷺ في صورة الممتنعات حتى بالغوا في إنكاره فأُلزِمُوا بتجويزه[2].

كما أن فيها تذكيراً بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتّوراة، وهي تُدرس بين اليهود في البلد المجاور مكّة، واليهودُ يتردّدون على مكّة في التّجارة وغيرها، وأهل مكّة يتردّدون على يثرب وما حولها وفيها اليهود وأحبارهم. وإذا كان ذلك لا يسع إنكاره كما اقتضاه الجواب آخِرَ الآية بقوله: ﴿ قُلِ اللهُ ﴾ فقد ثبت أنّ الله أنزل على أحدٍ من البشر كتاباً فانتقض قولهم : ﴿ مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾، على حسب قاعدة نقض السالبة الكليّة بموجبة جزئيّة[3].

كما تَضمَّن معنى قوله تعالى: ﴿ وَعُلِّمْتُم مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الأنعام:91]، رداً علمياً منطقياً على منكري الوحي. ففي القرآن الكريم علوم ما كان أحد من البشر يعلمها، فلم يكن يعلمها النبي عليه الصلاة والسلام ولا أحد من قومه. وقد كشف التقدم العلمي في العصر الحديث اشتمال القرآن الكريم على حقائقِ علميةٍ كبيرة، لم يعرفها أحد من البشر إلا في

---

(1) ينظر: النص والخطاب والاتصال: 212.

(2) ينظر : روح المعاني: 219/7 .

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 363/7 ، 16/8 .

العصور المتأخرة، فلو أن منكري النبوة والوحي الذين لم يتذوقوا بلاغة القرآن الكريم، ولم يدركوا تميُّزه على غيره من الكلام، تدبروا وعرفوا بعض ما فيه من العلوم، لما وسعهم إلا التسليم بأنه كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [1].

من هذه العلوم ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:99].

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾، خضراً: الشيء الذي لونه أخضر [2]، وقيل الخضر: شيء غض أخضر، أي رطباً من الزرع [3]، وقيل هو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة [4]، فكل شيء يبدأ أخضرا [5]، ثم ﴿ نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا ﴾ هذا النبت الأخضر يخرج منه الحب والثمر وأنواع الزرع [6].

إن تفسير هذه الآية يشير إلى وجود مركز (أخضر) في النبات هو الذي ينبت منه الزرع. وهذا ما توصل إليه العلم الحديث، وهو **اليخضور (الكلوروفيل)**؛ كما يظهر المعنى في الآية هو مركز صنع الطعام، وهو عبارة عن مجسمات خضراء توجد في النبات، تُحَوِّل الطاقة الشمسية

---

[1] ينظر: بصائر الحق في سورة الأنعام: 90 .

[2] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 573/11، وتفسير القرآن العظيم: 306/2، والجواهر الحسان في تفسير القرآن: 500/2، وتفسير الجلالين: 127، وفتح القدير: 144/2، والتحرير والتنوير: 399/7.

[3] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 573/11، والكشاف:49/2، وتفسير القرآن العظيم: 306/2، وتفسير الجلالين: 127،

وفتح القدير: 144/2، والتحرير والتنوير: 399/7.

[4] ينظر: الكشاف: 49/2.

[5] ينظر: في ظلال القرآن: 1161/2.

[6] ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 574/11، وتفسير القرآن العظيم: 306/2، وفي ظلال القرآن: 1161/2.

وثاني أكسيد الكربون والماء إلى طعام للإنسان والحيوان، في سلسلة متصلة من التفاعلات التي تحدث داخل النبات، لتنتهي إلى تكوين الحبوب والفواكه والخضروات التي تُعَدّ الغذاء الرئيس للإنسان والحيوان[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [الأنعام:92].

حيث أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن مكة هي مركز اليابسة في العالم، فالأرض اليابسة كلها تقع حول مكة المكرمة، حتى بالنسبة للعالم القديم يوم بدأت الدعوة للإسلام. وفي هذا تأكيد لعموم رسالة النبي ﷺ، ورد لمزاعم القائلين بأن رسالته ﷺ هي للعرب فقط؛ لأن بلاد العرب هي البلاد الواقعة حول مكة المكرمة[2].

كما تُعَدّ مكة المكرمة مركز التجمع الإشعاعي للتجاذب المغناطيسي على وجه الأرض، وهي حقيقة علمية توصل إليها أحد علماء الطوبوغرافيا الأمريكان. وفي هذا الإعجاز العلمي ما يفسر قول الرسول ﷺ : << **إن مكة هي أحب بلاد الله إلى الله**>>[3].

ومن وجوه الإقناع العقلي، التي تؤكد صدق الرسالة، وصدق النبي المرسل محمد ﷺ، طبيعة الخطاب في السورة؛ إذ لا يُعقل أن يُخاطِب إنسانٌ (ما) نفسه بهذا الخطاب، وكل ما في الخطاب يدل على طرف أعلى وأقوى وأقدر من المخاطَب.

قال تعالى:

- ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام:34].

---

(1) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، جمع وإعداد: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، د.ط، د.ت:198– 199.

(2) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة : 152– 153، وبصائر الحق في سورة الأنعام: 91.

(3) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: 152، 153.

- ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:52].
- ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:116].
- ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:159].

وختام القول: إن القرآن الكريم في خطابه وجدله لا يتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل يتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد المخاطبين، والأخذ بأيديهم إلى الحق، وتوجيه أنظارهم إلى الكون، والحقائق المحيطة بهم، وما فيهما من دلائل على القدرة تثبت وجوده سبحانه وتعالى، وتؤكد وحدانيته وتفرده[1]، فتنقض في الوقت ذاته دعاوى المكذبين وشبه المنكرين، وتقطع سبيلهم إلى التشبث بها والاستمرار عليها، وتفتح آفاق الذهن والمدارك وتحمله على الاقتناع والتصديق.

كما يختلف اتجاه القرآن الكريم في الاستدلال عند مخاطبة المتلقين، فبالإضافة إلى الحجج والأدلة الكونية في الآفاق، نجد للخطاب القرآني دوراً كبيراً في التأثير والإقناع بما فيه من عبارات تمس مواطن الإحساس تخاطِب العقل والوجدان، فتتنوع أساليب العرض بين لغوية وبلاغية مراعاة لأحوال المخاطبين المختلفة، من خلال توظيف الأدوات اللغوية المختلفة بمعانيها وخصائصها وإمكاناتها المعروفة، وتنوع وظائفها في السياقات الممكنة، ولا تُعَدّ هذه الأدوات حُجَجاً بعينها، بل هي قوالب تُنَظِّم العلاقات بين الحجج والنتائج بالاعتماد على الكفاءة التداولية للمخاطبين[2]. وهذا هو موضوع الفصل الثاني من هذا البحث.

(1) القرآن المعجزة الكبرى: 405- 406.

(2) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 477.

الفصل الثاني

المقومات الحِجَاجِيَّة اللغوية ودورها في الإقناع.

لا شك أن اللغة كانت وما تزال وستبقى هي الوسيلة الأهم في العملية الاتصالية[1]، كونها وسيلة التفاهم بين أطراف هذه العملية، وأداة التعبير عن المعرفة والمعلومة، والإنتاج والثقافة والحضارة[2]، فليست مجرد أداة يُعَبَّر بها عن الأغراض الخارجية فقط، إنها القالب الذي يشكل النمط الفكري باعتبارها أداة التعبير والتصوير للبنية الثقافية والتراثية للكيان الاجتماعي[3]. و"اختلاف اللغات يفسر اختلاف الثقافات بين الأمم، ويضفي على كل أمة طابعاً فكرياً خاصاً بها ، بحكم إمكانية تفاهم وتواصل أفرادها ، واكتسابهم عادات وتقاليد متوارثة كمعيار لشخصيتهم المستقلة"[4].

والتواصل حسب نظرية أفعال الكلام، وما يصطلح عليه بالنظرية التلفظية "ليس مجرد نقل المعلومات والأخبار إلى المخاطبين، بل هو عالم يتفاعل فيه الناس وتبرز فيه العلاقات البشرية بكل زخمها وحمولتها الاجتماعية والنفسية "[5]، الأمر الذي يعطي اللغة بعداً تداولياً يجب استحضاره لفهم الكثير من القضايا المرتبطة بالنشاط اللغوي، هذا النشاط الذي لا يتمثل في مجرد تبليغ المعلومات، أو وصف الواقع، بل يتعدى ذلك ليجسد في ذاته نمطاً من الفعل الذي يؤدي إلى إنشاء وقائع في العالم، باعتماد اللغة والكلام أداة لذلك[6]؛ ذلك أن الملفوظات التي ننتجها في نشاطنا اللغوي تتكيف مع طبيعة الفعل الذي تتولد عنه هذه الملفوظات .

فاللغة تؤدي أدواراً أهم من كونها أداةً للعلم والإخبار، وهي في الخطاب الحِجَاجِي تقوم بدورٍ جوهري وفاعل في تحقيق التأثير والاستمالة، فالمفردات التي يختارها المتكلم

---

(1) ينظر : مهارات الاتصال، راشد علي عيسى، الأمة ، 103، رمضان 1425هـ : 25 .

(2) ينظر : نفسه : 25 ، واستراتيجيات الخطاب: 25 .

(3) ينظر: الحوار بين الممارسة والشعار: 111، ومقدمة في علمي الدلالة التخاطب: 35 .

(4) الحوار بين الممارسة والشعار: 111 .

(5) الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو : 216.

(6) ينظر: استراتيجيات الخطاب:25، و الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر و ديكرو : 117 .

لوصف حدث ما تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث من جهة، وتضع ذلك الحدث في نسق يؤثر في تحديد الموقف الذي يتخذه المتلقي تجاه ذلك الحدث من جهة ثانية [1].

وتتجلى حِجَاجِيَّة اللغة في الخطاب، في نمط العلاقات بين المنطوقات، وما تتضمنه من حمولات دلالية توجهها في مجتمعٍ ما توجيهاً معيناً؛ فالخطاب هو الرسالة التي تبرز فيها الأدوات اللغوية والآليات الخطابية المنتقاة، إذ يسعى من خلال وظيفته التفاعلية إلى التعبير عن مقاصد معينة، وتحقيق أهداف محددة، تظهر في شكل الخطاب، عندها تصبح لغة الخطاب شكلاً دالاً يقود إلى المدلولات الثاوية وراءه من خلال المعطيات السياقية والعلاقات التخاطبية، والافتراضات المسبقة التي يدركها المخاطِب أو يفترض وجودها[2]. ومن ثَمَّ فإن تتبع الخصائص التعبيرية لهذا الخطاب تُمَكِّن من معرفة الكيفية التي يتعامل بها المخاطِب مع المخاطَب ويتوخى بها التأثير والإقناع، من خلال أنساق لغوية وأدوات معينة.

كما أن القيمة الحِجَاجِيَّة لقول ما، لا تكمن في حصيلة المعلومات التي يقدمها فحسب، بل في كون الجملة قد تشتمل مورفيماتٍ وتعابيراً وصيغاً – فضلاً عن محتواها الإخباري – تصلح لإعطاء توجيه حِجَاجِي للقول، وتوجه المتلقي في هذا الاتجاه أو ذاك[3].

ولأن وظيفة اللغة، بناءً على ماسبق، متوقفة على نسق العلاقات التي تربط بين مكونات التركيب، وما تحمله من مدلولات تدفع المتلقي إلى الفعل، وتحقق بذلك هدف المرسل من إنتاج خطابه اللغوي، وهي في الحِجَاج وسيلة لفرض سلطة على المتلقي واستدراجه إلى الدعوى المُعَبَّر عنها، وإقناعه بمصداقيتها، وكون لغة القرآن الكريم حُجَّة بالغة بحسب ما

---

(1) ينظر: البلاغة والاتصال : 188 .

(2) ينظر: استراتيجات الخطاب: مقدمة المؤلف (vi-vii).

(3) ينظر: Ducrot (Oswald) : Les échelles argumentatives Editions de Minuit Paris 1989 : P 11-18، نقلاً عن: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 103 .

ذهب إليه دارسو الإعجاز القرآني[1]، أو ما يمكن أن يندرج ضمن ما تسعى إليه سيميائيات التواصل بدراسة أساليب أو استراتيجيات الإقناع[2] - أي الوسائل المستعملة قصد التأثير، فلا بد إذن في تحليل لغة النص، بِعَدِّه نصّاً حِجَاجِيّاً، من الوقوف على الأبعاد الحِجَاجِيَّة فيه، انطلاقاً من الخصائص التي يكتسبها على مستوييه :

- المستوى الإفرادي (والمتمثل في اللفظ) .
- المستوى التركيبي.

ولـمَّا كان الخطاب الحِجَاجِي يساق بناءً على مقتضيات الحال، فمراعاة السياق - بوصفه أحد العناصر الأساسية في بناء الخطاب - أمر لا يمكن الانفكاك منه في عملية التخاطب والتواصل بين طرفي الخطاب، وهو من أهم الأمور التي تقوم عليها عملية الفهم والإفهام، ذلك أن عملية التواصل في أي خطاب- كما رأينا [3] - تحاط بجملة من الملابسات والظروف والأحوال، وهي الأمور التي يراعيها المخاطِب في مقام التواصل، ولا يغفله عند إنتاج خطابه، منها ما يتعلق بالمخاطبين، ومنها ما يدخل في طبيعة العلاقة بينهم، ومنها ما هو وليد الموقف، بحيث يكون رهيناً لظروف الزمان والمكان التي وقع فيها، وهذا كله يؤثر في تكوين الخطاب، ويسهم بشكل كبير في تحديد دلالته، وذلك بوصف المقام محدداً سياقياً له دوره في إنجاح عملية التواصل، وتحقيق هدف الخطاب[4].

وهكذا نستطيع القول إن المقال ليس مادةً لغوية منفصلة عن مقامها، وأي خطاب لا يمكن أن ينفصل عن سياقه ومقام التخاطب فيه، ومراعاته من الشروط الجوهرية في إنتاج الخطاب الإقناعي. وتظهر هذه الفكرة أكثر وضوحاً عند الحديث عن مراعاة الألفاظ

---

[1] ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط2، 1979م: 21-22، 76، 117- 118.

[2] ينظر: استراتيجيات الخطاب: 444-545.

[3] ينظر: الفصل الأول، المبحث الأول والثاني من هذا البحث.

[4] ينظر: وصف اللغة العربية دلالياً : 137، و استراتيجيات الخطاب : 48، و التلقي والتواصل الأدبي: 192.

والتراكيب للأغراض والمقاصد، إذ لا يمكن دراسة المفردات والتراكيب أو الصور بمعزل عن دلالتها في السياق، الأمر الذي لا يجعلنا نفرد مبحثاً مستقلاً للحديث عنه، بل سيتم تناوله في السياقات المختلفة للبحث، وهذا ما يقتضيه المنهج التداولي الذي يمكن تعريفه هنا بأنه "دراسة الاتصال اللغوي في السياق "[1]، أو كما جاء عند آن روبول وجاك موشلير بأنه "العلم الذي يدرس تأثير المقام في معنى الأقوال"[2] .

---

(1) استراتيجيات الخطاب: 22 .

(2) التداولية اليوم – علم جديد في التواصل ، آن روبول وجاك موشلير، ترجمة: د/ سيف الدين دغفوس، و د/ محمد الشيباني، مراجعة: د/ لطيف زيتوني، ط1، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، 2003م: 264 .

– نقلاً عن: من آليات تحليل الخطاب – صابر الحباشة، جذور، ج(22)، مج (10)، ذو القعدة 1426هـ – ديسمبر 2005م: 332 .

المبحث الأول

بلاغة اللفظ وأبعاده الحِجَاجِيَّة.

يُعَدُّ اللفظ قوة خلاَّقة له فاعلية نصيَّة مهمة من الضروري أن يستغلها المتكلم في الإقناع وفقاً لعلوم البلاغة التي تتحدد من خلالها الشروط والقواعد التي تسمح باستعمال بلاغة اللفظ في الإقناع والتأثير مع أخذ شروط السياق بعين الاعتبار.

لذا فقد تناول النقاد القدماء اللفظ في دراستهم، بِعَدِّه الإطار الدلالي المفرد الذي يتكون منه الإطار الدلالي المركب، واتجهت هذه الدراسات إلى عدة مستويات، منها ما يتصل بالوظيفة، ومنها ما يتصل بالدلالة، ومنها ما يتصل بالناحية الصوتية، ثم ما يتصل بالطبيعة السياقية، وكل ذلك يتجاوز كون اللفظة وحدة لغوية إلى كونها أداة فنية لها خواصها التي تتمايز في أجناس الكلام [1].

فما يتسلح به الخطاب ليقوم بعملية التأثير على الوجه الأمثل ، يتمثل في وسائل متعددة ومتنوعة يشترك فيها الخطاب بكل أجزائه، منها ما يتعلق بالدال ، ومنها ما يتعلق بالمدلول.

والتأثير يمكن أن يكون مبعثه اللفظ وحده، باعتباره علامة لغوية صغرى، كما يمكن أن يكون منشأ ذلك نسقاً من العلاقات المشكلة لتركيب دلالي متضمن لفنون التصوير والنظم[2].

وما تمتلكه المفردة من خصائص في ذاتها تستمدها من اللغة ومن التداول ، وما تحمله من طاقة دلالية تتجلى في التأثير الفاعل في تكوين الدلالة داخل النص، يجعلها مؤهلة بطبيعتها لتُصبحَ ذات صبغة حِجَاجِيَّة ترشحها لتكون في قائمة العناصر المؤثرة [3].

وهكذا فإن الحديث في هذا المبحث سيكون عن الأبعاد الحِجَاجِيَّة التي اكتسبتها المفردات في سورة الأنعام، انطلاقاً من خصائصها المعجمية والتداولية، كون الكلمة في بعدها الحِجَاجِي تكتسب، بالإضافة إلى معناها المعجمي، سمات دلالية إضافية، وذلك من خلال علاقتها بالمقال الذي ترد فيه، والمقام الذي تستعمل فيه. كما أن لها القدرة على التأثير في السياق

(1) ينظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى) : 113 .

(2) ينظر : التلقي والتواصل الأدبي : 198 .

(3) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 74 .

الذي ترد فيه بفضل ما علق في ذاتها من دلالات وفِكَر تستمدها من خلال بعدين أساسين هما:

1- **البعد اللغوي:** أي اللغة نفسها فالكلمات لا تعيش منعزلة في نظام اللغة ولكنها تندرج تحت أنواع شتى من المجموعات والتقسيمات، يرتبط بعضها ببعض بواسطة شبكة من العلاقات: علاقات بين الألفاظ، وعلاقات بين المدلولات، علاقات أساسها التشابه أو بعض الصلات الأخرى[1].

2- **البعد التداولي:** وذلك بانتمائها إلى حضارة مستعمليها، وتاريخهم، واستعمالها بالتعاقب عليها، وتداولها في المجتمع وعبر التاريخ [2].

أولاً : البعد اللغوي للمفردة:

إن التواصل مع أي نص، يهدف بطبيعة الحال إلى الوقوف على دلالته وسبر أغواره وتحديد معانيه، ولعل أول ما يسهم في فهم هذه الدلالات والوقوف عليها، هو التلبث إزاء مفرداته المعجمية، لما يتسم به إدراك الدلالة المعجمية من أهمية في تحديد المعنى في أبسط صُوَرِهِ، وكون الدلالة المعجمية للمفردات تقدم تفصيلات غير مذكورة في السياق، حيث تخصص مداخل الوحدات المعجمية مضامينها الدلالية والتركيبية، إذ يُقدم المدخل المعجمي تخصيصاً مقولياً يشير إلى المقولة قبل النهائية، التي يمكن إدخال الوحدة المعجمية تحتها [3]، ذلك أن كل كلمة منطوقة لها دلالة أولية، وتنتمي إلى حقل دلالي أو مجال دلالي معين[4].

---

(1) ينظر: دور الكلمة في اللغة – ستيفن أولمان، ترجمه وقدم له وعلق عليه: د/ كمال بشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت : 84.

(2) الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 68- 69 .

(3) ينظر: اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية ، د/ عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، بغداد ، د.ط ، د.ت : الكتاب الأول/ 84 .

(4) ينظر: النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي – الدلالي) – د/ محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2006م: 111.

والمتتبع لألفاظ القرآن الكريم في سياقاتها من الكلام، يجد دقتها المتناهية، فكل كلمة – كما يشير إلى ذلك الخَطَّابي [1] – متمكنة في موضعها، تنهض بدلالة لا يؤديها أي لفظ آخر، ولا يمكن أن تنوب عنها كلمة أخرى. فالكثير من كلمات القرآن الكريم في إعجازها وغناها بالمعنى لتبدو وكأنها مشحونة بطاقة دلالية هائلة.

يقول الراغب الأصفهاني عن اللفظة في القرآن الكريم إنها: لب كلام العرب، وزبدته، وواسطته، وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم ،وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى، بالإضافة إلى أطايب الثمر، وكالحثالة والتبن، بالإضافة إلى لبوب الحنطة[2] .

ذلك أن الكلمات تحمل طبيعة مزدوجة، إذ تحيلنا على ما هو كائن وراءها، وتجسد المعاني التي يتعذر إدراكها، وهذا ما يسمى بالإحالة المزدوجة على مصطلح اللغة [3]، فقد تحمل صيغة اللفظ " دلالة معناه، وتتناسب مع الغرض الذي سيقت من أجله، من حيث التضعيف والتشديد، وبناء اللفظ على وزن معين، بحيث يكون مبناه متفقاً مع معناه، لأن زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى" [4].

كما تكمن الطاقة الحجاجية للفظ في صيغة اللفظ نفسه، وما يتأتى عن تلك الصيغة من دلالات ومعانٍ يوحي بها . وعلى ذلك فإن الاكتفاء بالتحليل اللغوي المحض المقتصر على المعنى المعجمي والوظيفي على المستوى الصوتي والصرفي والنحوي قد يؤدي إلى قصر في فهم الخطاب فهماً كاملاً إن لم يكن قاصراً عن إعانته على أقل درجات الفهم في بعض الأحيان، فهناك من الكلمات ما تثير في النفس إحساسات خاصة بما تمدنا به من ألوان وظلال معنوية إضافية، ينشأ هذا عن قوة الكلمات على (الاستدعاء) ، "فالملاحظ أن وقوع الكلمات في نماذج

(1) ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: 29.

(2) المفردات في غريب القرآن : 9.

(3) ينظر: أساليب الشعرية المعاصرة – د/ صلاح فضل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت : 19.

(4) في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 75 .

معينة من السياقات يكسبها جواً خاصاً ويحيطها بملابسات تُعِين في الحال على (استحضار) البيئة التي تنتمي إليها هذا الكلمات." [1] ، فعلاقة اللفظ بالمعنى على مستوى من المتانة والقوة، لا تبلغها إلا علاقة الروح بالجسد، يأخذ كل منهما من الآخر بقدر ما يعطيه، ولا يستطيع أي منهما أن يعيش بمفرده [2]، حيث تنم الكلمة عن المعنى، وتوحي به حتى أن اتجاه المعنى هو الاتجاه المتغلب على اللفظة، الأمر الذي يجعل المتلقي أكثر استعداداً لفهم وقبول محتوى الخطاب.

من ذلك لفظ **المُحَاجَّة :**

﴿ حَاجَّهُ ﴾ ، و﴿ أَتُحَاجُّونِّي ﴾ في قوله تعالى : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام : 80] . كما يظهر من الآية الكريمة أن السياق سياق محَاجَّة وجدل، وسياق المحاجة يقتضي مشقة وسعة صدر وصبر طويل. وما ورد في الآية من لفظ المُحَاجَة (حاجَّه – تحاجُّوني) وما يظهر فيهما من ثقل شديد يتمثل في المد يتبعه حرف الجيم المشدد ليُوحي بذلك الثقل وتلك المشقة التي وقع فيها إبراهيم عليه السلام في محاجته لقومه، بل إن القارئ لهذين اللفظين ليتأكد بالفعل من تلك المشقة التي يستشعرها على المستوى اللغوي والمستوى النفسي أيضاً. ذلك لأن ألفاظ القرآن الكريم هي في بُعْدِها الأول وعاء للمعنى [3]، أمّا في بعدها الثاني فهي مركز يستثير الحواس البشريَّة لما لها من مخزون تأثيري في المتلقي ناتج عن الظلال الروحية التي تحيط بها داخل النص، فتفيض عليها من المعاني الثانوية بالقدر الذي يستدعيه السياق.

---

(1) دور الكلمة في اللغة: 114 .

(2) ينظر: في ماهية النص الشعري: 13 .

(3) ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم – د/ أحمد ياسوف، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية – دمشق، ط1، 1427هـ - 2006م. : 22 .

ومن ذلك أيضاً كلمة (**يصعّد**) في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:125].

ويَصْعَد معناه: يعلو، ويَصَّعَّد معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، يقال تَصَعَّدَهُ الأَمْرُ إذا شق عليه وصَعُبَ [1]. يقول الثعالبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾، أي "كأن هذا الضيِّق الصدر متى حاول الإيمان أو فكر فيه يجد صعوبته عليه، والعياذ بالله، كصعوبة الصعود في السماء"[2]، والمراد به المبالغة في ضيق الصدر فهي حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر[3]، وبناء اللفظ ذاته [يَصَّعَّدُ] فيه هذا العسر والقبض والجهد، فالنطق بهذا اللفظ يوحي بتلك المشقة، وذلك الجهد المبذول، من خلال ما يواجه الناطق من ثقل في نطق الكلمة، ناتج عن الشدة على حرفين هما في ذاتها يمثلان ثقلا في النطق، فضلا عما لحق بهما من شد زاد في صعوبة نطقها، فيتناسق المشهد الشاخص، مع الحالة الواقعة، مع التعبير اللفظي في إيقاع واحد.

---

(1) ينظر : لسان العرب، مادة (صَعَدَ).

(2) الجواهر الحسان في تفسير القرآن : 2/515- 516.

(3) أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن الإنسان عند صعوده في الهواء يضيق صدره، حتى يصبح في مأزق وحرج، لقلة الضغط الجوي، وندرة الأكسجين، وعدم ثبات درجة الحرارة في الطبقات العليا من الجو وانعدام الوزن إذا ما أغرق الإنسان في دخول أجواء بعيدة المدى. ففي عام 1648م أثبت العالم بليز باسكال (Blaise Pascal)، أن ضغط الهواء يقل كلما ارتفعنا عن مستوى سطح البحر. كما جاء في الموسوعة العالمية: أن الكتلة العظمية للجو غير موزعة بشكل متساو بالاتجاه العمودي، بحيث تتجمع 50٪ من كتلة الجو، ما بين سطح الأرض وارتفاع عشرين ألف قدم، فوق مستوى سطح البحر، و90٪ ما بين سطح الأرض وارتفاع خمسين ألف قدم عن سطح الأرض، لهذا فالكثافة تتناقص بسرعة شديدة كلما ارتفعنا بشكل عمودي، حتى إذا بلغنا ارتفاعات عالية، وصلت كثافة الهواء إلى حد قليل جداً . والآية لم تتكلم عن مجرد الضيق الذي يلاقيه في الجو المتصاعد في السماء فقط، وإنما تكلمت أيضاً عن ازدياد هذا الضيق إلى أن يبلغ أشده. [ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن – د/ السيد جميلي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت – لبنان ، ودار الوسام للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط2، 1992م : 44، والإعجاز العلمي في القرآن والسنة: 142، 143] .

- وقد عبرت الآية عن هذا المعنى بأبلغ تعبير، ففي قوله تعالى:﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ أصلها (يَتَصَعَّد) قُلِبَت التاء صاداً ثم أدغمت في الصاد، فصار ﴿ يَصَّعَّدُ ﴾، المعنى أنه يصعد صعوداً بعد صعود.

الظلمات والنور:

ومن الاستعمالات الخاصة التي وردت لأغراض بلاغية دلاليه، ما بُدئت به السورة في الآية الأولى، قال تعالى: ﴿ الحَمْدُ لله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام:1].

فقد أفرد لفظ (النور)، وجُمع في مقابله لفظ (الظلمات)، ووراء هذا الاستعمال تنطوي أغراض دلالية وبلاغية. فقد أُفرِدَ سبيل الحق، وجُمِعَتْ سُبُل الباطل، إذ سبله كثيرة ومصادره متعددة[1] كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:153]، فطريق الحق واحد، وطرق الباطل متشعبة، متعددة، والنور هنا استعارة قُصِدَ بها طريق الحق، والظلمات استعارة لطرق الباطل[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:142]، حيث ورد لفظ (**خطوات**) جمعاً لغرض بلاغي، لم يقل خطوة لأن الشيطان لا يأتي مباشرة، إنما يدخل للإنسان بالتدرج، فهي خطوات يَتَّبِعُها حتى يُوقِعَ الإنسان في شِرَاكِه.

كلمة (طين):

ومن الكلمات التي تحمل معاني في ذاتها، كلمة (طين) في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:2]، فلم يذكر في سياق الآية خلق الإنسان من (تراب) كما ورد في الآيات: [الروم: 20]، [فاطر:11]، [غافر: 67]، و[الحج: 5]. ولم يذكر خلق الإنسان من (ماء) كما جاء في الآيات:[المرسلات:20]، [النور: 45]، [الفرقان:54]، [الطارق:6]؛ بل جاء ذكر الخلق من (طين) فما علاقة الطين بالسياق؟

---

(1) ينظر: روح المعاني: 82/7.

(2) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1296.

الطين هو خليط من التراب والماء، وهما أطهر مادتين على وجه الأرض، كما أنهما المادتان الأساس لحياة الكائنات، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنبياء:30]. وفي التراب ينمو الزرع الذي تتغذى منه الكائنات على اختلافها، وفيه يدفن الموتى وإليه يصير حال الإنسان.

فذكر خلق الإنسان من الطين الذي يتكون من هذين المكونين يوحي بأهمية هذا المخلوق ومكانته الرفيعة كونه قد خُلِقَ من أطهر وأهم مادتين على وجه الأرض.

وكون الآية قد وردت في مطلع السورة ، [الآية: 2] أحد الآيات التي يمكن أن نسميها مقدمة السورة (مقدمة الحِجَاج)، توحي بذلك التشريف والتكريم الذي منحه الله –عز وجل – للإنسان في مقابل العدول والإعراض، وفيها حجة قوية تقام على المخاطَبين.

كلمة (أساطير):

وأساطير من (سطر): والسَّطْرُ والسَّطَرُ الصَّفُّ من الكتاب والشجر والنخل ونحوها. وواحدُ الأَساطير أُسْطُورَةٌ كما قالوا أُحْدُوثَةٌ وأَحاديث نحو أُرْجُوحَة وأَرَاجِيْح، وأُسْطِيرٌ وأُسْطِيرَةٌ، وقيل واحدتها إِسْطارٌ وإِسْطارَةٌ بالكسر[1].

وسَطَّرَ علينا أَتانا بالأَساطِيرِ. يقال سَطَّرَ فلانٌ علينا يُسَطِّرُ إِذا جاء بأَحاديث تشبه الباطل. ويقال هو يُسَطِّرُ ما لا أَصل له أَي يؤلف. وسَطَّرَ فلانٌ على فلان إِذا زخرف له لأَقاويلَ ونَمَّقَها وتلك الأَقاويلُ أَساطِيرُ، والأَساطِيرُ الأَباطِيلُ والتُّرَّهات، وهي أَحاديثُ لا نظام لها[2].

يتبين لنا مما سبق أن كلمة (أساطير) مع ما تقتضيه دلالتها المعجمية، قد زادت طاقتها الحِجَاجِيَّة في سياق الجدل، فهم في قوله تعالى: ﴿ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ

---

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن (سطر): 239، و لسان العرب، مادة (سطر)،

(2) ينظر: لسان العرب، مادة (سطر)، وبهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب – علي بن عثمان بن مصطفى المارديني، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2002م: 166.

الأَوَّلِينَ﴾[الأنعام:25]، يجعلون كلام الله وأصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب [1].

كلمة (أم القرى):

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92].

الأم في اللغة: كل شيء يضم إليه ما سواه مما يليه [2]، وجاء استعمال لفظ (أُم) (هنا) للدلالة على الأصل الذي يضم الفروع. وقد سميت مكة المكرمة بذلك لأنها قبلة أهل القرى وحجهم وهم يتجمعون عندها تجمع الأولاد عند الأم المشفقة ويعظمونها أيضاً تعظيم الأم، ولأنها أعظم القرى شأناً فغيرها تبع لها كما يتبع الفرع الأصل. وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها فكأنها خرجت من تحتها كما تخرج الأولاد من تحت الأم أو لأنها مكان أول بيت وضع للناس [3]. فيما أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أن مكة المكرمة هي مركز اليابسة على وجه الأرض، فالأرض اليابسة كلها تقع حولها، وهي مركزها [4]. لذا جاءت استعارة لفظ (أم) بما تحمله من دلالات لغوية مؤكدة الإعجاز العلمي الذي وصل إليه القرآن الكريم.

كلمة (صَغَار) [5]:

قال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام:124]. والصَّغَار: بفتح الصّاد الذّل، وهو مشتقّ من الصِّغَر، ويراد به:

---

(1) ينظر: الكشاف: 15/2.

(2) ينظر: مقاييس اللغة – أبو الحسين بن فارس بن زكريا (ت:395 هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت –لبنان، د.ط، د.ت: مادة (أمّ)، ولسان العرب، مادة (أمّ).

(3) ينظر: روح المعاني: 7 / 222.

(4) ينظر: الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: 152– 153، وبصائر الحق في سورة الأنعام: 91.

(5) والصغار في اللغة: القلة والحقارة والهوان، والرضا بالمنزلة الدنيئة [ينظر:مقاييس اللغة : مادة (صغر): 290/3، ولسان العرب: مادة (صغر)].

الضآلة والحقارة بعد عزة وشرف[1]، وفي الصغار معنى الرضا بالمنزلة الدنيئة[2].

وفي الآية وعيد شديد من الله وتهديد أكيد، لمن تكبر عن اتباع رسله والانقياد لهم فيما جاؤوا به، أنه سيصيبه يوم القيامة بين يدي الله [صَغَارٌ] وهو الذلة الدائمة. وقد جعل الله عقابهم ذلاً وعذاباً : ليناسب كِبْرهم وعُتُوّهم وعصيانهم لله تعالى، ولينالوا مكان ما تمنوه وعلقوا به أطماعهم الفارغة من عز النبوة وشرف الرسالة، (صَغَارٌ) أي ذل عظيم وهوان يوم القيامة[3]، لأن الجزاء من جنس العمل، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] أي: صاغرين ذليلين حقيرين[4].

لذا آثر القرآن الكريم كلمة (صَغَار) بدلاً من كلمة (ذل) في هذا السياق. ذلك أن كلمة الذل في اللغة ضد العز، وهي تحمل معنى الخضوع واللين والانقياد[5]. كما في قوله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:24].

فالذل مفروض بقوة خارجية، أما الصغار فقد لا يكون مفروضاً من الخارج؛ إذ هو رضا من المرء بالهوان والخضوع. وفي هذا الرضا بهذه المنزلة الدنيئة من قبل المشركين اعتراف منهم بما كانوا عليه من الخطأ بسبب الكبر والعناد، وهو المعنى الذي تسعى إليه هذا الآية.

كلمة (السلام):

في قوله تعالى:﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:127].
فلفظة السلام بانطوائها معجمياً على مقتضى (السلامة والأمن)، تجعل المتلقي في وضع ذهني يكون فيه في موقع المستسلم لدلالة اللفظة، الأمر الذي يجعل لهذا اللفظ وجهة حجاجية مخصوصة من خلال ما تحمله في مقتضاها المعجمي.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 56/8.

(2) ينظر: مقاييس اللغة مادة (صغر): 290/3، والمفردات في غريب القرآن: مادة (صغر): 292.

(3) روح المعاني: 24/8. كما أن الصّغار والعذاب يحصلان لهم في الدّنيا بالهزيمة وزوال السّيادة وعذاب القتل والأسر والخوف، [ينظر: التحرير والتنوير: 56/8].

(4) تفسير القرآن العظيم : 334/3.

(5) ينظر: لسان العرب: (ذلّ)،ومقاييس اللغة: 345/2.

ورد في لسان العرب: السَّلامُ والسَّلامَةُ البراءة. وتَسَلَّمَ منه تَبَرَّأَ، وقال ابن الأعرابي السَّلامة العافية. وفي قوله تعالى ﴿ وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سَلاماً ﴾ معناه تَسَلُّماً وبراءة لا خير بيننا وبينكم ولا شر.[1].

وهكذا فإن المقتضى من لفظ (السلام) هو الأمن والسلامة. والمراد بالسلام في الآية، وهو المفهوم المترتب على المعنى اللغوي والمتضمن له، الجنة لأنها دار السَّلامة، قال تعالى: ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾. وقال الزَّجّاج سُمِّيَتْ دارُ السَّلامِ لأنها دارُ السلامَة الدائمة التي لا تنقَطع ولا تَفْنى، وهي دار السَّلامة من الموت والهَرَمِ والأَسْقام؛ وقال أبو إسحق: المعنى للمؤمنين دار السَّلام وقال دارُ السَّلامِ الجنة [2]؛ لأنها محل الأمنة والسلامة والمنجاة من المخافة[3].

كلمة (يعرف):

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ <u>يَعْرِفُونَهُ</u> كَمَا <u>يَعْرِفُونَ</u> أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:20] .

المعرفة في اللغة: إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره [4].

والعلم في اللغة: إدراك الشيء بحقيقته ودليله [5]، مأخوذ من العلامة، أي: السمة التي تميز الشيء، أو من العلم وهو الدليل [6].

---

(1) وقال ابن عرفة ﴿ قالوا سَلاماً ﴾ أي قالوا قولاً يَتَسَلَّمون فيه ليس فيه تَعد ولا مَأثم. إذ كانت العرب في الجاهلية يُحَيُّون بأن يقول أحدهم لصاحبه أَنْعِمْ صباحاً وأَبَيْتَ اللَّعْنَ ويقولون سَلامٌ عليكم فكأنه علامة المُسالَمَةِ وأنه لا حَرْب هنالك. وقال أبو منصور نَتَسَلَّمُ منكم سلاماً ولا نُجاهلكم. وقيل ﴿ قالوا سَلاماً ﴾ أي سَداداً من القول وقَصْداً لا لَغْو فيه. وقوله: ﴿ قالوا سَلاماً ﴾ أي سَلِّمُوا سَلاماً. و سَلامٌ أي: أَمري سَلامٌ لا أُريد غير السَّلامَة [ينظر : لسان العرب: مادة (سلم)].

(2) ينظر: لسان العرب: مادة (سلم).

(3) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي، تحقيق وتقديم: د/ علي محمود مقلد، دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د.ط، 1986م : 66.

(4) ينظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (عرف): 343 – 344 .

(5) ينظر: نفسه، مادة (علم): 356– 357.

(6) ينظر: لسان العرب: مادة (علم).

لذلك آثر القرآن الكريم الفعل (عَرَفَ) بدلاً من (عَلَمَ) في هذا السياق، ذلك أن معرفة اليهود للحق شيء بديهي واضح لهم لا يحتاج إلى دليل، لأنهم كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:146]، بل إن فريقاً منهم ليعلمون أنه الحق، معرفة العلم بالدليل، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف:157].

كلمة (يجحد):

والجحود في اللغة: إنكار الشيء مع العلم به، ومع ظهوره وسطوع دليله، مأخوذ من قولهم: أرض جحدة، أي يابسة لا خير فيها، ومنه قيل: رجل جَحْدٌ، أي شحيح بخيل يظهر الفقر[1]. وجاء في الكُلّيّات: الجحد: هو "نفي ما في القلب ثباته، وإثبات ما في القلب نفيه"[2]، فالجحد والجحود: الإنكار للأمر المعروف مع العلم بوقوع ما ينكر، فهو نفي ما يعلم النافي ثبوته، وإنكار ومكابرة[3].

لذا فقد استعير هذا المعنى لوصف من ينكر شيئاً ظاهراً معروفاً ولا يقر به، رغم علمه به وظهور الدليل عليه، قال تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾[الأنعام:33]، أي ينكرون بألسنتهم ما استيقنته قلوبهم[4]، فالآيات ظاهرة ساطعة، وجحودهم بها مكابرة كما هو معلوم[5]. وهو ما يؤكد زيفهم وبطلان مزاعمهم، وتناقضهم مع أنفسهم.

(1) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (جحد): 93، لسان العرب مادة (جحد).

(2) ينظر: الكليات: 356.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 7/ 199.

(4) ينظر: بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب: 166.

(5) ينظر: المفردات في غريب القرآن: مادة (جحد): 93، والتحرير والتنوير: 7/ 199.

كملة (أفل):

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [الأنعام: 76- 77].

في لفظ (أفل): تظهر بلاغة اختيار اللفظ في سياق المناظرة. فعلى من يجادل المخالفين له في شأن العقيدة أن يحسن اختيار الألفاظ ذات المعنى الدقيق المناسب، والتي يتوصل بها إلى إفحام خصمه وإلزامه بما يريد، خاصةً أن القوم كانوا يعظمون النجوم ويعبدونها والمعروف أن عُبّاد النجوم ينتظرون ظهورها ليقوموا بمراسيم عبادتها وممارسة طقوس تعظيمها.

وأَفَلَ: أي غاب وأَفَلَت الشمسُ تأفِل وتأفُل أَفْلاً وأُفولاً غَرَبت، وإذا غابت فهي آفلة وآفل وكذلك القمر يأفِلُ إذا غاب وكذلك سائر الكواكب [1]. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام:76].

ووجه الاستدلال في الأفول على عدم استحقاق الإلهية أن الأفول مغيب وابتعاد عن الناس، وشأن الإله أن يكون دائم المراقبة لتدبير عباده، فلمّا أفل النجم كان في حالة أفوله محجوباً عن الاطلاع على الناس، وقد بُنِيَ هذا الاستدلال على ما هو شائع عند القوم من كون أفول النجم يعني غيابه عن هذا العالم، وما يغيب لا يستحق أن يُتخذ إلهاً، لأنه لا يُغني عن عباده فيما يحتاجونه حين مغيبه [2].

فكلمة الآفلين – إذن– لها دلالتها الكبيرة في سياق الحجاج، فـ"الأفول حركة، وهي من لوازم الحدوث، والأفول تغير، والإله لا يتغير، والأفول غياب وضعف، والإله حاضر أبداً لا يغيب، قوي لا يعتريه ضعف. والأفول في وقت معين ومكان معين يدل على أن النجم محكوم بنظام ثابت لا يستطيع الانفكاك منه، والمحكوم لا يكون حاكماً ولا إلهاً" [3]. وقوم إبراهيم

---

[1] ينظر: لسان العرب، مادة (أفَلَ).

[2] ينظر التحرير والتنوير: 7/320- 321 .

[3] بصائر الحق في سورة الأنعام: 81 .

يعلمون ذلك؛ فتضعف قناعتهم تجاه ما يتخذونه آلهة، وهنا تسقط دعواهم، وتقام عليهم الحُجَّة.

علاقة اللفظ بالسياق:

تظهر إيحاءات اللغة في علاقة الكلمات بالسياق، حيث تكتمل أهمية المفردة فتكتسب قوة في التعبير وتظهر دلالاتها الإيحائية، وتزداد قدرتها التأثيرية إذا دخلت في عملية تفاعل مع غيرها من الألفاظ، وطريقة التفاعل تلك تنطلق من المقام الذي يكتمل التناسب فيه باختيار الألفاظ الصالحة له ولإيقاعه [1].

وتؤكد الدراسات الألسنية الحديثة أن اللفظ لا يحمل معناه في ذاته، بل يكتسبه أساساً من خلال ما يربطه من علاقات مع بقيه الألفاظ التي ترد في نفس السياق [2].

وعلى ذلك كان عبد القاهر الجرجاني ومن سار على نهجه، فهم لا يعترفون بأدبية الدال المفرد، لأن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، أو كلم مفردة بل يكون ذلك متاحاً عند إجراء العلاقات الإبداعية في السياق [3].

فتميز المفردة، في رأيهم، يأتي من دورها في السياق، ذلك أن الناتج الدلالي، يتغير تبعاً لتغير العلاقات التركيبية، وأفضل الطرق لفهم معنى الكلمة هو "وجودها في التركيب الذي يسهم في إبراز معناها، ويجعلها متباينة عن تلك التي تقاربها أو تبدو مشابهة لها" [4].

غير أن ذلك لا ينافي أبداً كون الكلمات وما تحمله من شحنة دلالية في ذاتها – كما أشرنا إلى ذلك سابقاً – تؤثر في دلالة السياق؛ فما تحمله المفردة من معانٍ مخصوصة، يضفي دلالة خاصة للسياق، ناتجة عن دلالة المفردة [5].

---

[1] ينظر: في ماهية النص الشعري: 172، والخطاب النفسي في القرآن الكريم (دراسة دلالية أسلوبية): 122.

[2] ينظر: في ماهية النص الشعري : 73.

[3] ينظر : ينظر دلائل الإعجاز: 46، والبلاغة العربية (قراءة أخرى): 114،113.

[4] بلاغة الصورة القرآنية: 168 .

[5] ينظر: بلاغة الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 71 .

وبالعودة إلى علاقة اللفظ بالسياق، فقد كان للألفاظ في سياق سورة الأنعام أبعادها الحِجَاجِيَّة التي اكتسبتها من خلال علاقتها بالمقام الذي وردت فيه، ذلك حين تصبح هذه الألفاظ وسيلة لرصد حركة المعنى في الآية، الأمر الذي يوجه الناتج الدلالي الوجهة التي يبتغيها المتكلم. من هذه الألفاظ التي وردت في السورة متأثرة بسياقاتها المختلفة ما يأتي:

1 – الفاصلة:

- **يعلمون – يفقهون – يؤمنون** [1]:

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ ﴾. [الأنعام: 97 – 99].

ليس بخافٍ ما تتميز به جملة الختام من خصوصية دلالية لدى المتلقي؛ كونها آخر ما يقرع الآذان و يبقى في الأذهان من دلالة الآية؛ لذا لم يكن من المستغرب أن يكون التغاير في ختام الآيات المتتابعة ذا صلة وثيقة بالتغاير في مضمونها الدلالي المتجه صوب المتلقي، الأمر الذي يجعل ختام الآيات وسيلة لرصد حركة المعنى فيها.

وعلى ذلك اختلفت الفواصل في رؤوس الآيات السابقة؛ لاختلاف المخاطَب بها، فكانت على النحو الآتي:

- في الآية الأولى ذكر حركة الشمس والقمر والنجوم، والاهتداء بها، وذلك من شأن العلماء؛ فناسب ختم الآية بقوله ﴿ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾.

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1810- 1811 .

- وفي الآية الثانية ذكر إنشاء الخالق من نفس واحدة ونقلهم من صلب إلى رحم ثم إلى الدنيا ثم إلى حياة وموت، والنظر في ذلك والفكر فيه أدق، فناسب ختم الآية بقوله عز وجل: ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾. لأن الفقه: فهم الأشياء الدقيقة.
- أما الآية الثالثة ففيها ذكر نعمة الله على عباده، وسعة أرزاقه وتعدد أنواع الثمار والأقوات، ومن أقر بذلك كله كان مؤمناً؛ لذلك ناسب ختم الآية بقوله سبحانه وتعالى:﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

◆ **لعلكم تعقلون – لعلكم تذكرون – لعلكم تتقون**[1]:

قال تعالى:﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝﴾. [الأنعام: 151 - 153].

وقد تنوعت رؤوس الآيات فختمت كل آية بما يليق بسياقها من معنى، على النحو الآتي:

- اشتملت الآية الأولى على خمس وصايا كلها عظيمة ذات خطر وجلال، وهي:

1. الابتعاد عن الشرك بالله، وذلك لا يكون مع العقل الذي يدل صاحبه على توحيد الله وعظمته وقدرته.
2. ترك عقوق الوالدين، وهو أمر ينفر منه العقل، لما سبق من إحسانهم وبرهم بكل الطرق.
3. النهي عن قتل الأولاد بسبب الفقر مع وجود الرزق، وذلك أمر لا يقتضيه العقل أيضاً.

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1809- 1810، ومعجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: 515 – 516.

4. ترك الفواحش، وإتيانها أمر ينافي العقل.
5. قتل النفس في غير حق، ولا شك أن قتل النفس – بدافع الغيظ أو الغضب مثلاً– أمر ينافي العقل.

كل هذا بالإضافة إلى أن العقل أشرف ما في الإنسان؛ ناسب ختم الآية بقوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

- أما الآية الثانية لتعلقها بالحقوق المالية والمعنوية، فالوصية فيها تجري مجرى الوعظ والتذكير؛ فناسب أن تختم بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: لعلكم تذكرون في أنفسكم أنكم لن ترضوا بضياع حقوقكم لو كنتم يتامى، ولن ترضوا بشهادة الزور لو كانت عليكم، فاذكروا ذلك حتى لا تضيعوا حقوق غيركم مالية كانت أو معنوية.
- وأما الآية الثالثة فاشتملت على الوصية باتباع الصراط المستقيم، واجتناب ما ينافيه وما يؤدي إلى عذاب الله؛ فناسب ذلك أن تختم بقول الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي لعلكم تتجنبون ما يخالف الصراط المستقيم وما يؤدي إلى غضب الله وعذابه.

2- البنية الصرفية:

- **يخرج – مخرج :**

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ وَمُخْرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ﴾ [الأنعام: 95-96].

لم تأت الألفاظ في السياق على لفظ واحد، لم يقل: يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، أو مخرج الحي من الميت، ومخرج الميت من الحي. وكذا في الآية الثانية، لم يقل: فالق الإصباح، وجاعل الليل، أو فلق و جعل، بل استعمل الفعل مرة والاسم مرة، والسبب أنه لما

كان الاعتناء بشأن إخراج الحي من الميت أكثر أُتي فيه بالمضارع، ليدل على التجدد [1]، كما في قوله تعالى : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة:15].

وقال الزمخشري: عدل عن اسم الفاعل إلى المضارع في هذا الوصف وحده، وهو قوله: ﴿ يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ﴾ إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره في ذهن السامع، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن في أدائهما المضارع دون اسم الفاعل والماضي، على نحو ما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحج:63] فعدل عن الماضي إذ لم يقل: فأصبح ، المطابق لقوله:﴿ أَنْزَلَ ﴾، بل عدل إلى الفعل المضارع لاستحضار الصورة في الذهن. ومثل هذا المقصد يجيء فيما تكون العناية به أقوى، ولاشك أن إخراج الحي من الميت أشهر في القدرة من عكسه، وهو أيضاً أول الحالين، والنظر أول ما يبدأ فيه، والآخر- وهو إخراج الميت من الحي- ناشئ عنه، فكان الأول جدير بالتصدير والتأكيد في النفس [2].

وعبر في الآية الثانية باسم الفاعل عن ﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ ﴾، دلالة على الثبات وتجاوز الزمن، فهو صباح متولد كل يوم ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وعبر عن بقاء الليل ساكناً بالماضي ﴿ جَعَلَ ﴾ إذ هو بلا تجدد ولا تبدل.

◆ **تَذَكَّرُونَ- تذَّكرون:**

كما تُعَدُّ الخواص المرتبطة باللفظة وسيلة مساعدة في علمية الاختيار. فلا شك أن لأي لفظ حُسناً أو قُبحاً ذاتيين، وقد يكون لفظ أخف من غيره وأرشق، وقد يكون أجمل إيقاعاً، وأحلى جرساً في وقعه على السمع، وتأثيره في النفس [3]، ما يجعل للألفاظ في سياقاتها أبعاداً حِجَاجِيَّة وإقناعيَّة متنوعة.

---

(1) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1323.

(2) ينظر: الكشاف: 46/2 .

(3) ينظر: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): 57، وينظر أيضاً ما جاء بهذا الصدد عند عبد العزيز عتيق: علم المعاني – عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، د.ط، 1404هـ – 1984م : 16- 17.

ومن ذلك كلمتي ﴿ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: 80]، و﴿ تذَّكرون ﴾ [الأنعام: 152].

فمن الحقائق اللغوية التي لا بد من الإشارة إليها: أن "ما كان على وزن (يَتَفَعَّل) قد يؤتى به في اللغة للدلالة على التدرج، أي الحدوث شيئاً فشيئاً" [1]، ومثل هذا التدرج يقتضي استغراقاً زمنياً وإعمالاً ذهنياً أكبر، كما ورد في كلمة "تتذكرون" من قوله تعالى - في سياق قصة إبراهيم عليه السلام - : ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:80]، فالسياق في الآية الكريمة سياق مُحَاجّة وجدل، وهذا يقتضي الأخذ والرد، والنظر والتأمل وإعمال الذهن والفكر؛ مما يستغرق بعداً زمنياً في إدراك هذا الأمر الذي لا بد فيه من التدرج من أجل الوصول في النهاية إلى قناعة تحتمها الفطرة والعقل السليم. بالإضافة إلى أن بنية الكلمة توحي بهذا الامتداد الزمني.

في حين وردت كلمة " تذَّكرون " في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:152]، إن السياق في هذه الآية لا يقتضي التمديد والاستغراق في الزمن، لأن الحديث فيها عن أمور محسومة ينبغي الإسراع في تنفيذها، لذا وردت الصيغة الدالة على المبالغة في الحدث.

3- الصفات:

تمثل الصفة أداة في الفعل الحِجَاجِي وعلامة عليه؛ لكونها أكثر استعداداً من الأفعال والأسماء لوضع المراتب المتفاوتة، كما أن لها من المرونة ما يجعل التقويم بها على عكس غيرها من الأفعال والأسماء؛ فلا يقتصر المُرسِل في استخدامها على توظيف معناها المعجمي أو تأويله، بل يبتغي بها التقويم والتصنيف، فتأتي إما للتوكيد ورفع الإبهام، أو للتوضيح وزيادة

[1] بلاغة الكلمة في القرآن الكريم – د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمار، عمّان – الأردن، ط1، 1422هـ - 2001م: 41

البيان، وقد تأتي للمدح أو القدح، كما تُشَكِّل في مستوى المادة اللغوية الواحدة سُلَّماً تقويمياً ذات درجات متفاوتة في الاتصاف بالصفة من قبيل: ظالم/ظلوم / أظلم، فتجلو بذلك عن موقف المرسل ووجهة نظره في الموضوع[1]، لذا فقد كان للصفات في السورة فاعليه حِجَاجِيَّة كبيرة.

فالحديث في السورة (مثلاً): عن المشركين من كفار مكة، وغيرهم من أهل الكتاب وذكرهم بصفاتهم يقتضي من جانبٍ: ثبوت هذه الصفة فيهم والتأكيد عليها، كون الصفات تُقَدَّم على أنها معلومة مسلم بها غير مجادل في شأنها، لارتباطها الوثيق بالموصوف. ومن ثَـمَّ فما تحمله الصفة في ذاتها من شحنة دلالية سلبية أو إيجابية يجعلها ذات أبعاد حجاجية أقوى تأثيراً في المتلقي.

ومن جانب آخر: فالحديث عن المشركين بصفاتهم: (الظالمين – وهي أكثر الصفات اطرداً في السورة– المجرمين، الجاهلين، الضالين، المكذبين) يقتضي أن الشرك ظلم قال تعالى: ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:13]، وجرم، وجهل، وضلال قد أوقعوا أنفسهم فيه، أمّا اتصافهم بصفة الشرك وحدها فلا يؤذيهم في شيء[2]، بل على العكس من ذلك، هم يعترفون بشركهم وعبادتهم لأكثر من إله، قال تعالى على لسان المشركين : ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص:5]، وهذا يعنى أن صفة الشرك وحدها لا تؤدي الوظيفة الحجاجية المبتغاة في السياق.

ومن هنا كان لهذه الصفات دور حِجَاجِي كبير كونها تكشف عن حقيقة الشرك الذي لا يُعَدُّ من وجهة نظر المشركين سوى فعل إيجابي قد ألفوه واعتادوا عليه.

كما أن الحديث عن الله – عز وجل– بأسمائه الحسنى وصفاته العلى يقتضي أمرين اثنين:

---

[1] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1658، 1659، و الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 146، واستراتيجيات الخطاب: 487، 488.

[2] ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 199 .

أولهما: أن الصفة تقتضي، حتماً، وجود موصوف تنطبق عليه هذه الصفات: (السميع – العليم – الحكيم – الخبير – الغفور – الرحيم – اللطيف – الخالق – القادر – القاهر – خير الفاصلين – أسرع الحاسبين – سريع العقاب – ذو الرحمة ..) وهي صفات تظهر في مخلوقاته – عز وجل – وفي تدبيره لأمور كونه، ولا يمكن أن ينكرها إلا جاحد. وفيها حُجَّة على من ينكر وجود الله تعالى من الملحدين وغيرهم.

ثانيهما: أن ما تحمله هذه الصفات من شحنة دلالية إيجابية، وكون الصفات تُقَدَّم على أنها معلومة مسلم بها غير مجادل في شأنها، فقد كان لها دور في إبراز وإظهار طبيعة العلاقة الكائنة بين المخاطِب والمخاطَب، بين الله عز وجل ومتلقي القرآن الكريم، من خلال ما تبرزه هذه الصفات من مظاهر القدرة والكمال والعظمة والجلال لله عز وجل، في مقابل العجز والضعف والذل للمخلوق الضعيف الخاضع لقدرة الله والواقع تحت رحمته.

ثانياً : البعد التداولي للمفردة:

يهدف الخطاب دائماً إلى التأثير في المتلقين الذين يوجه إليهم، وهو باستعماله الكلمة ذات الخصائص التداولية، والدلالات المضافة من الاستعمال، يصبح ذا فاعلية أكبر، وتأثير أقوى في المتلقين؛ فالمفردة إذ تدخل التركيب، تدخله وهي محملة بعداً دلالياً اكتسبته من تجربتها القولية الطويلة بدخولها في سياقات استعمالات مختلفة، لتبقى اللفظة في عالم خطاب مستعمليها محملة بدلالات استأثرت بها نتيجة استعمالاتها تلك، في الوقت الذي قد تُنْسَى فيه الدلالات اللغوية (المعجمية) للكمة.

وهذا ما يفسر عنصر الاختيار المقصود والمُدْرَك لألفاظ محددة في سياقات معينة، لأن الاتصال لا يهدف إلى إنتاج التتابعات اللفظية، بل يهدف إلى نقل معلومة محددة يرمي بها

المخاطِب إلى إثارة المخاطَب من قريب أو بعيد، وإيصال فكرة معينة، ينطلق فيها من ثقافة المخاطَب ومعارفه، فيمارس بذلك سلطة عليه ويوجهه الوجهة التي ابتغاها المخاطِب[1].

ولأن القرآن الكريم قد نزل بلسان العرب، وسار على نهجهم في التخاطب، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم:4]، وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت:3] ، فما من شك أن كل كلمة في الخطاب القرآني قد استعملت عند العرب، قبل نزول القرآن، وجرت على ألسنتهم، وتداولتْها خطاباتُهم؛ فجاءت أغلب الكلمات مشحونة بتاريخهم الحضاري والاجتماعي، ومحملة بدلالات خاصة تعكس ذلك البعد التداولي.

لذا فإن بحثنا في هذه الجزئية سيكون استقصاءً للكلمات في السورة، بحثاً عن بعدها الحِجَاجِي الذي اكتسبته في سياق النص، والمتأتي عن قيمتها التداولية الناتجة عن استعمال العرب لها؛ فارتباط المفردة في أذهان متلقيها بواقع معين، ودلالة محددة، كونها تحيل على واقع اجتماعي، أو اقتصادي، أو ثقافي أو مادي متداول عندهم، يجعل هذه المفردة أكثر إدراكاً وفهماً وقبولاً لديهم. ومن هذه الكلمات التي اكتسبت بعداً تداولياً في استعمالها وكان لها دور تأثيري في المتلقي ما يأتي:

كلمة (حَرَجًا):

قال تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:125] .

---

[1] ينظر: نحو نظرية أسلوبية لسانية – فيلي ساندريس، ترجمة: د/ خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط1، 1424هـ – 2003م :131، و الاتصال والتأثير – موسى ربابعة، علامات، الجزء (27)، المجلد (7)، ذو القعدة 1418هـ – مارس 1998م: 33.

و (الحَرَجَة) عند العرب هي الشجرة الملتف بها أشجار، لا يدخل فيما بينها شيء لشدة التفافها[1]، وقد روي أن عمر بن الخطاب ﷺ قرأ هذه الآية ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجاً﴾ [الأنعام:125] ، وقرأ بعض من عنده من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿ضَيِّقًا حَرِجاً﴾، فقال عمر: أبغوني رجلاً من كنانة، واجعلوه راعياً، وليكن مُدْلجيّاً. فأتوه به، فقال له عمر: يا فتى، ما الحرجة؟ قال: (الحَرَجَة) فينا، الشجرة تكون بين الأشجار التي لا تصل إليها راعية ولا وحشية ولا شيء. قال عمر: كذلك قلب المنافق، لا يصل إليه شيء من خير[2].

فقد جاء تصوير الصدر الذي لا تصل إليه الموعظة، ولا يدخلهُ نور الإيمان لِرَيْن الشرك عليه، بالحَرَج، فهو في أشد الضيق لا يكاد ينفذ إليه شيء من شدة ضيقه. والمراد به المبالغة في ضيق الصدر، وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبة كئود، كأنه يصعد في الهواء[3]، والصعود في السماء مثلٌ فيما هو خارج عن دائرة الاستطاعة، وفيه تنبيه على أن الإيمان يمتنع منه كما يمتنع منه الصعود[4] فيضيق عليه الإسلام، مع أن الإسلام واسع[5]، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج:78] .

كلمة (النار):

والنار في حقيقتها عالم مجهول بالنسبة للمتلقين، وفكرة يصعب عليهم تمثلها في سهولة ويُسر، قال تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآَيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:27].

(1) ينظر : لسان العرب ، مادة (حَرَجَ).

(2) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 104/12، ومعالم التنزيل: 186/3، والجواهر الحسان: 515/2، و روح المعاني:22/8.

(3) وفي هذه الآية إعجاز علمي، (حيث أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أنه كلما ارتفع الإنسان أخذ التنفس يضعف، ويضيق لقلة الأكسجين في الهواء، ذلك لأن الطبقات العليا من الهواء، أقل كثافة من الطبقات التي هي أدنى منها، لذا نرى الطائرات الحديثة الآن مكيفة ومجهزة بأحدث الأجهزة وقاية للركاب فيها).

(4) ينظر : الجواهر الحسان: 516/2، وروح المعاني: 22/8- 23 .

(5) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن: 12/ 104- 105 .

وقال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:128].

فاستحضار المتلقي للنار المعروفة المحملة بدلالات سلبية (من الناحية المادية لها)، يُمَهِّد ذهنه للانتقال إلى المعنى الذي يسعى النص القرآني إلى إيصاله، فكلما جاء ذكر النار عند المتلقين، تبادر إلى أذهانهم صورة النار وما ارتبط بها من صفات الإتلاف والتدمير والحرارة الشديدة والعذاب الأليم، والشقاء المتواصل، فأصبح مجرد ذكر النار يحيل على كل ما ارتبط بها من دلالات سلبية، يشير إليها السياق، هي في المقابل تنافي أي دلالات إيجابية عالقة في أذهانهم.

والقرآن بهذه الطريقة " يبني المجهول على المعلوم، وغير المتداول على المتداول، ويصوغ جديد معانيه صوغاً قديماً " [1]، وبذلك تتحول الكلمة ذات المعنى التداولي إلى طاقة حِجَاجِيَّة.

كلمة (يصدفون):

وهي كلمة لم ترد إلا في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46].

وقال عز من قائل: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157].

ورد في غريب القرآن للأصفهاني: صَدَفَ عنه: أعرض إعراضاً شديداً. ويجري مجرى الصدف أي الميل في أرجل البعير، وتَصَدَّفَ الجبل أي جانبه [2].

---

[1] الحجاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 162 .

[2] المفردات في غريب القرآن،مادة (صدف): 287 .

وفي لسان العرب[1]: الصدوف: الميل عن الشيء، وصَدَفَ عني أي أعرض، والصدف: عوج في اليدين وقيل ميل في الحافر إلى الجانب الوحشي، وقيل هو أن يميل البعير من اليد أو الرجل إلى الجانب الوحشي، وقيل الصدف ميل في القدم، وقيل هو إقبال إحداهما على الأخرى. وقيل الصدف هو: تداني العجابتين وتباعد الحافرين في التواء الرسغين وهو من عيوب الخيل التي تكون خلقة. والصوادف: الإبل التي تقف على الحوض عند أعجازها تنتظر انصراف الشاربة لتدخل هي.

فكلمة (صدف) ومشتقاتها المتداولة في عالم الخطاب عند المتلقين والمرتبطة بحياتهم والمتعلقة بالبعير تجعل هذه الكلمة محملة بدلالات هي في الغالب دلالات سلبية. ووصْفُ المعرضين من الكفار بهذه الصفة، يقرب المعنى المراد إلى أذهانهم بشكل أكبر. فهو بهذه الطريقة يذكرهم بمشهد البعير الصدوف فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف، فمن يعرض عن آيات الله ويجحدها مع وضوحها وقوة برهانها، ليس إلا كالأنعام المصابة بمرض قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179].

كلمة قرطاس:

وهي من الكلمات التي اختصت بسورة الأنعام، وجمعها (قراطيس)، قال تعالى:﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:7].

وقال عز وجل:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام:91].

[1] ينظر: لسان العرب: مادة (صدف).

وقد وردت كلمة قراطيس هنا في سياق مخاطبة اليهود، وجاء استخدام لفظ (قراطيس) لكونه اللفظ المتداول والمعروف عند أغلب اليهود.

والقراطيس جمع قرطاس، وهو ما يكتب فيه من ورق ونحوه، والقِرْطاس يُتَّخذ من بَرْدِيّ يكون بمصر فهو ضَرْب من برُود مصر[1]، ومصر هي موطن اليهود الأول موطن موسى عليه السلام وشيعته. فهي كلمة متداولة في واقع اليهود وأكثر اتصالاً بثقافتهم.

وهذا يعني أن إيرادها في سياق مخاطبة اليهود، مراعاة لثقافتهم، يجعل دلالتها أقوى من مجرد ذكر كلمة مرادفة، كونها محملة بدلالات معينة في أذهانهم.

من ذلك أيضاً، استعمال الألفاظ المرتبطة بحياة وواقع المتلقين الأُوَل، والمتعلقة بالزراعة والتجارة والرعي، وهي ألفاظ جاءت على سبيل الاستعارة، ومثلت عنصراً أساسياً من العناصر المُشَكِّلَة لعالم خطاب المتلقين[2].

ولا يقتصر المخاطِب في حِجَاجِه على توظيف المفردات كمادة لغوية، بل يتجاوز ذلك إلى استعمال التراكيب المختلفة بمعانيها وخصائصها في السياقات الممكنة، مراعاة لأحوال المخاطبين المختلفة، بالاعتماد على كفاءتهم التداولية، وهذا هو موضوع المبحث الثاني من هذا الفصل.

(1) ينظر: لسان العرب، مادة (قرطس)، ومعجم ألفاظ القرآن – مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ط2، 1390هـ - 1970م: 389/2.

(2) سيأتي تفصيل الحديث عنها في الفصل الثالث، المبحث الأول، من هذا البحث.

المبحث الثاني

بلاغة التركيب وأبعاده الحِجَاجِيَّة.

إن التعامل مع أي نص لغوي يقتضي، حتماً، الربط بين شكله ومعناه، بين قصد المرسل الذي يتوخى التعبير عنه في خطابه، وشكل اللغة الدال عليه. ثم بين الناتج الدلالي من ناحية، وتأثيراته على المتلقي من ناحية أخرى، إذا أخذنا بعين الاعتبار البحث التداولي الذي يدرس المنجز اللغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، لأن اللغة لا تؤدي وظائفها إلا فيه، فليست وظائفاً مجردة، وعلى هذا فإن الناتج الدلالي كقيمة للملفوظ لا تتحكم فيه اللغة بقدر ما يتحكم فيه مستعملوها[1].

فلا يجوز إغفال دور العناصر غير اللغوية (حال المخاطِب وحال المخاطَب والسياق والقرائن) في تفسير الأبنية اللغوية عموماً، لأن البناء اللغوي لم يوضع إلَّا لأداء معنى وتوصيل فكرة معينة، وهذا يعني أن هذه الأبنية في بنائها وتركيبها وضعت لتؤدي فكرة محددة، وتوصل معنى محدد، هو الذي يقصده المتكلم، والذي يجب أن يتوصل إليه المخاطب[2].

لذا فإن دراستنا في هذا المبحث تتناول التركيب اللغوي في سورة الأنعام وترصد علاقاته المختلفة، لا من منظور نحوي صرف، بل من منظور بلاغي يراعي بلاغة النظم وما يطرأ عليها من انزياحات وعدول، ثم من منظور تداولي باعتبار التأثيرات التي يحدثها ببلاغته وقدرته على الإيحاء بما يضمن إقناع المتلقي.

فالحِجَاج في ارتباطه بالمتلقي يجعل وظيفة الحِجَاج ترتد إلى طرح الحُجَج التي تضمن النفاذية للخطاب اللغوي، ومن ثَمَّ حصول الاقتناع الفعلي بالقضية المطروحة. وهذا يعني ضرورة توظيف الآليات اللغوية التي تجتاز بالمتلقي الاعتقاد الأولي وتبني لديه مواقف مغايرة، مع الأخذ بعين الاعتبار ما تقتضيه نوعية الخطاب من جهة، وطبيعة المتلقي (النفسية والاجتماعية والثقافية) من جهة أخرى.

كما أن مفاهيم القول بالنسبة للمتلقي تتعدد، وما يمكن أن يحد من تعدد مفاهيم ذلك القول هو مقام القول، فالصياغة اللغوية ترتبط بالسياقات التي ترد فيها، من خلال ذكر عناصر

---

(1) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 22- 23، 114.

(2) ينظر: دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة: 248.

معينة أو حذفها، يكون لها أهمية بالغة في الإبلاغ والاتصال، بالإضافة إلى أن طبيعة التأليف إيجازاً أو إطناباً، تجريداً أو تأكيداً تتأثر بحسب المقام الذي ترد فيه[1].

كما أن مجمل كفاءات المتلقي المعرفية والثقافية والنفسية والعقيدية التي يستخدمها تساعد في فهم وإدراك مضمون الخطاب، غير أن مضمون الخطاب قد يتضمن أيضاً عناصر لغوية تساعد في فهمه، بل وتقتضي توجيهه الوجهة التي يبتغيها المتكلم.

واللغة العربية بما تشتمله من أساليب لغوية وتداولية تؤدي دوراً وظيفياً متعارفاً عليه، يساعد استعمالها وتسخيرها في الخطاب في توجيهه وجه دلالية معينة تتناسب ونوعية المخاطب، من هذه الأساليب : الاستفهام ، الشرط، التوكيد بـ (أن - إن - اللام - القصر - التكرار). وهي الأساليب التي سيتم تناولها في هذا المبحث؛ كونها أبرز الأساليب اللغوية التي تدعم بنية الحِجَاج في السورة.

أولاً / أسلوب الاستفهام:

والاستفهام بنية طلبية، تعني طلب المعرفة والفهم حول شيء معين[2]، تبنى على طرح القضية المخصوصة ثم تُقَدِّم ما يشرحها ويعللها.

يقول ابن منظور: أفهمه الأمر وفَهَّمه إياه: جعله يفهمه، واستفهَمَهُ سألهُ أن يُفَهِّمَهُ، وقد استفهمني فأفهَمْتُهُ وفَهَّمْتُهُ تَفْهِيماً[3].

وقال ابن يعيش: الاستفهام والاستخبار بمعنىً واحد، فالاستفهام مصدر استفهمت، أي طلبتُ الفهم، وهذه (السين) تفيد الطلب، وكذلك الاستعلام والاستخبار مصدر استعلمت واستخبرت[4].

(1) ينظر: البيان الحِجَاجي في إعجاز القرآن الكريم : 38 .

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 326/2.

(3) ينظر: لسان العرب : مادة (فهم).

(4) ينظر: شرح المفصل – الشيخ موفق الدين يعيش ابن علي بن يعيش النحوي (ت: 643 هـ)، عالم الكتب الحديث، بيروت، د.ط، د.ت: 150/8.

ولا يمثل الاستفهام في هذه البنية القوة الإنجازية الوحيدة التي يريد المخاطِب أن ينقلها إلى المخاطَب، بل قد يصاحبها أفعال تعبيرية أخرى[1]، فقد يخرج الاستفهام عن معناه الحقيقي إلى معانٍ ودلالات أخرى يقتضيها ويحددها السياق، ويسمى هذا بالاستفهام غير الحقيقي، أو ما يمكن تسميته بالاستفهام البلاغي.

ويأتي على ضربين كما يقسمه الزركشي: [2]

1- نفي/ ويطلب به إنكار المخاطَب.

2- إثبات / ويطلب به إقرار المخاطَب.

وقد أشار العلماء إلى هذا التقسيم ، قال أبو حيان: "الاستفهام على ضروب: طلب المعرفة وهو الاستفهام الذي لا يشوبه شيء، واستفهام على طريق التسوية، نحو: سواء أقمتَ أم قعدتَ، واستفهام على سبيل التقرير، نحو ألم أحسن إليك، ولا يكون إلا بالهمزة ، واستفهام على سبيل الإنكار " [3].

ويؤدي الاستفهام من خلال خروجه إلى أغراض بلاغية متعددة، وظيفةً تداولية تسهل عملية إقناع المتلقي، إذ يُعَدّ الاستفهام ذا علاقة وثيقة بالرغبة في المعرفة التي تزيل مجهولاً؛ ذلك أن الاستفهام هو " طلب المتكلم من مخاطبه أن يحصل في ذهنه ما لم يكن حاصلاً عنده مما سأله عنه "[4]، ويصاحب ذلك نشاط عقلي تستثيره هذه الرغبة، وهذا يعنى أن للاستفهام قدرة ذاتية على جذب انتباه المتلقي[5]. ويتضح هذا فيما يقوم به الاستفهام من مضاعفة قدرة

---

(1) ينظر : استراتيجيات الخطاب: 149.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 328/2 .

(3) ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان محمد بن يوسف، تحقيق: مصطفى النحاس، ط1، دار المحقق، القاهرة، 1984م: 327.

(4) الأشباه والنظائر في النحو – جلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا – بيروت، ط1، 1420هـ - 9999م: 67/4.

(5) ينظر: الاستفهام والتلقي ونشاط اللغة – طارق سعد شلبي، جذور، ج (13)، مج (7)، ربيع الآخر – يونيه 2003م: 364.

الخطاب على إحداث النشاط الذهني، وهو ما يولد حيوية تكتنف الخطاب، حين يكون مصحوباً بحَضٍّ على التأمل والتفكير.

ويظهر ذلك في كونه يترك مساحة واسعة للمتلقي في التأمل والتفكير والبحث عن الإجابة، ليربطها بما لديه من معارف وما رسخ في ذهنه من مفاهيم، ثم مقارنتها معها، إضافة إلى أنه يشرك المخاطِب في علمية الاستدلال.

وهكذا تتجلى حِجَاجِيَّة الاستفهام بالقصد المضمر فيه، وفق ما يقتضيه السياق، فيؤدي بالمرسل إلى التنازل عن معتقداته السابقة شيئاً فشيئاً، خاصة أن هذه الأسئلة ليست استفهاماً عن مجهول[1]، بل هي إقرار يوجه المخاطَب إلى تثبيت ما استقر في ذهنه.

كما أنه يفرض على المخاطب إجابة محددة يمليها المقتضى الناشئ عن ذلك الاستفهام، الأمر الذي يوجه الخطاب الوجهة التي يبتغيها المتكلم[2]. وهذا هو محور الخطاب الحِجَاجي وجوهرُهُ.

ولأهمية هذا الأسلوب في كونه أحد أساليب الحِجَاج – كما سنرى – فقد ورد في سورة الأنعام ما يربو على (33) مرة، خرج كله إلى أغراض بلاغية يقتضيها حال المخاطبين، وسياق الخطاب.

من هذه الأغراض البلاغية التي خرج إليها الاستفهام في السورة ما يأتي:

1- **النفي:**

وفيه يكون العدول عن النفي إلى الاستفهام، وتتمثل أهميته الحِجَاجِيَّة في أن العدول إليه عن أسلوب النفي، "أن الاستفهام في أصل وضعه يتطلب جواباً يحتاج إلى تفكير، يقع به هذا الجواب في موضعه، ولما كان المسؤول يجيب بعد تفكير وروية عن هذه الأسئلة بالنفي، كان في توجيه السؤال إليه حملاً له على الإقرار بهذا النفي، وهو أفضل من النفي ابتداءً "[3].

---

(1) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 485.

(2) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 427 .

(3) من بلاغة القرآن – أحمد أحمد بدوي، دار النهضة مصر للطباعة و النشر، د.ط، 1950م : 163 .

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:21].
- ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [الأنعام:93] .
- ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:144] .

فالعدول عن النفي إلى الاستفهام في هذه الأمثلة، يحمل الخصم على الإقرار بهذا النفي، أي أنه يدفعه إلى الإقرار بما يتضمنه تركيب الاستفهام.

كما تجدر الإشارة إلى أن مجرد النفي يزيد من الخصومة الواقعة أساساً، ذلك أن في النفي دحضاً للرأي المخالف والرد عليه. والقرآن الكريم، عموماً، لم يأت لدعم الخصومات، وتضخيم الخلافات، بل جاء لاحتواء المخالفين وتغيير مواقفهم وكسب تأييدهم والسعي إلى إقناعهم.

وهكذا فإن أسلوب العدول عن النفي إلى الاستفهام إيقاع بالمخاطب، واستدراج له نحو الاقتناع والإقرار بما جاء في مضمون الاستفهام، خاصة، أن هذه الآيات، كما يظهر من السياق، جاءت لمخاطبة المكذبين على الله، وهي أعلى درجات الظلم. وفي هذا الإقرار إلزاماً لهم بقبول الحُجَّة من مجرد النفي ورد الرأي المخالف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47] ، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50] .

نجد أن القضية في هذه الآيات من الأمور المسلم بها عند المخاطبين، يعترفون بها، ويعتقدون بحقيقتها، إلا أن الخطاب هنا جاء بصيغة الاستفهام عنها، لتكون أكثر إلزاماً لهم عند الإقرار بها، وفي هذا زيادة لدور الخطاب الحِجَاجِي الموجه لهم؛ كون "أبلغ الحُجَج

وأشدها إلزاماً للخصم وأكثرها إفحاماً له، ما نطق بها هو نفسه وساهم في صنعها"[1]، وهذا ما يحدث من خلال إجابته عن الاستفهام الموجه إليه.

ففي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47]، تتجلى القضية المحورية (هنا) في (حقيقة وقوع العذاب الذي ينكرونه ولا يصادقون عليه)، وفي إقرارهم بهلاك القوم الظالمين تمهيداً لقبول مضمون الآية اللاحقة، والاعتراف بحقيقة وقوع العذاب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام:49].

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50] .

فكما لا يستوي الأعمى والبصير (وهو أمر مسلم به لا ينكره أحد)، أيضاً لا يستوي من آمن بما جاء في هذا الوحي، ومن كفر به.

وفيه رد على الدعوى المقدمة منهم (بطرد الضعفاء من الناس كشرط لدخولهم في الإيمان)[2]، فهؤلاء الضعفاء بدخولهم في الدين وامتثالهم لأوامره قد حازوا الدرجة العليا من الله – عزَّ وجل؛ ذلك أن الفضل عند الله – عزَّ وجل – لمن آمن وأصلح، وليس التفاضل بين الناس إلا بالتقوى. فبعد أن بَيَّنَتْ الآيات مكانة الكافرين، وعرَّفَتْهُم قدرهم، وكشفت حقيقتهم في الآيات (39–49)، جاءت الآيات التالية لها لتبين مكانة المؤمنين وتبشرهم وترشدهم، ليظهر بذلك الفرق بين المؤمن والكافر – الأعمى والبصير – فلا يمكن أن يستوي الفريقان، وهذا هو جوهر القضية ومحور الآيات.

---

(1) الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 429.

(2) قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:52].

2- **الإثبات والتقرير:**

ومنه ما جاء في قوله تعالى :

- ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام:6] .
- ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام:22] .
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام:40] .
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام:46] .
- ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:63] .
- ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنعام:91].
- ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:148] .

حيث جاء الاستفهام في الآيات السابقة للتقرير والإثبات. والتقرير كما يعرفه الزركشي هو: "حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده" [1]، وفيه تثبيت للأمر وتحقيقه، حين ينتزع إقرار المخاطَب واعترافه، فيكون ذلك أدل على الإلزام.

---

[1] البرهان في علوم القرآن : 331/2، وينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1711 .

وهذا يعني أن القضية موضوع الاستفهام، من معتقدات المخاطبين أساساً، ومما استقر في أذهانهم واستيقنتها أنفسهم، وإنها جاء الحديث عنها بصيغة الاستفهام ليقروا بها من تلقاء أنفسهم، حتى يكون ذلك رافداً حِجَاجِيّاً في سلم الإقناع بما جاء في مضمون الآيات. فجميع الإجابات تؤكد وحدانية الله – عزَّ وجل – وتعود على المخاطبين بخيبة الأمل، حيث تكشف ضعف موقفهم، وضآلة حُجَّتهم.

رقم الآية	الاستفهام في الآية	الغرض منه
6	﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.	إقرار المخاطبين بما رأوا من هلاك الأمم السابقة ثم النظر والاعتبار والاستدلال. وهذا يعني حقيقة وقوع العذاب على من كذب وأنكر.
22	﴿أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾.	الإقرار بعدم جدوى الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله ومن ثم وجوب العبادة لله عز وجل وحده.
40	﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.	إقرار المخاطَب بدعوة الله وحده.
46	﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾.	إقرار المخاطَب بقدرة الله وحده على الأخذ والعطاء.
63	﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.	الإقرار بانحطاط شركائهم عن رتبة الإلهية[1].
91	﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾	الغرض هنا التقرير على سبيل **الإلزام**، ذلك أن اليهود ومرادهم من ذلك الطعن في رسالته ﷺ على سبيل المبالغة فقيل لهم على سبيل الإلزام ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾ فإن المراد أنه تعالى قد أنزل التوراة على موسى عليه السلام ولا سبيل لكم إلى إنكار ذلك فلِمَ لا تجوزون إنزال القرآن على محمد

[1] ينظر: روح المعاني: 179/7.

		ﷺ . وبهذا ينحل استشكال ما عليه الجمهور بأن اليهود يقولون إن التوراة كتاب الله تعالى أنزله على موسى عليه السلام فكيف يقولون: ﴿ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ ﴾، وحاصل ذلك أنهم أبرزوا إنزال القرآن على محمد ﷺ في صورة الممتنعات حتى بالغوا في إنكاره فألزموا بتجويزه[1]. كما أن فيها **تذكير** بأمر لا يستطيعون جحده لتواتره في بلاد العرب، وهو رسالة موسى ومجيئه بالتّوراة وهي تدرس بين اليهود في البلد المجاور مكّة. وإذا كان ذلك لا يسع إنكاره كما اقتضاه الجواب آخِرَ الآية بقوله: ﴿ **قل الله** ﴾ فقد ثبت أنّ الله أنزل على أحدٍ من البشر كتاباً فانتقض قولهم: ﴿ **ما أنزل الله على بشر من شيء** ﴾ على حسب قاعدة نقض السالبة الكليّة بموجبة جزئيّة . وافتتح بالأمر بالقول للاهتمام بهذا الإفحام[2].
148	﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾.	الإقرار ببطلان ما يحتجون به من غير علم تبريراً لما هم عليه من شرك وضلال، ذلك أن من عَلَّق وجود القبائح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته، فقد كذب التكذيب كله، وهو تكذيب لله وكتبه ورسله، ونبذ أدلة العقل والسمع وراء ظهره. لذا جاء **الاستفهام تقريراً على سبيل التهكم والسخرية**، لأن مثل هذا القول محال أن يكون له حجة، قال تعالى: ﴿ **إن تتبعون إلا الظن** ﴾. ثم قال تعالى: ﴿ **كذلك كذب الذين من قبلهم** ﴾، ﴿ **قُلْ فَلِلَّهِ الحجة البالغة** ﴾ يعني فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أنتم عليه بمشيئة الله فللّهِ الحجة البالغة عليكم، ﴿ **فَلَوْ شَاء لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ منكم ومن مخالفيكم في الدين، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضي أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته، فتوالوهم ولا تعادوهم، وتوافقوهم ولا تخالفوهم، لأنّ المشيئة

(1) ينظر: روح المعاني: 219/7.

(2) ينظر: التحرير والتنوير: 363/7 .

		تجمع بين ما أنتم عليه وبين ما هم عليه[1]. فيقال لهم: لِمَ تقولون عن مخالفيكم إنهم ضالُّون، وإنما هم على المشيئة أيضاً؟ فلا حُجَّة لهم، لأنهم تعلَّقوا بالمشيئة، وتركوا الأمر؛ ومشيئة الله تعم جميع الكائنات، وأمره لا يعمّ مراداته، فعلى العبد اتباع الأمر، وليس له أن يتعلَّل بالمشيئة بعد ورود الأمر[2].

ومثل هذا الاستفهام مبني على النحو الآتي:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

– أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟

– لا، لا ندعو إلا الله .

– والمعنى الضمني: فَلِـمَ تعبدون غيره، أي الله أحق بالعبادة.

وفي هذا النوع من الاستفهام، كما يقول الدكتور عودة الله[3]، ما يجعل معنى الجواب يتسرب من عقول المخاطَبين إلى اللاشعور في أنفسهم، فيؤدي ببعضِهم إلى الإيمان بالله، ويؤدي ببعضِهم الآخر إلى القلق وتأنيب الضمير، وكفى به عقاباً دنيوياً لهؤلاء الجاحدين. ذلك أن للضمير أو اللاشعور أثر حاسم في حياة الفرد، حيث يتسلل ما ترسب فيه إلى الشعور (العقل) فيكون له تأثير كبير في توجيه سلوك الإنسان، بل في توجيه مبادئه وقيمه وعقيدته.

وقد يرد أسلوب التقرير مُفَصَّلاً، مُوَضِّحاً إجابة المخاطَب، فلا يأتي الجواب ضمنياً. وأغلب ما يكون هذا في سياق الحوار.

---

(1) ينظر: الكشاف: 73/2.

(2) ينظر: زاد المسير: 145/3.

(3) ينظر: الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن – د/ عودة الله منيع القيسي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، ط1، 1422هـ – 2002م: 37.

قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:130].

والهمزة في ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ للاستفهام التقريري، وإنما جُعِلَ السؤال عن نفي إتيان الرسل إليهم لأن المُقَرَّر إذا كان حاله في ملابسة المُقَرَّر عليه حال من يظن به أن يجيب بالنفي، يؤتى بتقريره داخلاً على نفي الأمر المراد إقراره بإثباته. حتى إذا أقر بإثباته كان إقراره أقطع لعذره في المؤاخذة به [1].

ومثله قوله عزَّ وجل: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:30].

3- الاستفهام الاستنكاري:

وفيه يخرج الاستفهام عن إطاره الوظيفي إلى إطار وظيفي آخر كالتعجب والاستهزاء، والنهي وغيره. وفي هذا النوع من الاستفهام لا يتم فيه تقرير المخاطَب، بل يُنْكَر عليه ويُسْتَهْجَن ما حدث في الماضي، أو ما يمكن أن يَحْدُث في المستقبل، إذ يستجيب من خلال هذا الاستفهام للجواب، إلا أن إنكاريته تخيب أفق انتظار المتلقي، فلا يأتي بالجواب المحتمل في ذهنه ولكن باتخاذ الموقف المناسب، وهو بهذا ينبه المخاطَب حتى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدع ويعيا بالجواب، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل ما لا يقدر أو لأنه هَمَّ بفعل ما لا يُسْتَصْوَب فعله[2]. كما أن فيه استهزاء بعقول المنكرين وضيق تفكيرهم عندما ينكرون أموراً واضحة جلية. وهو إذ يضعف موقفهم، يقوي بالمقابل موقف القرآن الكريم فيما يعرضه من قضايا وما يطرحه من حُجَج.

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 75/8 .

(2) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) – د/ فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، ط9، 1424هـ – 2004م : 200، والاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي: 203، والتلقي والتواصل الأدبي : 198.

من ذلك ما ورد في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾ [الأنعام:71] .
- ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:74] .
- ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:80] .
- ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:81] .
- ﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:101] .
- ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام:114] .
- ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام:164].
- ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام:14].

رقم الآية	الاستفهام في الآية	الغرض منه
14	﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾.	التعجب والاستهزاء [1]
71	﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ ﴾.	التنبيه [2]، وقيل الغرض منه التأييس [1] .

[1] ينظر: التحرير والتنوير: 156/7.

[2] قال أبو جعفر: وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه ﷺ على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان. يقول له تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله

74	﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾.	النهي.
80	﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾.	التأييس[2]
81	﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.	التعجب.
101	﴿ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.	الاستبعاد.
114	﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ﴾.	التعجب والاستهزاء[3].
164	﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾.	التعجب والاستهزاء[4].

= حجرًا أو خشبًا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره! إنكار [ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 450].كما أن فيه استنكار لهذا السخف الذي يرفضه العقل البشري ذاته متى عرض له بعيداً عن الموروثات الراسبة، وبعيداً كذلك عن العرف السائد في البيئة. [ينظر: في ظلال القرآن: 2/ 1131].

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 300/7.

(2) فالاستفهام إنكار عليهم وتأييس من رجوعه إلى معتقدهم. [ينظر: التحرير والتنوير: 7 /327].

(3) والهمزة للاستفهام الإنكاري: أي إن ظننتم ذلك فقد ظننتم مُنكراً، ومحلّ الإنكار هو اتّخاذ غير الله وليّاً، وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم. [ينظر التحرير والتنوير: 14/8].

(4) والاستفهام إنكار عليهم لأنّهم يرغبون أن يعترف رسول الله ﷺ بربوبية أصنامهم ، وقد حاولوا منه ذلك غير مرّة سواء كانوا حاولوا ذلك منه بقرب نزول هذه الآية أم لم يحاولوه ، فهم دائمون على الرّغبة في موافقتهم على دينهم، حكى ابن عطيّة عن النقّاش أنّ الكفّار قالوا للنّبي ﷺ «ارجعْ إلى ديننا واعبُدْ آلهتنا ونحن نتكفّل لك بكلّ تباعة تتوقّعها في دنياك وآخرتك»، وأنّ هذه الآية نزلت في ذلك . و محلّ الإنكار هو أن يكون غير الله يُبتغى له ربّاً، ولأنّ ذلك هو المقصود من الجواب إذا صحّ أنّ المشركين دعوا النّبي ﷺ لعبادة آلهتهم. [ينظر: التحرير والتنوير: 206/8].

ثانياً / أسلوب الشرط:

والشرط في اللغة كما يعرفه ابن منظور هو: " إلزام الشيء والتزامه"[1]. وقال صاحب التعريفات: الشرط "تعليق شيء بشيء، بحيث إذا وجِدَ الأول، وجِدَ الثاني "[2].

ويقوم الشرط على ركنين أساسيين هما: الشرط وجوابه. ويُعَدُّ بِنْيَةً حِجَاجِيَّةً في كونه يطرح القضية وما يمكن أن ينتج عنها.

كما يوفر أسلوب الشرط علاقة اقتضاء بين الشرط وجوابه، وهو ما يمثل ضرباً من التلازم بين الحُجَّة والنتيجة[3].

ولأهمية هذه البنية فقد وردت في السورة ما يزيد على (50) مرة، تدور كلها حول المحور الرئيس للسورة (حقيقة الألوهية، وتفرد الله سبحانه وتعالى ووحدانيته، ومجادلة المشركين في هذه الحقيقة، واختلاقهم للدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسدة). فلا نكاد نقرأ آية أو مجموعة من الآيات إلا ويظهر أسلوب الشرط واضحاً جلياً. وأبرز أدوات الشرط وروداً في السورة: (**لو**)[4]، (**مَن**)[5]، (**إن**)[6].

قال تعالى:

- ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:7].
- ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ [الأنعام:8].
- ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام:28].

---

(1) لسان العرب: مادة (شرط).

(2) التعريفات: مادة (شرط):131.

(3) ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم:335.

(4) ينظر: [الأنعام، آية: 7، 8، 9، 27، 28، 30، 35، 58، 88، 93، 107، 111، 112، 137، 148، 152، 157].

(5) ينظر: [الأنعام، آية: 39، 48، 54، 104، 125، 145، 160].

(6) ينظر: [الأنعام، آية: 15، 17، 25، 35، 40، 41، 46، 47، 70، 81، 116، 118، 120، 133، 134، 139، 143].

- ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:58].
- ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111].

فكل آية تمثل بنية حجاجية، حيث تورد الدعوى وما يمكن أن يترتب عليها. وهي بمثابة الحُجَّة التي لا تسمح للخصم باستمرارية الجدل أو إعادة بناء الدعاوى. وهذه البنية في الآيات مبنية على افتراض وقوع الدعوى فعلاً وافتراض النتيجة المترتبة عليها، لتصبح بذلك حُجَّة قاطعة على فساد دعواهم وزيف مزاعمهم.

نورد فيما يلي مثالاً للآية (28):

الآية	الدعوى	الافتراض	النتيجة
﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.	﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [27]	ردهم الله	عودتهم إلى ما كانوا عليه من فسق وشرك وجحود وإنكار.

والمعنى المترتب على هذه البنية: أنه لا جدوى من حدوث ما يطلبونه لأن النتيجة معروفة مسبقاً. وهذا ما يدخل تحت مسمى الشرط غير السببي وهو نوع من الشرط يرمي إلى نفي علاقة سببية متوهمة بين حدثي الشرط. فعودة الكفار إلى كفرهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لا علاقة لها بعودتهم إلى الدنيا، فكفرهم واقع سواء أرُدُّوا أم لم يُرَدُّوا[1].

---

[1] ينظر: السببية والتعليل في التركيب الشرطي – د/ مصطفى جطل، وناديا حسكور، مجلة بحوث حلب، سلسلة الآداب والفنون الإنسانية، العدد (17)، 1990م: 15.

دخول أداة الشرط (لو) على الفعل المضارع:

وتختص أداة الشرط (لو) بالدخول على الفعل الماضي[1]، كما في الآيات السابقة، وفي قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾[الأنعام:112- 137]. إلا أنه وفي آيات أخرى قد عدل بها عن الدخول على الفعل الماضي إلى الفعل المضارع. ولهذا العدول في سياقه جوانب مرتبطة بالحِجَاج أيضاً، كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:27] .
- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:30] .
- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:93] .

وقد عُدِل بـ (لو) عن الماضي إلى المضارع لأمور منها:

1- أن التعبير بالفعل المضارع، استحضارٌ للصورة كأنها هي مرئية رأي العين. وفي ذلك تأثير أكبر على النفس، لأن التعبير بالمضارع يجعل الحدث أكثر حضوراً، وأقرب إلى ذهن المتلقي إذ يسهم في التصوير واستحضار الحدث وكأنها تراه العين لحظة حدوثه، وتسمعه الأذن في الوقت ذاته. خاصة وأن السياق يصف حال المشركين في مواقف ينكرون وقوعها ويجادلون في حتميتها.

2- لتنزيل الفعل المضارع منزلة الماضي، لأنه كلام الله عز وجل، والمعنى أنه لا محالة واقع؛ ففيه تصوير ما سيحدث بصورة الأمر الذي وقع بالفعل، حيث يؤتى بالفعل المضارع للإشعار بأنه أمر من أمور المستقبل المتحققة الوقوع. ثم إن (لو) لكونها تستخدم

[1] ينظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد) – عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم – دمشق، دار الشامية – بيروت، ط1، 1416هـ – 1996م: 476/1.

للتعليق في الماضي، فإن اجتماعها مع الفعل المضارع يجعل الأمر بمثابة الإعلام بأن ما نقوله من أمر المستقبل هو بقوة ما وقع وتحقق فعلاً[1].

جملة الشرط جملة اسمية:

والأصل في جملة الشرط والجزاء أن تأتيا جملة فعلية. قال ابن يعيش: "الشرط والجزاء لا يصحان إلا بالأفعال، أما الشرط فلأنه علة وسبب في وجود الثاني، والأسباب لا تكون بالجوامد وإنما تكون بالأعراض والأفعال. وأما الجزاء فأصله أن يكون بالفعل أيضاً لأنه شيء موقوف دخوله في الوجود على دخول شرطه، والأفعال هي التي تحدث وتنقضي ويتوقف وجود بعضها على بعض"[2]، أما الأسماء فهي "ثابتة موجودة فلا يصح تعليق وجود غيرها على وجودها"[3]. غير أنه وفي كثير من جمل الجزاء[4] عُدِلَ عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية، ووجه الحِجَاج في هذا العدول يتمثل فيما يأتي:

1. أن الاسم – كما يقول اللغويون – يفيد الثبوت، والفعل يفيد التجدد والحدوث، وذلك أن الفعل مقيد بزمن، في حين أن الاسم غير مقيد بزمن من الأزمنة، فهو بذلك أشمل وأعم وأثبت[5].

والجملة الاسمية إذ تدل على الثبوت تحمل في طياتها خصائصاً تؤهلها للتعبير عن الحقائق العامة، فتصبح بمثابة المقدمات اليقينية المسلم بها[6]، الأمر الذي يجعل الجملة

---

(1) ينظر: البلاغة العربية (أسسها، وعلومها، وفنونها): 477/1 .

(2) شرح المفصل: 2/9.

(3) نفسه: 8/ 157.

(4) ولا يكون جواب (لو) اسمية بخلاف جواب (إن)، لأن الجملة الاسمية صريحة في ثبوت مضمونها واستقراره، ومضمون جواب (لو) منتفٍ، ممتنع.[ينظر: دراسات لأسلوب القرآن – محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت: 656/1].

(5) ينظر: معاني الأبنية في العربية – د/ فاضل السامرائي، جامعة الكويت، كلية الآداب، ط1، 1401هـ – 1981م: 9 .

(6) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 240-242 .

الاسمية قادرة على النهوض بالوظيفة الإقناعية خاصة فيما يتعلق بأمور الرحمة والمغفرة والوحدانية الثابتة في صفاته عزَّ وجل.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام:54].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام:145].

2. أن التعبير بالجملة الاسمية أقوى من حيث طاقة الإخبار وقوة الإثبات من خلال ما تحمله من دلالة التوكيد والمبالغة في المعنى.

ينقل الزركشي عن زين الدين التنوخي أنه كان يقول: " إذا قصدوا [أي العرب] مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكدوا فبالاسمية، ثم اللام "[1]. و يقول ابن الأثير في باب (الخطاب بالجملة الفعلية والجملة الاسمية والفرق بينهما): " إنما يعدل عن أحد الخطابين إلى الآخر لضرب التأكيد والمبالغة"[2].

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:17]. جاء في التفسير الكبير للفخر الرازي "أن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر في الفاعل ورسوخه فيه"[3]. فجاءت صفة الكشف عن الضر بصيغة اسم الفاعل لتأكيد ثبوتها في ذاته سبحانه وتعالى.

(1) البرهان في علوم القرآن: 391/2.

(2) المثل السائر: 234/2، ويقصد (هنا) العدول عن الجملة الفعلية إلى الاسمية.

(3) التفسير الكبير – الفخر الرازي: 29/25، نقلاً عن معاني الأبنية في العربية: 10.

وفي قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160]، جاء جواب الشرط جملة اسمية فيما يتعلق بالحسنة للتأكيد على ثبوت حكمها، في حين جاء جواب الشرط جملة فعلية فيما يتعلق بالسيئة للدلالة على تغير الحكم وتبدله بمشيئة الله، ذلك أن الأصل عند الله- عزَّ وجل – هو الرحمة والمغفرة، أما العذاب فطارئ، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء[1].

3. أن الجملة الاسمية تتضمن معنى الجملة الفعلية التي عدل عنها وتزيد عليها في المعنى[2].

كما في قوله تعالى : ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:54]. وقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:145].

فجملة : ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، و﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قد عُدِل إليها عن معنى الجملة الفعلية: (يغفر الله له)، أو (لا يؤاخذه الله بما فعل).

والصفة الثابتة في الله – عز وجل – هي صفة (الرحمة والمغفرة) أعم وأشمل، إذ يغفر الله ويرحم ويتجاوز عن عباده بهذه الرحمة وتلك المغفرة. فكانت الجملة الاسمية أعم وأشمل في الدلالة والمضمون.

حذف جملة جواب الشرط:

يوفر أسلوب الشرط – كما ذكرنا سابقاً- علاقة اقتضاء بين الشرط وجوابه، وهو ما يمثل ضرباً من التلازم بين الحجة والنتيجة. إلا أن هذا لا يمنع أبداً حذف جواب الشرط، فقد تحذف جملة جواب الشرط، و يأتي حذفها أبلغ في المعنى من إظهاره[3]. يقول الأنباري في هذا :

---

(1) ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام:48]، وقوله تعالى:﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:104].

(2) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) :440 .

(3) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن : 1/ 643 ، 658.

"وحذف الجواب أبلغ في المعنى من إظهاره، ألا ترى أنك لو قلت لعبدك (والله لئن قمت إليك ...)، وسكت عن الجواب ذهب فكره إلى أنواع العقوبات وتكاثرت، [و] عظمت الحال في نفسه ولم يعلم أيها يتقي، فكان أبلغ في ردعه وزجره عمّا يكره منه ولو قلت (والله لئن قمت إليك لأضربنك) وأظهرت الجواب لم يذهب فكره إلى نوع من المكروه سوى الضرب، فكان ذلك دون حذف الجواب نفسه لأنه قد وطّن له نفسه فيسهل ذلك عليه [...]، وكذلك الحال في الإحسان، نحو: (والله لئن زرتني): إذا حذفت الجواب تصورت له أنواع الإحسان إليه من إكرامه والإنعام عليه، فكان ذلك أبلغ في استدعائه إلى الزيارة وإسراعه إليها. ولو قلت (والله لئن زرتني لأعطينك درهماً) لم يذهب فكره إلى غير الدرهم قط فكان ذلك دون حذف الجواب في نفسه لأنه ربما يكون مستغنياً عنه غير راغب فيه، فلا يدعوه ذلك إلى الزيارة وإذا حذفت الجواب تصورت له أنواع الإحسان إليه فكان ذلك أدعى له إلى الزيارة" [1].

فيما يناقش عبد الله صولة في كتابه (الحِجَاج في القرآن) قول الأنباري هذا، ويرى أن أهمية حذف جملة جواب الشرط من الناحية الحِجَاجِيَّة لا يتمثل في مجرد دعوة المتلقي إلى إتمامه على نحو فيه مبالغة وتهويل، بل فيما تشتمل عليه جملة الشرط من ألفاظ ذات معانٍ تحدد طبيعة الجواب المحذوف وتلزم المتلقي بتصور ذلك الجواب دون غيره [2].

والحقيقة أن قول الأنباري في كون الحذف يدعو المتلقي إلى إتمام الشرط بجملة الجزاء على نحو فيه مبالغة وتهويل، لا ينفي أبداً كون هذا التصور مرتبطاً بما ورد في جملة الشرط وما اشتملت عليه من حمولات دلالية تابعة للمقام ووضعية التخاطب، وإن لم يذكر هذا الأمر صراحة، ذلك أنه مقتضىً مسلم به، وأي خطاب لا بد أن يصاحبه وضعية معينة ومقام محدد.

---

(1) الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين، الإمام كمال الدين أبي البركات، عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد، تحقيق: محمد محيي الدين، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1380هـ – 1961م: 2/ 461- 462.

(2) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 398-399.

كما أن في هذا الحذف ودفع المتلقي إلى تصور الجزاء على نحو من المبالغة و تهويل، إشراك له في صناعة الحُجَّة، مما يجعلها أشد إلزاماً له. إضافة إلى أن هذا الحذف يجعل المخاطبين يختلفون في تقديره [1]، كلٌ بحسب توقعه وتصوره وتخيله، وبحسب ما يحمله من ثقافات ومعتقدات تختلف باختلاف الزمان والمكان، الأمر الذي يجعل جملة الشرط أقوى تأثيراً في المتلقي. يقول الزركشي: "وحذف الجواب يقع في مواقع التفخيم والتعظيم، ويجوز حذفه لعلم المخاطَب به؛ وإنما يحذف لقصد المبالغة، لأن السامع مع أقصى تخيَّله يذهب من الذهن كلَّ مذهب؛ ولو صرح بالجواب لوقف الذهن عند المصرّح به فلا يكون له ذلك الوقع"[2].

علاوة على ما سبق، نجد للحذف عامةً طاقة حِجَاجِيَّة تتمثل في إثارة الفكر والحس بالتعويل على النفس في إدراك المعنى فيكون وقعه أقوى، وتأثيره أثبت[3]. ويرى روبول أن طاقة الحذف الحِجَاجِيَّة تتمثل في كون المتكلم "يسقط الحُجَّة من حديثه ليدفع بالمخاطَب إلى أن يلتقطها فيتبناها ويجعلها حجته الخاصة، وإلى أن يملأ بنفسه الفراغ المشار إليه" [4].كما يؤدي الحذف إلى إطلاق المعنى وتوسيعه[5].

ومن أمثلة الآيات التي حذفت فيها جملة الجزاء قوله تعالى :

- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:27] .

---

(1) ينظر: البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها): 41/2.

(2) البرهان: 3/ 183 .

(3) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1601، ودلالة التركيب – محمد محمد أبو موسى، دار التضامن، القاهرة، ط2، 1408هـ – 1987م : 118، و البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها): 42/2.

(4) ينظر: O.Reboul ,Indroduction ala rhetorique,OP.cit,P133، نقلاً عن: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) :400 – 401.

(5) ينظر: الجملة العربية والمعنى – د/ فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، ط1، 1421هـ – 2000م: 180.

- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:30] .
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الأنعام:40] .
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام:46]
- ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام:47]
- ﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:93].

ولأن سياق الآيات السابقة يتضمن قضايا الآخرة، والعذاب ولحظات الموت، وهي أمور يجحدها المشركون، بل ويغالون في ذلك، فقد كان الحذف لجملة الجزاء (هنا) أبلغ في الطاقة الحِجَاجِيَّة من إظهارها.

أمَّا جُمَل الشرط في السورة، التي ورد فيها الجزاء صريحا، فعلى العكس من ذلك، إذ لا مجال فيها لترك الأمر مفتوحاً في تصور الجواب، فالجواب واضح محدد، لا جدال فيه ولا فصال كما في قوله تعالى:

- ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾[الأنعام:8].
- ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام:9] .

وفي قوله تعالى:

- ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:7] .

▪ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام:111].

نجد الآيات تعرض حقائقاً واضحة جلية، تصور طبيعة النفس المشركة وتكشف ما تحمله في خفاياها من نوايا سوءٍ مُبَيَّتَة. كما أن الخطاب هنا بصيغة المتكلم، وهي الذات الإلهية – الله جل في علاه – علام الغيوب، يعلم خفايا الأمور، وما تخفي الصدور.

فيما تقوم جميع الآيات المشتملة على أسلوب الشرط، التي حُذف منها الجواب، على ضمير المخاطَب، الأمر الذي يقتضي وجود مخاطَب متلقٍ للخطاب، يُطلب إليه تخيل وتصور هذا الجزاء. ولأن الجزاء بالنسبة للمتلقي غير محدد، وغير معلوم كنهه، فقد تُرك مفتوحاً، ولم يتم إظهاره، ليناسب الطبيعة البشرية التي لا تُدرِك من الأمور إلا ما ظهر منها. علاوة على ما ذكرناه سابقاً من أن الحذف (يدعو المتلقي إلى تصور الجزاء على نحو من المبالغة والتهويل).

ثالثاً/ أسلوب التوكيد:

والتوكيد في اللغة: الإحكام.

يقول ابن منظور: أكدته ووكدته أي شددته. وقال أبو العباس: التوكيد دخل في الكلام لإخراج الشك. ويقال: مازال ذاك وكدي أي مرادي وهمي[1]. ويقال: أكد العهد وأوكد ووكده، بمعنى وَثَّقَهُ، وأَحْكَمَهُ[2].

وفي **الاصطلاح**: تمكين الشيء في النفس وتقوية أمره[3].

ويأتي دور التوكيد في تحقيق الحِجَاج والإقناع في ارتباطه بالمخاطَب، ذلك أن التوكيد يستهدف الإقناع والبيان بتقوية المعنى وتثبيت الشيء في النفس. حيث يأتي التوكيد لتقرير

---

(1) ينظر: لسان العرب: مادة (وكد).

(2) ينظر: الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) – إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1399هـ – 1979م: مادة (وكد): 553/2.

(3) ينظر: الطراز: 94/2.

المؤكد في نفس المخاطب وتمكينه في قلبه وإزالة ما في نفسه من شك وشبهة أو غلط في التأويل، ليصبح المُؤَكَّد بذلك حقيقة لا مراء فيها لرفع السهو والتوهم والنسيان والغلط [1].

ويرتبط التوكيد بحال المخاطب حين إلقاء الخبر؛ فالخبر إنما يلقى باتجاه المخاطَب، وفيه لا بد من مراعاة حاله من حيث موقفه من القضية المخبر بها سلباً أو إيجاباً، وهو ما يفسر الصياغات المختلفة لأسلوب الخبر من حيث تجرده، أو اشتماله على المؤكدات[2].

فإذا كان المخاطَب خالي الذهن ألقي إليه الخبر ابتدائياً غير مؤكّد. وإن كان متردداً ألقي إليه الخبر طلبياً مؤكّداً بأحد عناصر التوكيد وفي درجة من درجاته، أما إذا كان المخاطَب منكراً جاحداً ألقي إليه الخبر مؤكّداً بأكثر من مؤكّد، وكلما زادت درجة الإنكار زادت عناصر التوكيد أو زادت درجته[3].

والعلة في ذلك أن الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره، يختلف ويتباين من شخص إلى آخر، فالنفس الصافية التي لم تدنس فطرتها الرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها الانصياع إليه اللمحة والإشارة، أما النفس التي رانتْ عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيد [4].

وهكذا نجد من الناحية الحِجَاجِيَّة، أن التراكيب المؤكَّدَة بما اشتملت عليه من قرائن التوكيد تؤدي دلالة فكرية مُعَيَّنة تتضمن أهمية هذا القول، وتؤدي بالضرورة إلى دلالة أخرى هي الدعوة إلى العمل في ضوء ما ورد في الخطاب من معانٍ. وهذا يعنى أن التراكيب المشتملة

---

(1) ينظر: المفصل في علم العربية – محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ)، ط2، دار الجيل، بيروت – لبنان، د.ت : 111-112، والطراز: 94/2.

(2) ينظر: دلالة السياق – د/ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1423هـ : 508.

(3) ينظر: الإيضاح في شرح المفصل - ابن الحاجب، تحقيق الدكتور موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، بغداد، دار النفائس - بيروت، ط1، د.ت: 11، الطراز: 140/3، وجواهر البلاغة: 67- 69، وعلم المعاني: 55- 57، وفي التحليل اللغوي (منهج وصفي تحليلي): 211.

(4) ينظر: مباحث في علوم القرآن: 300.

على قرائن التوكيد تصبح بمثابة المقتضى المسلم به لما تتضمنه من حمولات دلالية تدعو إلى العمل وفقاً لما ورد فيها من معانٍ ودلالات.

1- **التوكيد بـ (إنَّ) أو (إنَّ مع اللام):**

وتأتي التراكيب المشتملة على مثل هذا التوكيد في سياق مجادلة أعداء القرآن، إما بالحوار معهم، أو الرد على أقوالهم. ذلك أن القرآن الكريم قد نزل باللغة العربية على ما يفهمه العرب، وما يتخاطبون به. أورد الزركشي عن زين الدين التنوخي أنه كان يقول: "إذا قصدوا [أي العرب] مجرد الخبر أتوا بالجملة الفعلية، وإن أكدوا فبالاسمية، ثم بها واللام"[1]. كما ورد عند الجرجاني في دلائل الإعجاز : "ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشواً، فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك؟ فقال أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله قائم، ثم يقولون إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم : إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل. وقولهم إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني، قال: فما أحار المتفلسف جواباً "[2].

لذا فقد وردت الآيات مخاطبة العرب بأسلوبهم وطريقتهم التي عهدوها، حيث اشتملت معظم آيات السورة على أسلوب التوكيد، وجاءت في سياق مجادلة المشركين، أو الرد على أقوالهم. وكون الآيات قد جاءت مشتملة على أداة التوكيد (إن)، فهذا يعني أن هناك أسئلة يطرحها المخاطَب، إمَّا أن تكون أسئلة مباشرة من خلال الحوار – تُذكر في سياق السورة – كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام:37] ، وقوله تعالى:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا

---

(1) البرهان في علوم القرآن: 391/2.

(2) دلائل الإعجاز : 315 .

يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ العَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71] (1)، وإمّا أن تكون أسئلة مفترضة، ذلك أن التوكيد بـ(إن) يأتي على افتراض وجود سؤال من لدن المخاطَب، فليس بالضرورة أن يكون السؤال منطوقاً، بل قد يكون سؤالاً مفترضاً(2)، فيفترض القرآن الكريم رد المخاطَب ثم يأتي بها يجيب على رده قبل أن ينطق به(3)؛ فيوجه بذلك مسار الفعل الحِجَاجي الوجهة التي يبتغيها، ويقطع أي طريق للجدل يمكن أن يخوض فيها المعاندين. كما أن في هذا الأسلوب إعطاء الفرصة للمخاطَب من أجل الإنصات والاستماع بشكل أكبر، الأمر الذي يضمن نفاذية الخطاب إلى نفس المخاطَب، ومن ثم تزداد قدرة الخطاب على التأثير والإقناع.

منها ما ورد في قوله تعالى(4):

- ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99] .

والسؤال المفترض من قبل المتلقي هو: ما الغرض من سرد هذه الآيات والحديث عنها؟! فجاء التوكيد في الآية رداً على هذا السؤال المفترض، أي إن فيها دليلاً قاطعاً للمؤمنين على قدرة الله عز وجل، ووحدانيته.

(1) وينظر أيضاً قوله تعالى: [الأنعام، آية : 21، 54، 120].

(2) ينظر: استراتيجيات الخطاب: 482.

(3) كما في قوله تعالى من سورة الأنعام: الآيات: [14، 15، 56، 83، 95، 99، 117، 119، 128، 135، 139، 141، 142، 145، 159، 161، 162، 165].

(4) ينظر: [الأنعام، الآيات: 14، 15، 21، 37، 54، 56، 57، 71، 83، 95، 99، 117، 119، 120، 128، 135، 139، 141، 142، 145، 159، 161، 162، 165].

- ﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:142] .

وتقدير السؤال هنا،(وما العلة المانعة من ذلك؟)، فكان الرد عليهم بالتوكيد على عداوة الشيطان الشديدة للإنسان، وهي أكبر علة مانعة من ذلك، قال تعالى مخاطبا إبليس: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾[الأعراف:12]، وقال تعالى على لسان إبليس: ﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:62].

- ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:83] ، السؤال هنا: لماذا يرفع الله بعض الناس درجات، وهل هذا على سبيل العدل؟ فيأتي الرد عليهم، إن الله عليم بخلقه، حكيم في تدبير أمور كونه. يعلم المستحق لذلك، لأنه علام الغيوب.

- ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام:95] . (جواب عن سؤال تعليل)، وهو تعليل قدرة الله على الخلق، فقدرته سبحانه وتعالى على إخراج الشجر والثمر من الحب والنوى، دليل على قدرته على إحياء الموتى وبعثهم.

- ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:120]

ومضمون الآيات السابقة يفهم منه أن هناك أسئلة استنكارية، أو استفهامية من قِبَل المخاطبين يتضمنها المعنى العام. كما أن فيها تأكيداً لمعنى هو عندهم منكر غير مسلم به.

وكلما زاد الإنكار من قِبَل المخاطَب لقضية (ما) زادت أدوات التوكيد.

من ذلك ما جاء في قوله تعالى[1]:

- ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:121].
- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:134].

في مضمون الآية: (134) ما يفهم منها أنهم ينكرون ما يعدهم به القرآن الكريم، فجاء التوكيد بـ (إن مع اللام) لتأكيد قضية فكرية جوهرية ونفي ما انطبع في أذهان الخصوم، وتشكَّل في خطاباتهم من نكران وجحود لقضية (الوعد والجزاء التي يعد بها القرآن الكريم).

لذا كانت الآية الكريمة بما تضمنته من قرائن ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ نفي لقضية الإنكار التي جاءت على ألسنة المشركين في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29].

وفي هذه الطريقة من التوكيد نفي لقضايا فكرية ومعتقدات زائفة علقت في أذهان خصوم الدين، وشكلت في عالم خطابهم حقيقة تجري بها ألسنتهم ويتداولونها فيما بينهم، تتضمن التكذيب بوحدانية الله وبرسالة محمد ﷺ، وبالبعث واليوم الآخر، وقضايا التشريع؛ فيؤصل القرآن الكريم بهذه الطريقة للحقائق التي أوردها ويؤكدها بطرق التوكيد المألوفة لدى الخصوم.

وتكمن حِجَاجِيَّة أسلوب التوكيد في كون القرآن الكريم إذ يؤكد على ما يورده من أطروحات، يقطع بذلك الطريق على الخصوم، ويغلق باب الرد أمامهم أثناء الحوار الصريح أو الضمني[2].

---

(1) ينظر: [الأنعام: 33، 119، 121، 146، 134].

(2) ففي قوله تعالى ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ يظهر معنيان ظاهر وضمني.

- أما الظاهر فهو تأكيد القرآن الكريم لحقيقة مجيء الوعد وتحققه.
- وأما الضمني فيتمثل في:

1- وجود وعد من القرآن الكريم بأمور معينة. 2- إنكار وتكذيب من قبل الخصوم لهذا الوعد.

فليس هناك أي طريق للخصم لإعادة بناء فكرة الإنكار من جديد بعد أن نفاها القرآن الكريم بل وأثبت عكسها، وعدم صحتها. ذلك أن التوكيد بـ(إن واللام) يَرُدُّ ما يمكن أن يصدر عنهم من إنكار، فلا يترك بهذه الطريقة أي مجال للخصم في إعادة بناء فكرة الإنكار أو محاولة تغييرها أو تحويرها، ويؤكد في الوقت نفسه أطروحاته بطرق التوكيد المألوفة لدى الخصوم، فيكون بذلك قد سلك طريق الحِجَاج الأكثر تأثيراً في خطاب الخصوم، وجعل الخطاب يتوجه الوجهة التي يبتغيها.

2- التوكيد بـ(الجملة الإسمية المبدوءة بضمير الغائب):

وهو أسلوب شاع في بنية السورة على نحو لافت[1]، ما دفعنا إلى الوقوف عليه ومناقشته. ويظهر جانبه الحِجَاجِي في كون الخطاب بضمير الغائب – عموماً – إحالة على ما هو معروف وغير منكر عند المخاطَب، أو ينبغي أن يكون كذلك، فهو إذن أمر معلوم لا ينبغي أن ينكره أحد.

قال تعالى:

- ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾[الأنعام:2].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:60].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام:73].
- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:97].

---

(1) ينظر: [الأنعام: 2، 3، 13، 14، 18، 57، 60، 61، 62، 72، 73، 97، 98، 101، 103، 115، 127، 141، 164، 165].

- ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام:165].

وهذه الجمل الإسمية التي تُعَدّ إحدى طرق التوكيد؛ كونها تدل على الاستمرار والثبوت، قد وردت في سياق استنكار الشرك، وجاءت للاستدلال والتوكيد على وحدانية الله – عزَّ وجل.

نجد مضمون الآيات السابقة قد انطلق من قضايا مسلم بها في عالم خطاب المتلقين، لذا بُدئت هذه التراكيب بضمير الغائب (هو)، وهذا يعني إحالة المتلقي على ما هو معروف، معلوم لديه، غير منكر عنده. فلم تأت هذه التراكيب للإخبار، لأنها أمور معلومة، أو يجب أن تكون كذلك[1]، بل جاءت لمجرد التنبيه والتذكير بهذه القضايا الأساسية، قضايا الوحدانية وتفرد الله – عزَّ وجل – بالألوهية والقدرة والعلم، الأمر الذي يجعل وقعها الحِجَاجي أقوى تأثيراً في المتلقين؛ فالمقتضى الناتج عن هذه التراكيب: أن الله – عزَّ وجل – أحق بالعبادة من تلك ا لأصنام التي لا تملك ضراً ولا نفعاً، فهو – سبحانه وتعالى – مالك كل شيء وهو رب كل شيء وهو القادر على كل شيء. ولو حدث أن نفى المتلقي أو أنكر هذا المعنى، كان ذلك أدعى إلى وقوعه في تناقضٍ يُخْرِجُه من دائرة المُحَاجَّة، فلا تُقْبَل له حُجَة ولا تَصِح له دعوى بعد ذلك.

كما نجد هذه البنية تدخل ضمن ما يسمى بالقصر الحقيقي وهو ما أورده ابن عاشور في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالحَقِّ ﴾ [الأنعام:73]، قال: "والقصر حقيقي إذ ليس ثم ردَّ اعتقاد لأن المشركين يعترفون بأن الله هو الخالق للأشياء التي في السماء والأرض [...]. فالمقصود الاستدلال بالقصر على أنه هو المستحق للعبادة لأن الخلائق عبيده"[2].

---

(1) فلا ينبغي أن ينكرها أحد؛ لذا نُزِّل المخاطب منزلة غير المنكر.

(2) التحرير والتنوير: 306/7.

3- **التوكيد بالقصر:**

والقصر تخصيص شيء بشيء عن طريق مخصوص[1]، وهذا التخصيص يفيد التوكيد وتمكين الكلام وتقريره في الذهن، لما فيه من قوة ومبالغة في الحكم[2]. وهو أسلوب يلبي حاجة المتكلم في التوكيد وإلزام الخصم الحُجّة على سبيل الإقناع دون اللجوء إلى الإكراه، خاصة في مواجهة إنكار الخصوم ورفضهم للدعوى، ومحاولتهم دحضها.

- **القصر بـ(إنما):**

تأتي إنما كما يقول الجرجاني : "الخبر لا يجهله المخاطب ويدفع صحته، أو لما يُنَزَّل هذه المنزلة [وتفسير] ذلك أنك تقول للرجل: (إنما هو أخوك) و (إنما هو صاحبك القديم). لا تقوله لمن يجهل ذلك ويدفع صحته، ولكن لمن يعلمه ويقر به، إلا إنك تريد أن تنبه للذي يجب عليه من حق الأخ وحرمة الصاحب"[3] .

ففي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام:19] ، نجد المخاطَب- هنا – منزل منزلة (غير المنكر)، وإن كانوا منكرين لهذا الأمر، فخاطبهم على أن هذه حقيقة مسلم به، لا ينبغي لأحد أن ينكرها أو يجهلها، فكل الدلائل والآيات الكونية تثبت هذه الحقيقة وتؤكدها.

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [الأنعام:36] ، تذكير بأمر ثابت معلوم عند المخاطب " ذلك أن كل عاقل يعلم أنه لا تكون استجابة إلا ممن يسمع ويعقل ما يقال له ويُدعى إليه، وأن من لم يسمع، ولم يعقل لم يستجيب له" [4] ، فهو أمر متعارف مفروغ منه.

---

(1) ينظر: علم المعاني: 165، والبلاغة العربية فنونها وأفانينها (علم المعاني): 372.

(2) ينظر: الجملة العربية والمعنى: 213.

(3) دلائل الإعجاز : 330 .

(4) نفسه : 330- 331 .

كما جاءت تكملة الآية لتؤكد هذا المعنى: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللهُ﴾، وهو مثل "ضربه الله تعالى لنبيه ﷺ ويكون معنى الكلام: كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون"[1]. ففيه تعريض بهؤلاء الذين لا يستجيبون، ولا يتذكرون ولا يستفيدون من الإنذار[2]، حيث صور من ينكر آيات الله ولا يسمعها بالميت الذي لا يسمع. فلا يستجيب للحق إلا من كان قلبه حي، أما من مات قلبه وران عليه من شدة المعاصي فلا يتأثر. فجاء التوكيد بإنما ليبين أن تلك القضية بديهية، ولا ينبغي أن يرتاب فيها أحد.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:159]، تذكير للرسول ﷺ بأمر ثابت معلوم عنده، ذلك أن الرسول ﷺ يعلم أن الأمر كله لله، وأن من أعرض وكذب واتبع هواه حسابه على الله . فيما نُزِّل المخاطب به من غير رسول الله منزلة غير المنكر، إذ لا ينبغي أن يرتاب في هذا الأمر أحد. كما أن فيه تسلية للرسول ﷺ لما يجده من صدٍّ وتكذيب في دعوته. وفيها إحالة على ما ورد في قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ ۝﴾ [الأنعام: 33- 34].

أمَّا في قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ۝﴾ [الأنعام: 155- 156]، فيعني تسليمهم بهذا الأمر؛ كونها قضية معروفة غير منكرة. فعدم إنكارهم لتنزيل الكتاب في الأصل، ينافي تماماً إنكارهم للقرآن الكريم وعدم تصديقهم به، وبمن جاء به، ومن نزل عليه.

---

(1) النكت والعيون ، تفسير الماوردي – أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت:450هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت : 2/ 110 .

(2) ينظر: البلاغة فنونها وأفانينها (علم المعاني): 391 .

وهذا يضعف حجتهم ويضعهم في تناقض مع أنفسهم حين يعترفون بإنزال الكتاب من الله، ثم ينكرون القرآن.

◆ **القصر بـ(النفي والاستثناء):**

وهي إحدى البنى الرئيسة التي تعتمد في إنتاج دلالتها على المستوى العميق، وتجمع بين وظيفتين على صعيد واحد هما: النفي والإثبات، إثبات الحكم للمذكور ونفيه عمّا عداه[1]. وتستخدم هذه البنية كما يقول الجرجاني "للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه"[2].

قال تعالى:

- ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:7].
- ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29].
- ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25].
- ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:32].
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47].
- ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50].

---

(1) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1565. والبيان في روائع القرآن: 136/2، والبلاغة العربية (قراءة أخرى): 260-261.

(2) دلائل الإعجاز: 332.

- ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام:57] .
- ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:59] .
- ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:106] .
- ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:111] .
- ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:116].
- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:123] .
- ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام:138] .
- ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الأنعام:145] .
- ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:148] .

وبملاحظة نسبة استخدام هذا البنية في سياق السورة، يتجلى لنا دورها الكبير في بناء الخطاب الحِجَاجِي، الذي يسعى حاهداً إلى الإقناع والتأثير.

فالتوكيد بـ(النفي والاستثناء) يأتي إمـّا :

1- لوجود تكذيب وإنكار من قِبَل المخاطَب.

2- لتنزيل المخاطب منزلة من يجهل وينكر (القضية) لغرض التنبيه على أهميتها.

وهذا يعني أن ما جاء مؤكداً بصيغة (النفي والاستثناء) قد انطلق من أمور غير مسلم بها في عالم خطاب المتلقين، بل وهي محور الجدل والخلاف مع الخصوم أعداء القرآن.

لذا جاء التوكيد باستخدام هذه البنية في سياق الآيات السابقة مؤدياً وظيفتين في آن واحد هما (الإثبات والنقض)، إثبات حقيقة واقعة، في مقابل نقض ما علق في أذهان المخاطبين وثبت في عالم خطابهم من أمور زائفة يظنونها حقائقاً ويتعاملون معها من هذا المنطلق. وبعبارة أخرى تقوم هذه البنية بفعلين (تفريغ وملء)، تفريغ الذهن من كل القناعات السابقة، وملئه بما يراد من حجج وإثباتات[1].

ففي قوله تعالى (مثلاً): ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام:32] ردٌ على ما جاء على لسان المشركين في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29].

كما أن هذه البنية في كونها (لغوياً) إثبات الحكم للمذكور بعد (إلاّ) ونفيه عما عداه[2]، تكشف ما وصل إليه المشركون من درجات الجحود والإنكار والتكذيب والافتراء على الله – عز وجل – حين يتبنون المزاعم الفاسدة والظنون الزائفة ويؤكدونها في أقوالهم، محاولين إقناع الآخرين بها.

[1] ينظر: استراتيجيات الخطاب: 459.

[2] ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1565. والبيان في روائع القرآن: 136/2، والبلاغة العربية (قراءة أخرى) : 260-261.

من هذه المزاعم التي يؤكدون عليها في أقوالهم، ويتبنونها بشدة:

الآيـــة	ما يؤكدون عليه من مزاعم باطلة
﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾. [الأنعام:7]	تكذيبهم للقرآن الكريم، ووصفهم إياه بالسحر والأساطير.
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25].	
﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:29].	إنكارهم لحقيقة البعث، ومن ثَمَّ إنكارهم لما يترتب عليها من جزاء وحساب.
﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:138].	تكذيبهم وادعائهم الباطل على الله – عز وجل– بتحليل وتحريم الأنعام.

في حين جاءت بنية القصر في باقي الآيات تبني حقيقةً ينكرها المشركون، وتنقض الباطل الذي ثبت في عالم خطابهم.

الآيـــة	الحقيقة المبنية على ضوء ما ورد في الآية من دلالات:	ما تم نقضه في عالم خطاب المتلقين:
﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:32].	أن الحياة الدنيا لعب ولهو، أي أنها قصيرة تنقضي. وأن الحياة الحقيقية هي حياة الدار الآخرة، قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۞ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. [الأعلى16-17].	أن الحياة الدنيا حياة واحدة لا حياة بعدها، وأنه لا بعث ولا نشور ولا جزاء.
﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:50].	أن الرسول ﷺ ليس إلا بشر مرسل من الله لا يملك المعجزات والخوارق إلا أن يأذن الله له بها.	أن الرسول ﷺ حتى يؤكد نبوته لا بد أن يأتي بالمعجزات، بل ويجب أن يتصف بصفات خارقة.

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا للهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ [الأنعام:57].	أن الحكم والقضاء لله وحده ، يعجل العذاب لمن يشاء، ويؤجله لمن يشاء، لحكمةٍ لا يعلمها إلا هو.	أن النبي يمكن أن يأتي بالعذاب إن أراد ، أو يمكن أن يطلب من ربه ذلك.
﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:59].	أن مفاتح الرزق والغيب كلها بيد الله، لا يعلمها إلا هو.	إشراكهم غير الله في علم الغيب، وتقربهم إلى الآلهة بالتنجيم والكهانة.
﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:106] .	أن لا إله في الوجود إلا الله وحده، قال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء:22] .	وجود أكثر من إله. فالنصارى تدعي أن الله ثالث ثلاثة، والمشركون، يشركون الأوثان في عبادة الله، ويدعون وجود آلهة متعددة. فيما يدَّعي اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه.
﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام:111] .	الإصرار على الجحود والإنكار من قبل المشركين حتى مع ظهور المعجزات، وهذا دليل تكذيبهم وادعائهم الباطل، وكيف يؤمنون وهم يقولون ﴿ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾؟!	ادعاء المشركين بأنهم سيؤمنون لو جاءتهم المعجزات التي يطلبونها.
﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:116]. ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام:148].	زيف مزاعم المشركين، وبطلان عقيدتهم القائمة على الظن والتقليد الأعمى.	أن ما كان عليه آباؤهم هو الحق، وأن ما يقومون به ، وما يدعونه هو الطريق المستقيم.

رابعاً/ التكرار:

والتكرار في اللغة[1] من الكرّ: أي الرجوع. والكَرُّ مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كرًّا وكُروراً وتَكْراراً. وكَرَّ عنه رجع. والكَرّةُ المَرّةُ والجمع الكَرَّات. ويقال كَرَّرْتُ عليه الحديث وكَرْكَرْتُه إذا ردّدته عليه والكَرُّ الرجوع على الشيء ومنه التَّكْرارُ.

وهو أسلوب شائع في الخطابات على اختلاف أجناسها وتنوع موضوعاتها، إذ يؤدي دوراً إضافياً مطلوباً أو مرغوباً في سياقه الذي ورد فيه أو من أجله [2]. وقد ارتبط بالدراسات البلاغية فكان من أساليب الفصاحة في الكلام، وأصلاً من أصول البديع والبيان.

كما تبرز أهميته الكبيرة في عملية الحِجَاج، إلا أنه لا يعد من الحُجَج والبراهين في السياقات التي يرد فيها، بل نجده رافداً أساسياً لها، حيث يوفر لها التكرار طاقة حِجَاجِيَّة تحدث أثراً في المتلقي، وتسهم على نحو فعَّال في إقناعه وحمله على الإذعان، ذلك أنه يساعد على التبليغ والإفهام، ويُعين المتكلم على ترسيخ الرأي أو الفكرة في الأذهان، وعن ذلك يقول الزمخشري: إن في التكرار "تقريراً للمعاني في الأنفس، وتثبيتاً لها في الصدور. ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب وأرسخ في الفهم وأثبت للذكر وأبعد من النسيان" [3]،كما يشير السيوطي إلى ذلك بقوله: "الكلام إذا تكرّر تقرّر"[4] ، فإذا كرر المتكلم حُجَّة ما، اتضحت مراميها وفُهِمَت مقاصدها ورسخت في ذهن المتلقي[5]. وقد أشار إلى ذلك أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين، حين قرن التكرار بتأكيد الحُجَّة [6].

---

(1) ينظر: لسان العرب : مادة (كرر).

(2) ينظر: دراسة جمالية بيانية: 108، والحِجَاج في الشعر العربي القديم: 168.

(3) الكشاف : 339/3.

(4) الإتقان في علوم القرآن: 1648.

(5) ينظر : الحجاج في الشعر العربي القديم : 168 .

(6) يقول أبو هلال العسكري: "مثل ما يكتب عن السلطان في أمور الأموال وجبايتها واستخراجها، فسبيل الكلام أن يقدم فيها ذلك ما رآه السلطان في ذلك ودبّره، ثم يعقب بذكر الأمر بامتثاله، ولا يقتصر على ذلك حتى يؤكد ويُكرر لتأكد الحجة على المأمور به، ويحذر مع ذلك من الإخلال والتقصير." [كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): 156].

فتكرار الحُجَج والدعاوى وصياغتها صياغة موازنة، وإلباسها إيقاعات نغمية بنائية، يجعله أسلوباً من أساليب الإقناع اللغوية المؤثرة؛ كونه يعمل على استحضار الشيء أمام المتلقي، بشكل متكرر، حتى يتعلق به شعوره.

فالتكرار إذن ظاهرة لغوية مقامية، تتصل بمقاصد المتكلم وسياق الكلام[1]. وله وظائف خطابية عِدّة، عَبَّر عنها ابن الأثير في المثل السائر بالإفهام والإفصاح والكشف، وتوكيد الكلام والتشديد من أمره، وتقرير المعنى وإثباته [2].

وهو في اللسانيات الحديثة مرتبط بدوره في السبك المعجمي، وذلك بأن يحيل اللفظ المكرر إلى لفظ آخر سابق مرادف أو قريب، يرتبط معه بالإحالة المشتركة [3]، فيخدم بذلك النظام الداخلي للنص ويشارك فيه. لذا نجده يسهم في تماسك أجزاء السورة ووحدتها، وفي إبراز العلاقات الكلية لجزئياتها. وفضلاً عن الدلالة الفكرية، نجده أيضاً يسهم في رفع الطبقة الموسيقية للنص، فَيُعَدُّ بذلك عملية تكثيف على مستويين هما: المستوى الصوتي أولاً، والدلالي ثانياً؛ ذلك حين يكشف عن الدلالة الإيحائية للنص. فعلى الرغم من القيمة الدلالية للتكرار إلا أن هذا لا يفقده قيمته الصوتية [4].

وقد تناول المفسرون والبلاغيون وعلماء اللغة ظاهرة التكرار في القرآن الكريم، فبينوا دلالاتها، ووقفوا على أنوعها التي تمثلت في تكرار الحروف والكلمات، وتكرار الفواصل، وتكرار الجمل والآيات، وتكرار القصص. إذ يأتي التكرار في القرآن الكريم على كثرته محكماً بعيداً عن الاضطراب والملل الذي يسببه التكرار في غيره من الكلام[5].

---

(1) ينظر: النص والخطاب والاتصال:230.

(2) ينظر: المثل السائر : 3/ 4، 10، 16، 27 .

(3) ينظر: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)- محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م: 24 .

(4) والحقيقة أنه مهما تعددت أغراض التكرار وتنوعت فأهمها التوكيد الذي يبث الفكرة في نفوس الجماعات ويقرها في قلوبهم إقراراً ينتهي بهم إلى الإيمان الراسخ، [ينظر: ظاهرة التكرار في القرآن الكريم – عبد المنعم السيد حسن، د. دار نشر، ط1، 1980: 12].

(5) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1648– 1658، وأسرار التكرار في القرآن: 63– 64، والطراز: 2/ 94– 101، والمثل السائر: 3/4– 36.

ويأتي التكرار على أنواع تتفاوت في قيمتها، وتتباين في فعلها الحِجَاجِي أيضاً، حيث يظهر التكرار في اللفظ والمعنى.

أولاً/ التكرار اللفظي:

و يتضمن كل وحدة لغوية مهما كانت، إذ يشمل الأجزاء الصغرى (الحروف والحركات)، والأجزاء الكبرى (الكلمات والتراكيب).

فتكرار الحروف في القرآن الكريم وما يضفيه من نمطية خاصة يأتي إما للتوكيد، أو لشد الانتباه إلى كلمة أو كلمات بعينها عن طريق تآلف الأصوات فيما بينها، إذ يُظهر التكرار تأثيراً في سلوك المتلقي من خلال استعمال علامات لغوية تعتمد في تأثيرها مبدأ التجانس، وإما أن يأتي لتأكيد أمر اقتضاه القصد فتساوقت الحروف المكررة في نطقها مع الدلالة في التعبير عنه[1].

أما تكرار الجملة فيمثل ملمحاً رئيسياً في تلاحم النص من الناحية الدلالية، ذلك أن التكرار يُدخل في بنية النص لُحْمَةً ويشد أطرافه بعضها إلى بعض، ويعطي شكله نوعاً من الحركة يدور فيها الكلام على نفسه ويتكرر دون أن يعيد معناه[2]، من هذا التكرار ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ۝ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الآفِلِينَ۝ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ۝ ﴾ [الأنعام:75 - 79].

وقد تكررت جملة ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ للتأكيد على ضرورة الإصرار في البحث عن الإله المستحق للعبادة والثناء، والتوصل إلى ذلك عن طريق النظر والاستدلال، وهو محور هذه

---

(1) ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب – د/ منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط 1، 2002م: 78 .

(2) ينظر: الأسلوبية وتحليل الخطاب: 84 .

الآيات التي عرضت لحوار إبراهيم -عليه السلام- - مع قومه، إذ كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب، فأراد أن ينبههم إلى الخطأ في دينهم، وأن يبطل قولهم بربوبية هذه المخلوقات، إلا أنه لو صرَّح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا، فمال إلى طريق النظر والاستدلال ليستدرجهم إلى استماع الحُجَّة؛ فالنظر الصحيح مؤدٍ إلى أن شيئاً منها ليس بإله لقيام دليل الحدوث فيها، ولأن لها محدثاً أحدثها ومدبراً دَبَّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها [1]؛ لذا نلحظ أيضاً تكرار الفعل (أَفَلَ) وهو: الغياب، في حين أن الإله المستحق للعبادة حاضر لا يغيب[2].

وفي جملة ﴿ قَالَ هذا رَبِّي﴾ قول من ينصف خصمه مع علمه أنه مبطل فيحكي قوله كما هو غير متعصب لمذهبه لأنه أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب، فهو إذن على سبيل الفرض جرياً على معتقد قومه ليصل بهم إلى نقض اعتقادهم بالحُجَّة والبرهان [3].

كما أن في هذا التكرار – أيضاً– تأكيد على ما تحلى به إبراهيم – عليه السلام – من الصبر والأناة في دعوة قومه، والانتقال معهم باللين والتدرج واللطف، وهو ما يقتضيه الحوار الهادف إلى الإقناع.

والتكرار في أكثر من موضع يدعم الطاقة الحِجَاجِيَّة في الدليل والبرهان، لما له من وقع في القلوب، فبقدر تكرار اللفظ يكون مقدار ما يشغله من حيز في سياق الخطاب، ومن ثَمَّ أهميته. كما أن تكرار الشيء واستبقاؤه، يعني تأكيده وإثباته والتشديد من أمره في مقابل دحض الضد.

ومن الألفاظ التي تكررت في السورة وشكلت بتكرارها طاقة حِجَاجِيَّة لفظ (الكتاب)، قال تعـــالى:

---

(1) ينظر: معالم التنزيل: 3/161-162، والكشاف: 2/38، وروح المعاني: 7/198 - 199، والتحرير والتنوير: 7/319- 320.

(2) ينظر: الفصل الثاني، المبحث الأول من هذا البحث، كملة (أفل): 132 – 133.

(3) ينظر: الكشاف: 2/39، وينظر: التحرير والتنوير: 7/319.

- ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:20] .
- ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام:89] .
- ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنعام:91]
- ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:92] .
- ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام:114] .
- ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:154].
- ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام:155] .
- ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ [الأنعام:156].
- ﴿ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157] .

حيث يغدو لفظ الكتاب – بفضل التكرار داخل نطاق المادة اللغوية في السورة – مركزاً تتجه الدلالة صوبه، ما يوحي بأهميته، فهو ملازم للدعوة، وهو إحدى الأركان الأساسية التي تبنى عليها دعوة الأنبياء. فالكتاب هو الرسالة التي بعثها الله – عزَّ وجل – للناس منهجاً يُبَيِّنُ

لهم الطريق التي يجب أن يسيروا عليها. وتكذيب المخاطبين للدعوة مشتملاً على تكذيبهم لمصداقية هذا المنهج الرباني، بل إن محور جدل الكفار يتضمن تكذيبهم للكتاب الذي أنزل على محمد ﷺ، وبناءً على ذلك كان تكرار هذا اللفظ داخل نطاق السورة تأكيداً على أهمية هذا الكتاب، ورداً على دعوى المكذبين للنبي ﷺ، وما أنزل عليه.

كما أن في وحدة اللفظ، وحدة المنهج، ووحدة الدعوة، ووحدة المصدر؛ إذ لم تُحَدَّد تسمية للكتاب المنزل على أحد الأنبياء، قال تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾، **والكتاب هو : القرآن، والإنجيل، والتوراة، والزبور والصحف، وغيرها، لم تذكر تسمية واحد منها، تأكيداً على وحدة دعوتها، وصدق منهجها، وتفرد مُنْزِلها**، وإن تعدد الرسل والأنبياء، واختلفت أسماء الكتب المنزلة عليهم، إلا أنها تدعو إلى رب واحد، وتحدد منهجاً وطريقاً واحداً للناس.

كما نجد لفظ (**الأنعام**) وهي المفردة التي سُميت بها السورة، قد تكرر (ست) مرات في أربع آيات، قال تعالى:

- ﴿ وَجَعَلُوا لله مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لله بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى الله وَمَا كَانَ لله فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الأنعام:136].
- ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ الله عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ۝ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾ [الأنعام:138-139].
- ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ الله وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ [الأنعام:142].

يتبين لنا بالملاحظة أن هذا اللفظ من الألفاظ المحورية في السورة، ذلك أن السورة تتحدث عن قضية التوحيد لله عز وجل قولاً وفعلاً، لذا كان لهذه المفردة في سياقها جانباً من الاحتجاج، الذي يُظهر سفاهة عقول المشركين وضيق تفكيرهم في تعاملهم مع الأنعام، فأكثر أحكامها الموضّحة لجهالاتهم تقرُّباً بها إلى أصنامهم مذكورة فيها؛ ولهذا كان ابن عباس – رضي الله عنه– يقول: من أراد أن يعلم جهل العرب فليقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام[1]، وهي ما كانت تزاوله الجاهلية من حق التحليل والتحريم في الذبائح والمطاعم، ومن حق تقرير بعض الشعائر في النذور من الذبائح والثمار والأولاد[2] بطريقة لا يقبلها منطق أو فطرة[3]. وهي إذ تصور جانباً من جوانب حياتهم المختلفة، تعكس بذلك ما كان عليه العرب في الجاهلية من ضلال وفساد، يتسع ليشمل الجوانب الأخرى من حياتهم، وليست تصرفاتهم بهذا الجهل مع الأنعام إلا مِثَالاً يُقَاس عليه.

كما تكرر فعل (القول) ومشتقاته في السورة (66) مرة، وفي هذا التكرار تصوير لجو الحوار والجدل الذي انطبعت به السورة. كما أن تكرارها يوحي بتكرار الحدث، حدث الحوار والجدل المتواصل الذي شاع في بنية النص، على اختلاف السياقات والمواقف.

وبناءً على المعطيات السابقة يمكن القول إن ما ينهض به التكرار من دور حِجَاجِي لا يكمن في الألفاظ المكررة فحسب، بل هو في الأثر المصاحب لتكرار اللفظ والناتج عنه، وهو ما يسعى القرآن الكريم إلى تحقيقه من خلال هذا التكرار.

---

(1) ينظر: الجامع لأحكام القرآن: 352/6، الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، ط 3، 1407 هـ – 1987م: 3/ 1297، و التحرير والتنوير: 1242/1.

(2) ينظر: في ظلال القرآن: 1018/2-1019.

(3) ينظر الأقوال المختلفة في تفسير هذه الآيات في [النكت والعيون: 2/ 173 – 176] .

ثانياً/ التكرار المعنوي:

وهو آلية أساسية من آليات تقوية المعنى وإقناع المتلقي، وفيه أهمية خاصة تتمثل في "دفع المعنى إلى درجة أقوى، وهو ما يزيد من فاعلية هذه الآلية اللغوية في إقناع المخاطب، واستمالته"[1].

ومن التكرار المعنوي أن تحمل جملة (ما) معنى معيناً، ثم يتكرر هذا المعنى بألفاظ مختلفة لأهميته وضرورة تقريره في النفس، من ذلك معاني العدل الإلهي للعباد، من خلال السنن القائمة في الحياة، التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تختلف، ثابتة على اختلاف الزمان والمكان، قال تعالى:

- ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ [الأنعام:104].
- ﴿ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام:152].
- ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام:164].
- ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الأنعام:164].

فكل إنسان مرهون بعمله، قال تعالى:﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام:160]. والله عز وجل لا يظلم أحداً ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران:117]، وقال تعالى:﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:44]. وفي هذا منتهى العدل في التعامل مع العباد.

كما نلحظ أن هذه الآيات قد جاءت على اختلاف سياقاتها، بعد سرد الحُجَج المتعددة، والبراهين الواضحة، فتركزت في الثلث الأخير من السورة، لتكون بمثابة الخاتمة التي ينتهي إليها موضوع الحِجَاج في هذا الخطاب.

فيلوح بذلك دور هذا التكرار من خلال التوكيد الذي يتصف بالقدرة على خطاب عقول المتلقين خطاب الإقناع، وخطاب قلوبهم خطاب تأثير، بما يحقق في نهاية الأمر الأهداف المبتغاة من هذا التوجه القرآني في تكرار هذه المعاني.

---

(1) النص والخطاب والاتصال: 246.

ومن أمثلة هذا التكرار ما ورد من معاني في قوله تعالى:

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام:40].
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [الأنعام:46] .
- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:47] .
- ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:63] .

إنها دعوة للتفكر في – سياقات مختلفة – باستخدام أسلوب الاستفهام الذي يُشْعِل كوامن الفكر، ويثير حفيظة الفطرة، ويدعو إلى الربط بين الحقائق والمواقف من أجل الوصول إلى نتيجة يقرها العقل وتصادق عليها الفطرة؛ حقيقة وحدانية الله – عزَّ وجل – وتفرده بالقدرة والقوة، ونفي كل الشركاء الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً.

فلا يخفى ما يضطلع به الاستفهام من دور في هذه الآيات من إحالة المتلقي على ما رسخ في ذهنه من مفاهيم، واستحضاره للحقائق الثابتة، لتلتقي بهذا رغبات النفوس وتتقاطع مع حقائق الأمور، فينفضح موقف المعاندين، ويتأكد إدراكهم السقيم، الأمر الذي يؤدي إلى التقليل من شأنهم أمام أنفسهم، فيخفف بذلك من حدة الكبر والعناد، ويكون أدعى إلى التأثير والإقناع.

فالتكرار إذن – كما تبين لنا – ينهض بدور مؤثر، سواء على المستوى اللفظي أو المعنوي، ففيه تثبيت للدعوى، وتقرير للمعطيات. كما أنه يجعل محتوى الخطاب مفهوماً أكثر، الأمر الذي يضمن وصول الخطاب إلى شريحة أكبر من المتلقين على اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، إضافةً إلى الإيقاع المصاحب الذي يساعد على التذكر فيسهل بذلك عملية استقبال الرسالة.

وهكذا يمكن القول إن التكرار قد شاع في بنية السورة على نحو لافت، لفظياً ومعنوياً، وشمل جميع المستويات: الحروف والكلمات والتراكيب[1]. وهو بهذا يؤدي وظيفته الحِجَاجِيَّة على أكمل وجه، ويحقق على مستوى السورة ثلاثة أغراض إقناعِيَّة رئيسة هي:

١ـ التوكيد.

٢ـ التماسك والوحدة الموضوعية للنص.

٣ـ الإيقاع المؤثر في النفس.

وقد لا يعتمد الخطاب على المستوى الإفرادي والتركيب فقط لتحديد المقاصد، بل يوظِّف علاوة على ذلك جوانب بلاغية وجمالية ينفذ من خلالها إلى نفس المخاطَب وعقله معاً، وهو موضوع الفصل الثالث من هذا البحث.

(1) ينظر بشيء من التفصيل: الفصل الثالث – المبحث الثاني من هذا البحث: 272 – 276.

الفصل الثالث:

المقومات الحِجَاجِيَّة الجمالِيَّة ودورها في الإقناع.

علاقة الإمتاع بالإقناع :

يُعَدُّ الإقناع إحدى الوظائف الناتجة عن طاقة الاتصال التأثيرية[1]، حيث يرى كلٌّ من هوارد مارتين Howard وكينيث أندرسين Kenneth Andersen أن "كل اتصال هدفه الإقناع، وذلك أنه يبحث عن تحصيل رد فعل على أفكار القائم في الاتصال" [2]، فهو أسلوب يعمد فيه المتكلم إلى التأثير في المخاطَب وتغيير اتجاهاته أو سلوكه أو معلوماته حيال موقف معين، وهذا ما يجعله طريقة نفسية ومنطقية في آن واحد.

ويُعرِّف حازم القرطاجني الإقناع في كتابه منهاج البلغاء بأنه "حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده أو التخلي عن فعله واعتقاده" [3].

كما يُعرِّف توماس شايدل Thomas scheidel الإقناع بأنه محاولة واعية للتأثير في السلوك[4].

وهكذا يمكن القول بأن الإقناع عملية كلامية، وجهد اتصالي لساني بالدرجة الأولى، مؤسس على قصد، ومخطط له سلفاً وفق أهدافٍ معينة لاستمالة المتلقي وتعديل اتجاهاته وسلوكه ومواقفه الشخصية في ظروف مقامية معينة عن طريق النصح والحُجَّة والمنطق [5].

فيما يرى أوستين فريلي Austen Frely أن الحِجَاج والإقناع جزأين من عملية واحدة، ولا اختلاف بينهما إلا في التوكيد Emphasis، حيث يولي الحِجَاج الدعاوى المنطقية أهمية خاصة، ولكنه يجعل من اختصاصه أيضاً الدعاوى الأخلاقية والعاطفية، أما الإقناع، فإنه ينعكس على التوكيد الذي يبطل ضده[6].

---

(1) ينظر: في ماهية النص الشعري: 179.

(2) النص والخطاب والاتصال : 192.

(3) منهاج البلغاء: 20 .

(4) ينظر: النص والخطاب والاتصال: 192.

(5) ينظر: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي: 189.

(6) ينظر: النص والخطاب والاتصال : 191 – 192.

ولكن كيف يحدث الإقناع :

إن اقتناع[1] المخاطَب لا يأتي كردة فعل مباشرة للرسالة التي يستقبلها بالضرورة، فأكثر ما يتوارد على حياة المرء، يجعل اقتناعه بالخطاب الذي كان قد تبناه من قبل أمراً وارداً. ويتخذ الاقتناع في هذه الحال صورتين، **أولاهما**: تعزيز إيجابي مباشر أو غير مباشر لمواقفه وأفكاره التي يتبناها من قبل، أي أن الصورة الخارجية قد أصبحت موافقة للصورة الداخلية بل مؤيده لها. **وثانيهما**: نقض سلبي مباشر أو غير مباشر للمواقف التي تناقض ذلك الخطاب، أي أن صورة الخارج قد عززت سلباً، بما يثير حفيظة المرء ضدها [2].

أمّا وظيفة الإقناع فتُقَسَّم إلى عدة أبواب، يمكن جمعها في صنفين رئيسين هما: تربوية وتثقيفية. فالتربوية ما لها علاقة بأخلاق الإنسان وسلوكه، والتثقيفية ما من شأنه أن ينمي معارف المتلقي في الميادين المختلفة [3]، وتمثل ما يهدف إليه الخطاب أي أنها الدافع الأساس من وراء قوله.

وحتى تُحقِّق العملية الإقناعية نجاحها، لابدَّ من توافر جملة من القواعد الضابطة أثناء ممارسة الفعل الإقناعي يمكن إجمالها في العناصر الآتية [4]:

1. وضوح الأهداف وإمكان الوصول إليها من خلال البناء والتركيب والتنظيم للرسالة اللغوية المقنعة.
2. (الترتيب الاستنتاجي/ المنطقي للأفكار)، بناء الحُجَج على سلمية متدرجة، تراعي سياق التخاطب، وهو أحد الترتيبات المنطقية شائعة الاستعمال، حيث يقوم المتكلم بترتيب المادة بدءاً بالتعميم وانتهاءً بالتخصيص، أي يورد الأمثلة أو الأدلة التي تدعم الموضوع ومن ثم يصل إلى النتيجة .

---

(1) وفعل الاقتناع هو: الأثر الناجم عن عملية الإقناع لدى المتلقي متى توافرت الظروف لذلك ، وتهيأت من لدن المرسل.

(2) ينظر : اللسانيات (المجال والوظيفة و المنهج): 707 .

(3) ينظر : في ماهية النص الشعري: 179 – 180.

(4) ينظر : الاتصال الإنساني و دوره في التفاعل الاجتماعي: 197- 201، 245 .

3. **الترتيب الاستقرائي**: وهو تتبع الجزئيات للوصول إلى حكم كلي، حيث تعرض الأمثلة و تقدم البراهين، و يُتْرَك للمخاطَب استخلاص النتيجة وحده. فلا يعطي المتكلم رأياً أو حكماً مطلقاً، بل يعرض الأدلة والبراهين، ثم يدع المخاطَب يستخدم عقله ويستنتج الحكم الصحيح، وهذا أوعى للإقناع، وأقرب للاقتناع.
4. **استخدام المتكلم للحوافز المتابعة** (أسلوب التعزيز والترغيب)، ليتمكن بشكل تدريجي من الوصول إلى أعماق المخاطَب وإقناعه بالموضوع المطروح.فاستعمال الكلمة الطيبة (وتصوير المعنويات)، كل ذلك يسهم في تعزيز اتجاه المستقبل أو تعديله أو تغييره، وقد يكون التعزيز مادياً أو معنوياً، أو مادياً ومعنوياً معاً، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:261] .
5. استخدام لغة الترغيب والترهيب، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس:9 - 10] . و قد يلجأ المتكلم إلى استخدام لغة التخويف لردع المخاطب وإقناعه بأن يعدل أو يغير اتجاهه وإلا سَيُعاقب عقاباً صارماً، قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج:10] .
6. التكرار: ويشمل التكرار اللفظي للألفاظ، وتكرار المعاني لتوكيدها وإظهار أهميتها.

ويرى الدكتور سمير أستيتيَّة في كتابه (اللسانيات) أن وسائل الإقناع تتمثل في ملء المسافة الفاصلة بين المرسل والمتلقي وتشمل[1]:

1. أهمية الموضوع.
2. صلة الرسالة بواقع المستقبل، فكلما كانت أقرب إلى واقعه، كانت أقرب إلى عقله ووجدانه. وكلما كانت بعيدة عن واقعه، كانت في منأى عن اقتناعه بها.

---
(1) ينظر : اللسانيات (المجال والمنهج والوظيفة): 705 – 707 .

3. دقة التعبير عن المضمون، وهو أمر يُنبئ عن حاجة كل إنسان، في أن تكون الرسالة التي يستقبلها ذات معنى، ولن تكون كذلك حتى تكون دقيقة في التعبير عن هذا المعنى.
4. ضرورة خلو الرسالة التي نستقبلها من التناقض.
5. أن تكون الرسالة ذات نفع للمستقبل باعتبار الفرد، أو باعتبار الجماعة.

فيما يحدد محمد العبد ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع بقوله: "يمكن التمييز بين ثلاثة أنواع من وسائل الإقناع في النص الحِجَاجِي العربي، وهي: الوسائل المنطقية-الدلالية، والوسائل اللغوية، والوسائل الموقفية، [و]التفاعل بين تلك الوسائل جميعاً وأنماطها المختلفة في أداء الوظيفة الإقناعية هو الأمر الطبيعي"[1]، وهذا ما يجعل علاقة الدوال بالإقناع علاقة مباشرة، ومن ثَمَّ فدور الدوال في عملية الإقناع هو تسهيل عملية وصولها إلى المخاطَب ليكون وعيه بصفة أدق وأوضح.

وهكذا نستطيع القول إن الأساليب البيانية ليست مجرد زخرفة تعبيرية، بل هي آلية من آليات الحِجَاج، ومع ذلك فهي تجعل من الخطاب الحِجَاجِي خطاباً ممتعاً؛ إذ إن "الأساليب البيانية وطرق التعبير والمجاز تجعل من فن الإقناع فناً للإمتاع حتى عندما تكون في خدمة الحِجَاج "[2].

ويتمثل الإمتاع في نفي كل عناصر الملل عن المتلقي، ذلك أن الملل يمكن أن يتسبب في ثقل المادة المحكية وجفاف الحُجَج المُخَاطِبة للعقل فيؤدي بذلك إلى بطلان الحُجَّة وعدم قبولها، الأمر الذي يستدعي بالضرورة الاعتماد على أمور جمالية وفنية تزيل الرتابة، وهذا بدوره يُدْخِل الخطاب الحِجَاجِي في مجال بناء النص والصياغة اللغوية- الجمالية، كما يؤكد

---

(1) للاستزادة ينظر: النص والخطاب والاتصال: 216 - 274.

(2) البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، بول ريكول، ترجمة مصطفى النحال، www. Fikrwanakd.aljabriabed.n26-04rueged.htm.

"اقتران الجمال بالإقناع واستحالة الفصل بينهما فالمعنى يكون مقنعاً ولكنه يحتاج إلى جمال يوشيه ويحفظ له رونقه ويدعم فعله. والمعنى يكون جميلاً فتزداد قدرته على الفعل في المتلقي متى كان مقنعاً"[1]. وهو ما ذهب إليه المرزباني في إحدى نصوصه النقدية التي وازن فيها بين أبيات شعرية لكل من امرئ القيس والطرمّاح[2]. وكانت خلاصة ما توصل إليه: أن الطرمّاح باشتمال أبياته على قوة الإقناع بقوله:

أَلا أيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ أَلا اصْبِحِ ... بِبَمّ وما الإصِبَاحُ عَنْكَ بِـأَروحِ
بَلى إنَّ لِلْعَيْنَيْنِ فِي الصُّبْحِ راحةٌ ... لِطَرْحِهِمَا طَرْفَيْهِـمَا كُلَّ مَطْرَحِ.

قد أحسن في قوله وأجمل، وأتى بحقٍ لا يُدْفَع، وبَيَّنَ عن الفرق بين ليله ونهاره. فيما جاءت أبيات أمرئ القيس، على حسنها:

أَلا أيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيْلُ أَلا انْجَلِي ... بِصُبْحٍ ومَا الإصْبَاحُ فِيْكَ بِأَمْثَلِ[3].

خالية من الإقناع فلم يفرق بين ليله ونهاره، وجعل الليل والنهار سواء عليه في قلقه وهمه.

ومن هنا يمكن القول: إنه لا غنى للحِجَاج عن الجمالية سواء على مستوى اللفظة أو التركيب أو الصورة أو الإيقاع، حيث تحافظ اللغة على رونقها والتراكيب على سلامتها، وتزداد طاقتها الإيحائية حين تعدل عن المألوف وتخرج عن السمت العادي للكلام، وتظل الصورة موحية مليئة بالدلالة تفتح نوافذ على عوالم متداخلة منها ما يتصل بنفسية المخاطَب ومنها ما يتصل بالموقف الذي قيلت فيه[4].

(1) الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 122 .

(2) ينظر: الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عِدَّة أنواع من صناعة الشعر)- أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت: 384هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت: 40- 41.

(3) ديوان امرئ القيس – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط5، د.ت: 18.

(4) ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 439 .

فلا مفر، إذن، للحِجَاج من البلاغة ولا سبيل إلى الإقناع في كثير من الأحيان من الإثارة[1]، فما يلحق المتلقي عند ملامسة الخطاب هو تأثره به وهو ما ينتج عن وظيفة الإمتاع، التي يليها الإقناع فباجتماعهما تتم الإثارة ويكون رد الفعل[2].

وتفسير ذلك أن العلاقة الأساسية التي يرتبط بها المخاطَب عبر الخطاب هي علاقة (تأثير) وهي أبرز العناصر المركبة التي تَنْحَلّ إليها الطاقة الاتصالية التي يحتويها الخطاب ويتوجه بها نحو المخاطَب. إلا أن فكرة التأثير ذاتها تبقى من الضبابية بمكان يسمح لها بأن تستوعب عدة مفاهيم تتقارب أحياناً إلى درجة تتداخل فيها الحدود[3]. وقد عرَّف الدكتور المسدي هذه المفاهيم باعتبار **الأول**: الإقناع "شحنة منطقية يحاول بها المخاطِب حمل مخاطَبِهِ على التسليم الوضعي بمدلول رسالته"[4]، **والثاني** :الإمتاع، وهو عنده سعي حثيث نحو جعل الكلام قناة تَعْبُرُهُ المواصفات التعاطفية وتحل محله نفثات الارتياح الوجداني[5]، أمَّا **الثالث**: فهو الإثارة، وهي فكرة "بموجبها يكون الخطاب عامل استفزاز يحرك في المتقبِّل نوازع وردود فعل ما كان لها أن تستفز بمجرد مضمون الرسالة الدلالي لولا اصطباغ الخطاب بألوان ريشة الأسلوب" [6].

(1) ينظر : الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 440 .

(2) وردة الفعل: هي جملة من الأفعال تعود بالفائدة على المخاطَب قبل المخاطِب وتتمثل فيما يسمى بالوظيفة النفعية. [ينظر: في ماهية النص الشعري: 168]، والوظيفة النفعية هي: وظيفية تتمحور حول متلقي الخطاب، وبواسطتها تأخذ الرسالة قيمتها التداولية، ويتجلى ذلك في الأساليب الخبرية والإنشائية عموماً، منها على سبيل المثال: الأمر، فجملة الأمر لا يمكن أن يقال لقائلها إنه صادق أو كاذب، بل نجدها تتطلب إنجازاً بخلاف الجمل الخبرية، إضافة إلى أن فعل الأمر يتخذ دلالاته انطلاقاً من المتلقي الذي يُحدد الاستلزام الحواري للخطاب: دعاء، إلزام، التماس. [ينظر: اللغة والخطاب: 50].

(3) ينظر: الأسلوبية والأسلوب : د/ عبد السلام المسدي، الدار العربية للكتاب ، ط 3، د.ت : 81 .

(4) نفسه: 81 .

(5) ينظر: نفسه: 82 .

(6) نفسه: 78 .

إذن فالطاقة التأثيرية التي يتوجه بها الخطاب نحو المتلقي هو ذلك التأثير الذي يمارسه الخطاب على إحساس المخاطَب، ويرتبط هذا الإحساس بوظائف ثلاث تابعة له هي الإمتاع والإقناع والإثارة. والإمتاع هي أقرب الوظائف الثلاث إلى الطاقة التأثيرية "لأنها لا تتجسم في فعل معين وإنما تبقى في مستوى الإحساس أي أنها لا تخرج بتلك الطاقة من حيز المجرد إلى عمل ملموس لما يكون الأمر في الإثارة خاصة"[1].

وكلمة الإمتاع لا تقف عند معناها المعجمي المتعارف الذي يرتبط عادة بالمتعة أي المدلول ذي المحتوى الإيجابي أساساً[2]، بل قد يكون المدلول ذا المحتوى السلبي أيضاً، وإنما جُمعت في لفظة واحدة لاشتراكها في علاقة بخلايا الحس دون سواه من المدارك الإنسانية[3]. فوظيفية الإمتاع، إذن، ليست إلا مرحلة ووسيلة من وسائل المخاطِب الإبداعية في وصوله إلى المتلقي وتحقيق غايته عنده.

أما الإثارة فهي المرحلة التي تتصرف بها كينونة الخطاب ذاته، فبعد أن يتجاوز الخطاب مرحلة الصيرورة باكتمال صياغته على الوجه المراد من طرف المبدع، يدخل مرحلة الكينونة منذ وصوله إلى المتلقي، إلا أن هذه المرحلة لا تكتمل للخطاب إلا إذا حقق الهدف الذي صيغ من أجله وهو الإقناع بمضمونه، فإذا تحققت الإثارة وحدث انفعال لدى المتلقي، استجاب المتلقي لفحوى الخطاب وتهيّأ لقبول نتائجه والتسليم بها، فيحدث هنالك الإقناع، ويكون بذلك المخاطِب قد بلغ مراده وأصاب عند المخاطبة ما يرغب فيه[4].

والقرآن الكريم من حيث هو تعبير وبيان أدبي معجز، ثم من حيث هو هدى وبيان ديني، لم يدار الأمر فيه إلا على سياسة النفوس البشرية ورياضتها؛ نجده قد جمع بين أساليب الإمتاع والإقناع، فأصبح أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه، لما يهبه الإمتاع

(1) في ماهية النص الشعري: 178 .

(2) ينظر: لسان العرب: مادة (متع).

(3) ينظر: في ماهية النص الشعري : 178 .

(4) ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 440، وفي ماهية النص الشعري: 182.

من قوة في استحضار الأشياء، فجمال الكلمة خطاب للوجدان، ومضمونها حديث الاعتقاد، وهذا يدعو أن يكون فهمه وتفسيره قائماً على إدراك ما استعمله من ظواهر نفسية روحية أدار عليها بيانه، مستدلاً وهادياً، ومقنعاً ومجادلاً، ومثيراً ومهدداً؛ فبالأمور النفسية لا غير، يُعَلّل إيجازه، وإطنابه، وتوكيده وإشارته، وإجماله وتفصيله، وسائر مناسباته. ومن أجل هذا التأثير النفسي، كانت دقة النظم القرآني، وروعة تأليفه، وكان إبداعه فيما أتى من صور الخيال الطلق، كما كان جلاله وجماله في تلك التعبيرات الموقعة، أو التوقيعات المعبرة[1]، وهو بهذا يخاطِب في المتلقي وجدانه وفكره معاً؛ فيؤثر فيه ويعمل على إقناعه في الوقت نفسه، ذلك أن علاقة الفكر والوجدان بحيث لا يمكن عزل أحدهما عن الآخر، فليس التأثير إلا تمهيدا للإقناع[2].

(1) ينظر: الصورة الأدبية في القرآن الكريم – د/ صلاح عبد التواب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، د.ط، 1995م : 38 ، و استراتيجيات الخطاب: 446 .

(2) ينظر: الحِجَاج في القرآن: 574 – 575 .

المبحث الأول:

بلاغة الصورة ودورها في الإقناع.

تحتـل البلاغـة في واقعهـا مكانـة جوهريـة في العمليـة الإبداعيـة؛ كونهـا "ممارسـة إقناعية/ حجاجيـة/ عمليـة، تغذيها قيم ومعتقـدات، ورموز، وطقـوس ثاويـة في الوجـدان الجماعي للغة، بل وفاعلية نفسية وفكرية وإيديولوجية تجد جذورها في الثقافة والمجتمع والإنسان، وهـي إذ تتحـدد بوصـفها فنـاً للإقنـاع أو الإمتـاع، أو أداة للفهـم والإدراك، فإنهـا تنـدرج داخـل سـياق اجتماعـي وثقـافي ونفسـي يـشكل نـسيجاً مـن العـادات والـسلوكيات والممارسات اللغوية والرمزية"[1]. وللأهمية الكبرى التي تمثلها البلاغة في بنـاء الخطـاب فقـد كانت محل اهتمام بـاحثين ينتمـون إلى حقـول معرفيـة متعـددة فلـم تَعُـدْ دراسـة البلاغـة مجـرد الوقوف على العلاقات التي تُمكِّن من تصنيف بعض الظواهر الأسلوبية ووضعها في قوالـب بوصفها صفات جاهزة لكل من أراد أن يكتب أو ينقد أو ينظر؛ بـل أصـبحت عـلى النقـيض من ذلك، إذ أسهمت البلاغة في صياغة أفق الرؤية للغة وقـضايا الخطـاب المتعـددة، فأصـبح الباحث في مجال البلاغـة يبحـث بين الظـواهر الأسـلوبية ويربطهـا بمـستويات الإدراك بـين تمظهراتهـا المجازيـة والبنيـة النفـسية، بـين الفاعليـة الثقافيـة والاجتماعيـة عـبر الـترددات الاستعارية والكنائية والرمزية، متخذاً عالم الخطـاب في تعـدده العلمـي، والـسياسي والـديني والأدبي، مجالاً لاشتغاله، ومُرتكزاً للكشف عن الأنساق الرمزية التي تغذي الذهن وتحتويه. فلـم تَعُـد الإشـكالية البلاغيـة إشـكالية وصـفية، بـل أصـبحت إشـكالية فلـسفية/ تفـسيرية تتضافر علوم متعددة للإحاطة بها[2].

---

(1) البلاغة في ظل التوجهات المعرفيـة المعـاصرة – عبـد الـسلام خلفـي، البحـرين الثقافيـة، المجلـد (12)، العـدد (41)، مارس 2005م:24.

(2) ينظـر : البلاغـة في ظـل التوجهـات المعرفيـة المعـاصرة :24 – 25، و البلاغـة العربيـة مـن حيـث هـي موقـف تلق (استراتيجية القصد والغرض والقارئ القياسي)– صـالح بـن غـرم الله بـن زيَّـاد، المجلـة العربيـة للعلـوم الإنـسانية، إصدارات مجلس النشر العلمي– الكويت، العدد (91/ 23)، 2005م: 33 .

الوجوه الحِجَاجِيَّة في البلاغة :

لا شك في أن علاقة البلاغة بالحِجَاج إشكال مثير ومعقد، اهتم به القدامى قبل المحدثين، إلا أن الوظيفة الإفهامية والإقناعية للبلاغة تتجلى في كثير مما جاء في وصف البلاغة وتفسيرها عند علماء البلاغة من القدماء العرب، كقولهم: البلاغة قول مُفْقِه في لطف، فالمفقه: المُفْهِم، قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، وهي أن تُفْهِم المخاطَب بقدر فهمه، من غير تعب عليك[1]. واللطيف من الكلام: ما تعطف به القلوب النافرة، ويؤنس القلوب المستوحشة، وتلين به العريكة الأبية المستصعبة، ويبلغ به الحاجة، وتقام به الحجة[2]، وهي عندهم مقرونة بإنجاز غاية، مأخوذة من المعنى اللغوي للبلاغة، وهو الوصول والانتهاء؛ يقال: بلغ فلان مراده، إذا وصل إليه، وبلغ الركب المدينة، إذا انتهى إليه. ومبلغ الشيء منتهاه، ولفظ البلاغة نفسها مأخوذة من قولهم: بلغت الغاية، إذا انتهيت إليها، وبَلَّغْتُها غيري. والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته[3]. فهي إذن نجاح المتكلم في إيصال ما يريد إيصاله إلى المتلقي، يقول العسكري: "البلاغة كل ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسك، مع صورة مقبولة ومعرض حسن"[4] وهي "تأدية المعنى الجليل بعبارة صحيحة فصيحة، لها في النفس أثر خلاب، مع ملاءمة كل كلام للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون"[5]، وقد قيل "لا يكون الكلام يستوجب اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه ولا يكون لفظه

---

(1) ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده – أبي عي الحسن بن رشيق القيرواني (ت:456هـ)، قدم له وشرحه وفهرسه: د/ صلاح الدين الهواري، وأ/ هدى عودة، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ط1، 1996- 1416هـ: 388/1، وكتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) : 51 .

(2) ينظر: كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) : 51 .

(3) ينظر: لسان العرب: مادة (بلغ).

(4) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): 10 .

(5) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: 42.

أسبق إلى سمعك من معناه إلى قلبك"[1]. والبلاغة قليل يُفهم وكثير لا يُسأم، وهي أيضاً إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، أي إصابة المعنى وحسن الإيجاز، وعموماً فالبلاغة عند العرب الإيجاز من غير عجز والإطناب من غير خطل[2].

وعلى هذا الأساس أصبحت البلاغة تقاس وتعرف بقدرة بلوغ النص الذي يتصف بها إلى نفس المتلقي، فكيف يمكن لوجوه البلاغة أن تدعم طاقة القول الحِجَاجِيَّة، وأن تثبت قدرته الإقناعية فَتُعَدُّ عندها من وسائل التأثير والاستمالة ؟

والحقيقة أن البلاغة قبل كل شيء عتاد بنائي وتبليغي يتوسله المتكلم عموماً، لغرض موضوعه أو رأيه أو قناعته، ولأجل كسب تأييد الآخر أو التأثير فيه. وتكمن أهمية الوسائل البلاغية في تحقيق الغاية والهدف للخطاب الحِجَاجِي، فيما توفره للقول من جمالية قادرة على تحريك وجدان المتلقي والفعل فيه، إلا أن الوسائل البيانية وفنون القول المجازية واللغوية لا تحقق وحدها التصديق والتدليل ما لم تسند بأدوات ترجيح الرأي وتسويغه عقليّاً، فلا بُدَّ أن ترافق تلك الجمالية حُجَج متنوعة وعلاقات حِجَاجِيَّة تربط بدقة أجزاء الكلام وتصل بين أقسامه، تمكن المتكلم من تحقيق غايته من الخطاب بقيادة المتلقي إلى فكرة ما أو رأي معين ومن ثمة توجيه سلوكه الوجهة التي يريدها له. فلا تكون البلاغة مقنعة أو مؤثرة ما لم تَكُنْ مدعومة بالحُجَج العقلية التي تخضع هي بدورها لمعيار الضعف والقوة، حيث تُوَفِّر الحُجَج مصداقية وصوابيَّة الفكرة، فيما يوفر الأسلوب البلاغي لهذه الحُجَج تقنيات جمالية تُسَهِّل عملية الإيصال والتلقي. فالجمال يرفد العملية الإقناعية وييسر على المخاطِب ما يرومه من نفاذ إلى عوالم المتلقي الفكرية والشعورية والفعل فيها[3]، إذ ليست البلاغة كما يقول

---

[1] العمدة : 1/ 390 .

[2] ينظر : البيان والتبيين: 1/ 91- 92، و العمدة: 1/ 386.

[3] ينظر: الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 120، والحِجَاج والاستدلال الحِجَاجي: 110، والبلاغة العربية من حيث هي موقف تلق: 54.

العسكري إلا ما به "يعطف القلوب النافرة ويؤنس القلـوب المستوحشة وتلين بـه العريكة الأبية المستعصية ويبلغ به الحاجة وتستدعي غضبه وتستثير حفيظته"[1].

وهكذا نصل إلى أن البلاغة في الخطاب الحِجَاجي تكمـن في كونـه يسعى إلى "كسب تأييد المتلقي في شأن قضية أو فعل مرغوب فيه من جهة، ثم إقناعه عن طريق إشباع مشاعره وفكره معاً، حتى يتقبل ويوافق على القضية أو الفعل موضوع الخطاب. بهـذا المعنـى يصح القول إن الحِجَاج البلاغي هـو حجـاج موجـه للقلـب والعقـل معـاً. إذ يجمع بين المضمون العقلي للحُجَّة وصورها البيانية، أو بين التبرير العقلي والمحسنات البيانيـة."[2] كما يصح لنا القول إن ما يُعَدُّ مقومات بلاغية فنية في مضمون الخطاب هي في الواقع مقومات حِجَاجِيَّة، ذلك أن المخاطِب حينما يستعمل الأساليب البلاغية في خطابه لا يفعل ذلك لأجل الإمتاع، وإنما يفعله لأجل الإقناع.

يرى بيرلمان في هذا الصدد أن أي محسن في الخطـاب لا يسعى إلى مجرد إمتاع المتلقـي "إنه بالأحرى حُجَّة إقناعية ولا يصبح محسناً إلا حينما يُقَصِّر عن أداء وظيفته الحِجَاجِيَّة"[3]. فالفعالية الحِجَاجِيَّة لا تظهر وتتجسم لغوياً إلا بمهارات أسلوبية وتأثيرات بلاغية، تتفـاوت قيمتهـا مـن نـص حِجَـاجِي إلى آخـر. وهـذه المهارات تظـل خاضـعة للـشروط الإبداعيـة والابتكارية كمتطلبات جمالية وألبسة يتلبسها مسار الحِجَاج وعلاقته الداخليـة. فالأسـاليب ومهـارات البيـان والتبيـين تقـوي الحُجَـج وتزيـد مـن فعاليتهـا. أي تعمـل لـصالح التـأثير والإقناع. لذلك يمكن النظر في علاقتها بأدوارهـا الحِجَاجِيَّة وقيمهـا الإقناعيـة[4]، عـلى أن تكون هذه الأساليب البلاغية في صميم الحِجَاج ومكوناته البنائية.

---

(1) كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) : 51.

(2) الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي: 109 – 110 .

(3) بلاغة الحِجَاج – محمد الولي، www.fikrwanakd.aljabriabed.n2604rueyd.htm .

(4) ينظر: الحِجَاج و الاستدلال الحِجَاجي : 106.

فلا يمكن، إذن، إهمال تلك الظواهر البلاغية لما لها من دور في إيصال المحتويات والدلالات، وتحقيق التأثير من خلال انتقاء عناصر العبارة وتناغم الأصوات اللغوية، وإيقاعها ونبراتها، والاستعارة والاشتقاقات، وغيرها من الطاقات الإبلاغية والتعبيرية التي تضع الحُجَج داخل تناصِيَّة معينة تزيد من قدرتها الإقناعية.

والنص القرآني ببلاغته المعجزة قام على تحقيق الوظيفة التأثيرية مراعياً جوانبها المختلفة، وقد كان في الردود الصادرة عن بلغاء قريش عند استماعهم إلى آيات القرآن الكريم ما يجلو هذه الحقيقة، إذ يُرْوَى بهذا الصدد أن الوليد بن المغيرة وصف القرآن الكريم بـ " إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته."[1].

وصفوة القول: إن البلاغة بما فيها من الحقيقة والمجاز، وأنواع البديع وفنونها المختلفة، قد مثلت في ساحة التوصيل والتواصل ثمرة للمجاهدات بالقرآن الكريم وإبلاغه للناس[2]، استجابةً لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان:52] .

[1] السيرة النبوية – أبو الفداء إسماعيل بن كثير (747هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ط، 1396 هـ – 1971م: 1/ 499.

[2] ينظر: مهارات الاتصال: 28 .

يظهر مما سبق أن النص الحِجَاجي يتطلب وجود الأساليب البلاغية من أجل الإقناع والتأثير؛ ذلك أن التأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح من خلال أساليب الإقناع التي نجد عناصرها الأساسية في المعاني البلاغية كأدوات إقناعية. فليس غريباً، إذن، أن نجد الصورة البلاغية وتحققاتها الأسلوبية تحظى بمنزلة مركزية في النصوص الحِجَاجِيَّة؛ فالصيغ الأسلوبية والصور الاستعارية البيانية تُعَدُّ من العناصر ذات الأهمية القصوى في عملية الحِجَاج[1]؛ إذ تكسب نص الخطاب، بوصفها عملية تكثيف على المستوى التركيبي، خصائصَ تجعله أكثر شفافية، لكنها ليست الشفافية التي تصل بالخطاب إلى حد السطحية والابتذال، وإنما لا تتطلب من المحلل مجهوداً كبيراً في التحليل للوقوع على الهدف من ناحية، كما تترك له من ناحية أخرى مجالاً للذة والاكتشاف الشخصي[2]، فتمثل بذلك عاملاً مهماً يرفد هذه العملية ويزيد مجال الإقناع والتأثير، وهو ما يشير إليه الجرجاني في دلائل الإعجاز[3].

وعلى ذلك فإن حديثنا في هذا المبحث سيكون انطلاقاً من الأساليب المحققة لبلاغة النص، والصور والوجوه التي تسهل قبوله لدى المتلقي من خلال أسلوب التصوير.

إذ يظهر للتصوير أهمية كبيرة ودور بعيد الأثر، فهو يؤدي أغراضاً جمالية ومعنوية لا تخفى على أحد يمكن إجمالها فيما يأتي:

1. تعمل الصورة على تشخيص المعاني وتجسيدها، ومن ثَمَّ تقربها وتوضحها وتجعلها كالمعاين المحسوس. كما تبرهن المعاني المطروحة، وتعطي الدليل على صحتها، بقياسها على الأشباه والنظائر بما يحقق حضورها.
2. تؤثر الصورة فكرياً ونفسياً في المتلقي، فهي تُخَاطِب الذهن في أرقى عملياته الفكرية والإدراكية وتخترق كوامن الوجدان بما تقدمه له من إمتاع وإثارة، من خلال: الجدة

---

(1) ينظر: التلقي و التواصل الأدبي: 198.

(2) ينظر: خصائص الأسلوب في الشوقيات – محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، د.ط، 1981م :169.

(3) ينظر: دلائل الإعجاز : 70 – 73.

والطرافة والخروج عن المألوف إلى غير المألوف فتُحَسِّن الأشياء أو تقبحها، وتُرَغِّب فيها أو تُرَهِّب منها، ومن ثَمَّ يكون الحث عليها أو التنفير منها، ثم من خلال قدرتها على مخاطبة أكثر من حاسة في المتلقي، العقل والشعور والخيال[1].

وفي هذا القول ما يحيلنا على أهم خصائص الرسالة اللغوية ومقوماتها الأساسية، والمتمثلة في[2] :

1. **أن تكون تامة كاملة:** أي أن تعطي الرسالة الاتصالية معنى كاملاً عن طريق تزويد المستقبل بمعلومات وفيرة تجيب عن جميع أسئلته وتوضح الهدف الاتصالي.
2. **أن تكون لطيفة ودمثة:** باستخدام الكلمات الطيبة واللطيفة التي تضفي جواً من الاحترام والتقدير والسرور والمحبة على جو الاتصال.
3. **أن تكون محسوسة أو ملموسة**، لأن الكلمات المحسوسة أكثر تحديداً للمعنى من الكلمات المجردة (Abstract)؛ كونها تشير إلى الإنسانية مع سمع وبصر وشم وذوق ولمس، فتزود المستقبل بصورة ذهنية للأشياء لترسخ في ذهنه (Imag)، إذ تساعد المستقبل على تخيل الرسالة وذكر موضوعها وتتفاعل معها بشكل قوي مؤثر، بعكس الكلمات التي لا تسعفه في تكوين صورة ذهنية راسخة.

كما كان للعرب آراء في التصورة مهمة، إذ كانوا يشددون في دراستهم للصورة القرآنية والأدبية عامة على علاقتها بالمتلقي وعلاقة المتلقي بها، فالصورة في وظيفتها عند القدماء تأتي للإقناع والتأثير، والغاية منها في رأيهم تبليغ المعنى في أحسن صورة وجعل المتلقين يقتنعون به من خلال الصورة الحسية التي يظهر عليها و يخرج فيها، أي أنهم اهتموا كثيراً ببعد الصورة الحِجَاجي من حيث هي تأثير في الوجدان وإقناع للفكر[3].

---

(1) ينظر: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 149، ومن جماليات التصوير في القرآن الكريم – محمد قطب عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 2006م: 4.

(2) ينظر: الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي : 161– 162 .

(3) الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 481 .

إلا أن أغلب البلاغيين والنقاد، كما يقول جابر عصفور، قد توقف عند مجرد تقرير أن المجاز أفضل من الحقيقة "لأنه يؤثر في المتلقي تأثيراً أشد من تأثير الحقيقة. ولكن ما طبيعة ذلك التأثير؟ وما علته؟ وما هي الأسس النفسية التي تقوم عليها استجابة المتلقي لذلك التأثير؟ تلك أسئلة لم يحاول أغلب النقاد والبلاغيين أن يتوقفوا إزاءها طويلاً، ولكن هناك قلة فعلت ذلك، أو حاولت أن تفعله"[1].

فما الكيفية التي بها يحصل تأثير الصورة في المتلقي؟ هذا هو محور حديثنا فيما سيأتي.

---

(1) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب- جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت – الحمراء، ط2، 1992م: 324.

حِجَاجيَّة الصورة القرآنية :

لقد كان للصورة القرآنية واستثمار ما فيها من استعارات وكنايات وأمثال العرب وقصصهم، بوصفها أداة مقصودة للتأثير الوجداني، دور كبير في تبليغ المعنى. فقد سَحَرَ القرآن الكريم العرب منذ اللحظة الأولى بصوره الفنية المرموقة المعبرة عن أدق المعاني وأوسعها، فبها يعبر عن المعاني الذهنية والحالات النفسية، والحوادث الواقعية، والقصص الماضية، ومشاهد القيامة.. فإذا تلك المعاني والمشاهد، صور حية شاخصة، تنبض حيوية وحركة، من قوة التصوير[1]. ذلك لأن الصورة في القرآن الكريم لا تعتمد الإيحاء، وإثارة الخيال؛ بل نجدها تنتظم أموراً، بها تتم الصورة كعمل أدبي رائع، وفن قولي جميل، ينشأ عنه تيار متدفق من الصور الذهنية، ومن الفكر، والعواطف والوجدانات، ومن المعاني المتماسكة تماسكاً عقلياً منطقياً، أو وجدانياً عاطفياً[2]، فتتميز بالتناسب الشكلي والتناسب النفسي والفكري معاً. فهي صور ذات أبعاد فكرية ونفسية وفنية، وليست صوراً شكلية مجردة من الغرض.

واستعمال القرآن الكريم للصورة كوسيلة حِجَاجيَّة يؤتى بها عند الحديث عن مواضع يتعذر على المتلقين بصفة عامة أن يتمثلوها أو يدركوا كنهها. كما يؤتى بها عند استقباح اللفظ المستخدم على الحقيقة. فالوظيفة الحِجَاجيَّة للصورة القرآنية تتمثل دائما في بناء شيء على شيء. وهذا البناء تخضع له أغلب الصور في القرآن الكريم، "فهي ذات وظائف حِجَاجيَّة خمس على الأقل: هي بناء غير المسلم به على المسلم به، وبناء غير المعلوم على المعلوم، وبناء المعنى على موضع مشترك بات يمثل رصيداً استعارياً، وبناء غير المدرك والمتغافل عنه والعازب عن

---

(1) ينظر: الدراسة الأدبية (النظرية و التطبيق) – د/ عبد السلام الراغب ، ط1، 1425هـ – 2005م : 68 .

(2) الصورة الأدبية في القرآن الكريم: 10.

الذهن على المدرك والمألوف والذي هو في حيّز المشاهدة، وبناء غير المدرك المستقبح المرفوض على المستحسن المقبول، ويكون هذا بواسطة الكناية"[1].

ويلح الدارسون للصورة في القرآن على كثرة مجيئها فيه حسية تعوِّض فكرة مجردة أو مفهوماً لغاية التأثير في المتلقي وإقناعه، وتسليمه بتلك الفكرة أو هذا المفهوم، "ولكن قلما يعمد هؤلاء الدارسون إلى الفحص عن المادة المكونة لهذا المحسوس من أين جاء وما طبيعته ولماذا وقع اختيار النص عليه هو بالذات دون غيره ليشكل به صوره الفنية"[2]. وهو ما دفع عبد الله صولة إلى تحديد مدار الحِجَاج بواسطة الصورة في القرآن الكريم على مادة هذه الصورة من ناحية، وشكلها من ناحية أخرى[3]، وهذا هو التقسيم الذي سنبني عليه دراستنا للصورة في هذه الجزئية من البحث.

أولاً/ مادة الصورة:

والمقصود بمادة الصورة في القرآن "مضمونها الذي يعتمد فيه لغاية الإقناع عالم خطاب متلقيه الأُوَل"[4]. ذلك أن الصورة الفنية هي بنية لغوية يشكلها الإبداع تختلف في طرائق استعمالها من سياق إلى آخر، وتأتي تلك الاختلافات من جهة الينابيع الدلالية أولاً المستمدة من مادة البيئة المحيطة بالمخاطَبين، ومن وظيفة الصورة في النص ثانياً.

فكيف سخَّر القرآن الكريم هذه المادة للتأثير في المتلقي؟

---

(1) الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 579 – 580 .

(2) نفسه: 499 .

(3) ينظر بهذا الصدد : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 496. وقد عقد فصلين اثنين في كتابه (الحِجَاج في القرآن) للحديث عن حِجَاجيَّة الصورة القرآنية، وخصص الفصل الأول للحديث عن الحِجَاج بواسطة مادة الصورة.[ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 499 – 543] ، فيما كان مدار الحديث في الفصل الثاني على الحِجَاج بواسطة شكلها. [ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 545 – 601].

(4) نفسه: 499 .

إن تأثير المواد الأدبية في النفس يستمد قوته وفاعليته من طبيعة العلاقة بين هذه المواد من ناحية وبين بيئة المتلقين واستعداد هم النفسي والفطري من ناحية أخرى.

لذا نجد الصورة في القرآن الكريم لا تأتي على ما يعتقد العرب ويتخيلون فحسب، وإنما تأتي أيضاً على ما هو حقيقة عقلية وواقع عملي عندهم، ومن هذا الواقع العملي المعيش في حياتهم جيء بالمادة التصويرية.

❖ **مادة الصورة المستمدة من المجال الحسي:**

ومادة الصورة وإن كانت منتزعة من الأمور الحسيَّة، إلا أن هذه الأمور الحسية مستمدة من تجارب المتلقين المادية المرتبطة بممارساتهم المعيشية ومشاهداتهم العينية والمتمثلة في مجالات حياتهم المتعددة بمختلف الأنشطة الاقتصادية التي تُمَارَس فيها بما في ذلك الزراعة والتجارة والرعي[1]؛ فمدار الطاقة الحِجَاجِيَّة لمادة الصورة في إقناع المتلقين إذن ليس لأنها منتزعة من الحس فحسب، بل لكون هذه الأمور الحسية مرتبطة بعالم خطاب المتلقين ومستمدة منه. ومثل هذه المشاهد والصور المستمدة من عالم الخطاب[2] عند المتلقين تكون أقرب لمستوى تفكيرهم وأعلق بذاكرتهم وأشدها وقعاً عليهم، الأمر الذي يجعلهم، أسرع في استحضارها، وأكثر اقتناعاً بها. من ذلك ما جاء مرتبطاً بالجانب الزراعي والحيواني.

فقد كانت الزراعة والرعي، وما يتعلق بهما من ثوابت، من الأمور المهمة التي تقوم عليها حياة العرب الأُوَل بِعَدِّهم المعني الأول بخطاب القرآن الكريم. لذا نجد هذه المادة قد تكررت في سياق السورة بشكل واضح[3].

---

(1) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 500– 501.

(2) المقصود بعالم الخطاب: "مجمل كفاءات المتلقين المعرفية والنفسية والثقافية والعقدية التي يأتي مضمون الصورة في القرآن مستنداً إليها مشكلاً بها معتمداً عليها بطريقة يكون مضمون الصورة هذا غير غريب عنهم فهو لديهم. وتبعاً لذلك يكون نفاذه إلى قلوبهم وإلى عقولهم في سهولة ويسر ويحصل إقناعهم بما أريد إقناعهم به دون صعوبة أو عسر". [الحِجَاج في القرآن: 469].

(3) ينظر: سورة الأنعام الآيات: [46، 95، 99، 141، 142، 175].

أولاً/ الجانب الحيواني:

ويمثل الجانب الحيواني ثروة مهمة في اقتصاد العرب قبل الإسلام؛ حيث كانت البلاد العربية آنذاك فقيرة لا تمتلك صناعةً ولا موارد طبيعية، فعَوَّض العرب عن القصور في جوانب الصناعة بتربية الحيوانات، التي شكلت دعامة أساسية في اقتصادهم وارتبطت ارتباطاً كبيراً بحياتهم، لاسيما الإبل التي كانت تقاس بها الثروات[1]، والخيول التي كانت ولا زالت تمثل رمزاً ثقافياً ذا قيمة كبيرة لدى العرب.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46].

وقال عز وجل: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157].

والصدوف: هو الميل عن الشيء، وصَدَفَ عني أي: أعرض إعراضاً شديداً، ويجري مجرى الصدف أي الميل في أرجل البعير، وتَصَدَّف الجبل أي جانبه[2].

والصدوف هنا الإعراض، ويصدفون: أي يعرضون، وصدف عن الآيات: أي أعرض عنها بعد ما أتته فلم يؤمن بها، ولم يُصَدِّق بحقيقتها[3]. فعلى الرغم من إيراد الآيات على الوجوه المختلفة التي تقوي كل منها ما قبلها في الإيصال إلى المطلوب، ليتذكروا ويقتنعوا، وينيبوا ويرجعوا[4]، إلا أنهم يعرضون عنها مع تصريفها على هذا النحو البديع الموجه للإقبال[5].

(1) ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د/ جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1970م: 7/ 111.

(2) ينظر: لسان العرب: مادة (صدف)، ومفردات غريب القرآن: 287.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 366- 367، وتفسير القرآن العظيم: 3/ 257.

(4) ينظر: تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): 7/ 417.

(5) ينظر: الكشاف: 2/ 24.

وصدوف البعير لمرض يصيبها، وما هم عليه ليس إلا مرضاً قد أصابهم[1]، فهي استعارة مكنية، إذ شبه الجاحدين المعرضين عن آيات الله بالأنعام المصابة بمرض، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:179]، فحذف المشبه به وجاء بشيء من لوازمه وهو الصدف والإعراض، وهو مشهد عجيب "مصحوب بمشهد الصدوف! والمعروف عند العرب، والذي يذكرهم بمشهد البعير المؤوف فيثير في النفس السخرية والاستخفاف والعزوف"[2].

ومثل هذه الصورة، خاصة فيما يتعلق بالبعير والخيول كونها أكثر الحيوانات ارتباطاً بحياة العربي في الجاهلية، تزيد من حِجَاجيَّة الآية عند المتلقين، ويكون وقعها أكبر في التأثير والإقناع.

ثانياً/ الجانب الزراعي:

وقد شكلت الزراعة عماد الثروة الاقتصادية لليمن، والمواضع التي تتوفر فيها المياه في جزيرة العرب، فكانت رأس مالها الأكبر في حياتها. وحيث أن أغلب بلاد العرب أرض صحراوية، فقد كانت الزراعة فيها شبه معدومة[3]، وهذا ما جعل مشاهد الزرع والنبات من أعظم مشاهد الطبيعة تأثيراً في وجدان العربي المحروم منها، خاصة الساكن منهم شبه الجزيرة العربية، ذلك أنهم يدركوا عظمتها وقيمتها، في الوقت الذي يجدون أنفسهم غير قادرين على

---

(1) قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة:10] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:125] ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة:52] ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:12] ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الحج:53] ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ [محمد:29].

(2) في ظلال القرآن: 2 / 1092.

(3) ينظر: المفصل في تاريخ العرب: 7 / 24.

إبداع مثيلاتها، لذلك أصبحت هذه المشاهد مادة تصويرية ثرية لها دورها في التأثير والإقناع[1]، لاسيما فيما يتعلق بقدرة الله عزَّ وجل، وبالحياة والموت، والخلق والبعث.

من ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:99].

ففي إنزال الله من السماء الماءَ الذي أخرج به نباتَ كل شيء، والخَضِرَ الذي أخرج منه الحبَّ المتراكب، وسائر ما عدَّد في هذه الآية من صنوف خلقه لآيات عظيمة، ودلالات بينة على كمال قدرة خالق هذه الأشياء وحكمته ورحمته، استدلالاً بما يشاهدونه من عجائب مخلوقاته التي قصَّها عليهم[2].

فالنظر إلى هذا الزرع عند عقد ثمره، وعند ينعه وانتهائه، والتأمل في اختلاف أحواله وتصرفه في زيادته ونموّه، والتفكر في قُدْرة خلقه من العدم إلى الوجود، بعد أن كان حَطَبًا صار عِنبًا ورطبًا وغير ذلك مما خلق تعالى من الألوان والأشكال والطعوم والروائح. كل ذلك يدل على أن له مدبِّرًا ليس كمثله شيء، ولا تصلح العبادة إلا له دون الآلهة والأنداد[3].

---

(1) ومن مشاهد الزرع المستقرة في أذهان العرب – المتلقي الأول للقرآن الكريم – مشهد (الجنَّة) وما تحمله من مدلولات ارتبطت بالخير من الفواكه والثمار والأنهار الجارية، وخاصة ما تحويه هذه الجنات من (عنب ونخيل). جاء في لسان العرب: الجنة الحديقة ذات الشجر والنخل، ولا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب فإن كانت شجراً، ولم يكن فيها نخل وعنب فهي حديقة، وليست جنة [ينظر: لسان العرب: مادة (ج.ن.ن)]. فكلما جاء ذكر الجنة عند المتلقين الأول، تبادر إلى أذهانهم صورة النعيم المقيم والأنهار الجارية، فأصبح مجرد ذكر الجنة عند هؤلاء يجعلهم يستحضرون منظرها وما تحتويه من النعيم، فيترك ذلك الصورةَ أمامهم مفتوحةً بألوانٍ وأشكالٍ مختلفة يتأملون تفاصيلها ويتابعون أحداثها، ما جعل منها مادة تصويرية مستعملة للترغيب في مواضع كثيرة في القرآن الكريم، وتقريب لمفهوم جنة الآخرة التي وعد بها المتقون، منها قوله تعالى:﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:35].

(2) ينظر: فتح القدير: 2/ 145، وتفسير القرآن العظيم: 3/ 306 – 307، وروح المعاني: 7/ 240.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 581، وتفسير القرآن العظيم: 3/ 306 – 307.

ووجه الدلالة فيما ذكر على وجود القادر الحكيم ووحدته أن حدوث تلك الأجناس المختلفة والأنواع المتشعبة من أصل واحد وانتقالها من حال إلى حال على نمط بديع لا بد أن يكون بإحداث صانع يعلم تفاصيلها ويرجح ما تقتضيه حكمته من الوجوه الممكنة على غيره، ولا يعوقه ضد يعانده أو ند يعارضه. وفي كمال التفاوت دليل على كمال القدرة، كما أن فيه حُجَة وبرهان وبيان لقوم يؤمنون، أي يصدقون بوحدانية الله وقدرته على ما يشاء[1].

فقد بيَّن الله تعالى لهم بتصريف ما خلق، ونقله من حال إلى حال مما لا يقدر عليه الخلق، أنه كذلك يبعثهم. فالذي أخرج هذا النبات من العدم وصرفه في هذه الأحوال المختلفة قادر على نقل الإنسان من حال إلى حال، من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة[2]. وخصّ الله - سبحانه وتعالى - بذلك القوم الذين يؤمنون، لأنهم هم المنتفعون بحُجَج الله والمعتبرون بها، دون من قد طبع على قلبه، فلا يعرف حقّاً من باطل، ولا يتبين هدًى من ضلالة[3]. كما أن فيه توبيخ لمن أشرك به سبحانه وردٌ عليه[4].

ثالثاً/ الجانب التجاري:

كان العرب في الجاهلية كغيرهم من الشعوب، نَشِطُون في عالم التجارة. وقد وصلت التجارة عندهم من الشدة والرواج حتى كادت تكون هي الحرفة الوحيدة التي لم ينظر إليها العربي وإلى المشتغل بها نظرة استهجان وازدراء وانتقاص، بل كانت من أشرف الحِرَف قدراً ومنزلة[5]، لذا نجد القرآن الكريم يُحَاجِجهم ويخاطبهم بلغتهم التي يفهمونها، لغة الربح والخسارة، والكسب والثواب والعقاب، الأمر الذي جعل له أبلغ الوقع والإدراك في التاجر الذي يعي الناحية المادية من ربح وخسارة، أكثر من وعيه وإدراكه للأمور الروحية التي

---

(1) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 582، وروح المعاني 7/ 240.

(2) ينظر: زاد المسير: 3/ 101، وفتح القدير: 2/ 145.

(3) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: 11/ 582، وروح المعاني 7/ 240.

(4) ينظر: التحرير والتنوير: 404.

(5) ينظر: المفصل في تاريخ العرب: 7/ 227

ليست من صميم حياته ومحيطه العملي[1]. فقد كان أهل مكة خبراء في التجارة وتنمية الأموال وكيفية استثمارها، فكانت لهم مرابحات وشراكات وتعامل ومراسلات مع أصحاب المال في مختلف أنحاء جزيرة العرب[2]، ويعود السبب في ذلك إلى الظروف البيئية لمكة[3] التي جعلتها منطقة غير صالحة للزرع، فاضطر سكانها إلى اتخاذ التجارة حرفة تسعفهم وتغنيهم وتضمن لهم معاشهم، وتوفر لهم أماناً وسلماً يحفظ لهم حياتهم[4]. كما كانت مكة ملتقى الطرق التجارية[5]، لذا أصبحت التجارة فيها من أهم مصادر الثروة الاقتصادية في العصر الجاهلي آنذاك، واستمرت أهمية هذه الثروة الاقتصادية بعد الإسلام كذلك، حيث مثلت جزءاً كبيراً من حياتهم، ما جعلهم يحرصون عليها متهاونين بأمر الدين، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في مواضع كثيرة[6].

ومن هنا نجد ألفاظ التجارة قد مثلت مادةً مهمة في تشكيل الصورة في سياق الآيات الكريمة. وأكثر ما يرتبط بالتجارة ويلازمها عند العربي هو الكسب والخسارة.

1- الكسب:

منها ما ورد في قوله تعالى :

---

(1) ينظر: المفصل في تاريخ العرب : 7 / 229 .

(2) ينظر: نفسه: 7 / 230 .

(3) ينظر: نفسه: 7 / 7 .

(4) ينظر: نفسه: 4 / 5 .

(5) ينظر: نفسه: 7 / 285.

(6) وقد ورد في القرآن الكريم من الآيات ما يفهم منها على وجود تهاون بأمر الدين – من قِبَل المسلمين أنفسهم- بسبب انشغالهم بأمور التجارة، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ۝ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ۝﴾. [النور: 36– 37]. وفي سورة الجمعة ما جاء في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. [الجمعة:9]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. [الجمعة: 11].

- ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:120] .
- ﴿ وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام:129].
- ﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:70].
- ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام:158] .
- ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [الأنعام:164].

والكسب : طلب الرزق، وأصله الجمع، والكسب: السعي في طلب الرزق والمعيشة. كَسَبَ: أصاب، واكتسب تَصَرَّفَ واجتهد، وكَسَبَ الإثم: تحمله[1]. والكسب هنا مستعار لما يأتيه الإنسان من أعمال الخير أو الشر، فهو كسب للحسنات واكتساب للسيئات أيضاً، فاستعار (الكسب) المعروف والمتداول في ميدان الأمور الحسية المادية، للتعبير عن كسب أمور معنوية، وتصويرها حتى تظهر أمام المخاطَب في صور يمكن له أن يدرك حجمها ويُقَدِّر أبعادها، وخاصة أن هذا الكسب هو الذي يقرر مصير الإنسان في الدار الآخرة، فإما أن يكون الإنسان في تجارة رابحة أو أخرى خاسرة.

---

(1) ينظر: لسان العرب: مادة (كسب)، والمعجم الوسيط – معجم اللغة العربية، أخرج هذه الطبعة: د/ إبراهيم أنيس، د/ عبد الحليم منتصر، عطية الصَّوالحي، محمد خلف الله الأحمر، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول – تركيا، د.ط، د.ت: 2/ 786.

لذلك نرى الرسول ﷺ في حديثه عن الجنة يصفها بأنها (سلعة) ليؤكد الحس التجاري عند هؤلاء المتلقين، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : <<مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلا إِنْ سِلْعَةَ الله غَالِيَةٌ، أَلا إِنَّ سِلْعَةَ الرَّحْمَن الجَنَّة.>>[1] صدق رسول الله.

نجد أيضاً تصوير الحسنات والسيئات تصويراً تجارياً، وتوضيح مدى الربح الذي يحصل عليه التاجر في هذه (السوق)، قال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام:160] .

إن القرآن الكريم وهو يخاطِب هؤلاء المتلقين، يعرض عليهم الإغراءات الربحية التي تزيدهم ولا تنقصهم، فهي حقاً صفقة رابحة لمن كان له قلب يُبْصر.

2- الخسارة:

أما ألفاظ الخسارة فمنها ما ورد في قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لله كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:12]
- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:20] .
- ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الله حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام:31].
- ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ الله افْتِرَاءً عَلَى الله قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:140] .

---

[1] رواه الترمذي، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي النضر، حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو عقيل الثقفي. حدثنا أبو فروة يزيد بن سنان التميمي. حدثني بكير بن فيروز قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ <<...>> الحديث، وقال أبو عيسى، هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث أبي النضر. [الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَة (ت: 297هـ)، طبعة جديدة منقحة ملونة ومرقمة على كتاب تيسير المنفعة، موافقة للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث- إعداد الشيخ: هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، 1415هـ - 1995م: 4/ 633].

جاء في لسان العرب لابن منظور[1]: خَسِرَ خَسَراً وخُسْراً وخَسَارة فهو خاسر. وخَسِرَ التاجر: وُضِعَ في تجارته، أو غُبِنَ. وأَخْسَرَ الرجل إذا وافق خُسْراً في تجارته. ويقال: خَسِرتْ تجارته: أي خَسِر فيها، ورَبِحَتْ: أي رَبِحَ فيها. وصفقة خاسرة: غير رابحة، وكرة خاسرة: غير نافعة.

وفي هذه الآيات إقرار بالخسارة، يقول ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ للهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:12]، "ومعنى خسروا أنفسهم، أضاعوها كما يُضيع التاجر رأس ماله فالخُسْران مستعار لإضاعة ما شأنه أن يكون سبب نفع، فمعنى خسروا أنفسهم عدموا فائدة الانتفاع بما ينتفع به الناس من أنفسهم وهو العقل والتفكير"[2].

وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام:140]، يظهر خسرانهم من جهتين:

1- خسروا ما رزقهم الله عز وجل من ولد، وهم زينة الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿ المَالُ وَالبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف:46].

2- خسروا الآخرة، بارتكابهم هذا الفعل الذي حرمهم الجنة.

وقد جاء دور البلاغة الإمتاعي في الآيات السابقة مرتبطاً بدور إقناعي للمتلقي؛ فمن لا يؤمن بالله، والمكذب بلقائه سبحانه وتعالى، ومَنْ يقتل أولاده سَفَهاً بغير علم، كل ذلك الضلال والضياع والتخبط عَبَّر عنه القرآن الكريم بالخسارة، ليكون أكثر إقناعاً للمتلقي الذي يُدرك هذا المعنى المرتبط بواقعه، والقريب من فهمه وإدراكه.

---

[1] ينظر: لسان العرب: مادة (خسر).

[2] التحرير والتنوير: 7/ 154.

رابعاً/ الجانب الاجتماعي:

كثيراً ما يعمد القرآن الكريم إلى استقاء مادة تصويره من الفضاء الاجتماعي الذي تنشط فيه مجموعة المتلقين الأُوَل، وفيه تتحرك وتنسج مجمل علاقاتها الخاصة والعامة[1]. من ذلك انقطاع الذِّكْر والنَّسْل. فقد كان العربي يحرص على أن يترك من ورائه ذِكْراً بالأولاد والصيت الحسن، لذا كانوا يحرصون على حياة الرجل فيهم، ويئدون البنات، يتفاخرون بإنجاب الذكر ويستاؤون من مولد الأنثى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۞ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل58:59]. فقد كانوا يفضلون الذكور لأسباب كثيرة[2]، منها أن الذَّكَر هو الذي يحمل اسم أبيه من بعده ويحافظ عليه وهذا ما يضمن لهم بقاء الذِّكْر من بعدهم واستمراره.

وفي قوله تعالى: ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:45]. قال الأصمعي: الدابر الأصل؛ ومنه قَطَعَ الله دابِرَهُ أي أصله. وأياً ما كان فالمراد أنهم استؤصلوا بالعذاب ولم يبقَ منهم أحد[3]. وفي تصوير القرآن الكريم للكافر الظالم نفسه المنقطع عن الحسنات والثواب والمنقطع عن الخير الذي وُعِدَ به المتقون، بالمقطوع عن الذِّكْر يُبْرِز لهم مقدار الخسارة التي أصابتهم، والضرر الذي لحق بهم جراء ظلمهم لأنفسهم.

من ذلك أيضاً تصوير العلاقات الاجتماعية- وهي علاقات معنوية – بأمور مادية، تُقَطَّع وتُمَزَّق، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ

---

[1] الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) : 520 .

[2] للاستزادة، ينظر: تاريخ الجاهلية – د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط ، جمادي الثانية 1384هـ – تشرين الأول 1964م: 157.

[3] ينظر: روح المعاني: 7 / 152.

عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام:94]، وفي هذا التصوير تجسيد للمعنى يقربه إلى الذهن ويوضحه، فيزيد من قوته وقدرته على التأثير والإقناع.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71].

فقد ضُرِبَ المثل هنا بشخص معروف في واقع وتاريخ المتلقين[1]. وهذه المعرفة بالشخص وقصته، تساعد في استحضار الموقف، واستحضار المشاعر التي تعرض لها ذلك الشخص، وهذا ما يجعل المشهد أكثر حسية، وأثبت في أذهان المتلقين.

◆ مادة الصورة المستمدة من المقومات الثقافية والرمزية :

لـمّا كانت مخاطبة القرآن الكريم للمتلقين الأول باستعمال عناصر المواد التصويرية المأخوذة من المحيط الحسي يجعل من مخاطبته لهم بواسطتها قوية الإقناع نافذة الحِجَاج، فإن عناصر الصورة المستمدة من المقومات الثقافية والرمزية القائمة في أذهان المتلقين والمنسربة في عمق تفكيرهم والمتشرب بها اعتقادهم، تدعم جانب الحِجَاج كذلك، وتوجه بواسطته سلوكهم الاجتماعي والديني وتؤثر فيه[2]، حيث تحول الاعتقاد عند العرب إلى مقوم من مقومات ثقافتهم فجاء القرآن الكريم يستمد منها مادة تصويرية لها جانب في إقناعهم والتأثير فيهم. من هذه المقومات الثقافية التي كانت عند العرب، بل ولا يزال هذا الاعتقاد قائماً حتى الآن أن (الشيطان يستهوي الإنسان، والجن تستولي عليه).

قال تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:71].

---

(1) ينظر: التحرير والتنوير: 7/ 303.

(2) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 524 .

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: "وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده: إن الجن تستهوي الإنسان، والغيلان تستولي عليه"[1]، حيث كانت تتراءى لهم "في الليالي وأوقات الخلوات فيتوهمون أنها منهم، فيتبعونها فتزيلهم عن الطريق الذي هم عليه وتتيههم، وكان ذلك قد اشتهر عندهم وعرفوه فلم يكونوا يزولون عما هم عليه من القصد. فإذا صيح بها [...] شردت عنهم في بطون الأودية ورؤوس الجبال"[2]، ويشير إلى ذلك ابن عاشور بقوله: "والعرب يقولون استهوته الشياطين إذا اختطف الجن عقله فسيرته كما تريد"[3]. وهو تمثيل بهيئة متخيلة مبنية على اعتقاد في أحوال الموسوسين[4]. فجاء تصوير من يدعو غير الله، كمن هو في حيرة مسلوب العقل والإرادة، تسيره الشياطين كيف تشاء، دون أن يكون له أي قرار أو أدنى تفكير[5].

كما قد تتحول المقومات الرمزية في ثقافة مجموعة بشرية (ما) إلى مواضع (Lieux) أو ما يشبه المواضع التي لا يمكن للفرد إلا أن يخضع لها ويتقيد بها ويوافق عليها[6]، فهي معانٍ مسكوكة استعملت على جهة المجاز، شأنها شأن المعاني الحافة للون والاتجاه والرتبة.

والمواضع حسب أرسطو هي: "الجداول التي يمكن لنا أن ندرج فيها الحجج ونرتبها ترتيباً من شأنه أن يُسَهِّل لنا العثور عليها عند الحاجة"[7]، وفي هذا التعريف ما يشير إلى

---

(1) الكشاف: 2/ 36. والغيلان جمع غول، والغول في مجرى الاستعمال اللغوي عند العرب " الداهية" ويقال لقد غالته غول. [ينظر: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها – د/ محمد محمد عجينة، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ط2، 2005م: 354]. وهي في اعقاد العرب (سحرة الجن)، وتُسَمَّى السعالي أيضاً، واحدتها سَعْلاة، ويقولون أيضاً: استهامته الشياطين، إذا طلبت هيامه بطاعتها. [ينظر: التحرير والتنوير: 7/ 301].

(2) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها: 362.

(3) التحرير والتنوير: 7 / 301.

(4) ينظر: نفسه: 7 / 301.

(5) سيتم تفصيل الحديث عنه في التمثيل: 247.

(6) ينظر: الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 528.

(7) ينظر: Perelman et Tyeeca,Traite de I,argumentation Page (122)، نقلاً عن الحِجَاج في القرآن: 528.

خاصية التدرج (السلمية الحِجَاجِيَّة)، كون التدرج: علاقة تربط بين موضوع ومحمول، وهذا الربط يراعي السلمية التي تميز اتصاف الموضوعات بالمحمولات[1].

فالموضع إذن: فكرة عامة تحمل قيمة معينة، إما أن تكون قيمة سلبية، أو قيمة إيجابية يؤدي استعمالها في الخطاب إلى إقناع المخاطبين بما يعرض عليهم بواسطتها، فهي بمنزلة الآليات التحتية التي تسمح بإنجاز النشاط الحِجَاجِي، من خلال العلاقة التي تنسجها مع سياق الخطاب بما تتميز به من حمولات دلالية معينة ذات مرجعيات ثابتة عند متلقي هذا الخطاب؛ وهي من أجل هذا تمثل أداة حِجَاجِيَّة ناجعة رغم تداولها في الكلام وجريانها على الألسن[2].

وما يجعل هذه المواضع في السورة قوية، ويكسبها ثراءً دلالياً متعارف عليه في عالم خطاب المتلقين هو "استنادها إلى (مخيال) المجموعة اللسانية التي نزل فيها القرآن وإلى تجربتها الرمزية العميقة، بل ربما كان بعض هذه المواضع مستنداً إلى المخيال الإنساني عامةً، ولعل هذا هو الذي جعل المواضع مخازن للحِجَاج عبر[الأزمنة] وفي مختلف الأمكنة وجعل القرآن تبعاً لذلك يحاج جمهورين معاً؛ الجمهور الضيق من ناحية أي جمهور العرب الذين كانوا أول من تلقاه، والجمهور الكوني من ناحية أخرى"[3].

ويأتي استعمال هذه المواضع على جهة المجاز، حيث تشكل مادةً للصورة المجازية، ومن ثم فإن بعدها الحِجَاجِي لا يتمثل في مجرد تجسيد المفهوم وما يترتب عليه من استدلال على الفكرة فحسب، بل نجده متمثلاً أيضاً في كون هذه المواضع تنطوي على أبعاد ثقافية ورمزية معينة تجعلها ذات قوة حِجَاجِيَّة أكبر. من هذه المواضع ما افْتُتِحَتْ به السورة الكريمة من ذِكْر للظلمات والنور.

---

(1) ينظر: الحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر و ديكرو: 237.

(2) ينظر الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 528- 532، والحِجَاجيات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو: 237.

(3) الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 523.

1- **الظلمات والنور:**

قال تعالى: ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:1].

ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122].

وفيها (استعارة): استعارة النور والظلام، للإيمان والكفر. والقيمة الحِجَاجِيَّة لهذين اللفظين لا تكمن في استعمالها على جهة الاستعارة فحسب، بل نجدها كامنة فيما تحمله هذه الألفاظ من قيم إيحائية مرتبطة بكلام العرب ومعتقداتهم. فالنور في حد ذاته من الأشياء المحببة للنفس عند العرب وعند غيرهم من سائر الأمم، والظلام مكروه منبوذ من قبلهم. ونفور النفس بصفة عامة من اللون الأسود وكل ما يتصف به، هو نتاج ما يحيل عليه من الشؤم والخوف والغم، وارتباطها بالنور لما يتعلق به من أمور الخير والجمال والإضاءة. وقد خص ذكر الظلمات والنور "لاستواء الناس في إدراكهما والشعور بهما"[(1)].

يقول ابن عاشور إن "إيثار الظلمات والنور بالذِّكر دون غيرهما من الأعراض إيماءً وتعريضاً بحالي المخاطبين بالآية من كفر فريق وإيمان فريق آخر، فإن الكفر يشبه الظلمة لأنه انغماس في جهالة وحيرة، والإيمان يشبه النور لأنه استبانه الهدى والحق"[(2)]، قال تعالى: ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:257].

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122]، يقول الزمخشري: وفيه تمثيل للضال الذي "هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز

---

(1) التحرير والتنوير: 7/ 127.

(2) نفسه: 7/ 127.

به بين المحق والمبطل والمهتدي والضال، بمن كان ميتاً فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به"[1]، وفي تمثيل الهداية بالنور الكاشف الذي يسري في قلب المؤمن، وينتقل بواسطته بين الناس، بيان رائع يُعَبِّر عن أثر الإيمان في حياة القلوب[2]، فيما يمثل لمن بقي على الضلال "بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص"[3] وفيه يظهر الكفر ومساوئه بالظلمات الحالكة التي تغشى قلب الكافر، فتحجبه عن إشراقة اليقين التي يتمتع بها المؤمن، وفي ذكر الظلمات والتمثيل بها بيان لحيرته وحسرته الشديدة حيث لا يجد محيصاً ولا خلاصا[4].

والتعبير عن الإيمان والكفر بواسطة النور والظلام، يضع هذين اللفظين في إطار المعتقدات التي تشكل عالم خطاب المتلقين. فالإيمان حينما يوصف بالنور، يصبح مشحوناً بقيمة إيجابية مدعومة بما علق في أذهان المخاطبين ومعتقداتهم. والكفر إذ يوصف بالظلمات، يحيل مباشرة على الأشياء البغيضة المشؤومة العالقة هي الأخرى في أذهانهم فيصبح مكروهاً منبوذاً.

ومن ذلك أيضاً لفظ الظلمات التي وردت في الآيات من قوله تعالى:

- ﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ <u>ظُلُمَاتِ</u> الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:63].
- ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي <u>الظُّلُمَاتِ</u> مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:39].

فهي تحمل الدلالة السلبية ذاتها.

---

(1) الكشاف: 2/ 59.

(2) ينظر: التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم – د/ محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، ط2، 2002م :294 – 295.

(3) الكشاف: 2/ 59 .

(4) ينظر: التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم:294 – 295.

2- **الأعمى والبصير:**

من الرموز الثقافية الواردة في سورة الأنعام الأعمى والبصير، قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾[الأنعام:50] .

وفي لفظي الأعمى والبصير استعارة للضَّال والمهتدي، يقول ابن عاشور: "شُبِّهتْ حالة من لا يفقه الأدلة ولا يفك بين المعاني المتشابهة بحالة الأعمى[1] الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه. وشُبِّهَتْ حالة من يميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة البصير[2] حيث لا تختلط عليه الأشباح. وهذا تمثيل لحال المشركين التي هم ملتبسون بها والحال المطلوبة منهم التي نفروا منها [حال الإيمان] ليعلموا أي الحالين أولى بالتخلق"[3]، وإلى ذلك يشير الآلوسي بأن المراد إنكار استواء من لا يعلم مع ما ذُكِرَ من الحقائق ومن يعلمها، مع الإشعار بكمال ظهورها والتنفير عن الضلال والترغيب في الاهتداء[4]، والقرآن الكريم هو الوحي المُتَّبَع، جاء واضح الدلائل قاطع البراهين ثابت الحُجَج، لا يُقْبِل عليه إلا من نَوَّر الله قلبه وبصيرته، ولا يُعْرِض عنه إلا من كان أعمى البصيرة.

---

(1) والعمى كما ورد في لسان العرب: ذهاب البصر كله من العينين كلتيهما: عَمِيَ يَعْمَى فهو أعمى، ويقال: رجل أعمى وامرأة عمياء. ولا يقع هذا النعت على العين الواحدة لأن المعنى يقع عليهما جميعاً. وامرأة عَمِيَةٌ عن الصواب، وعَمِيَة القلب، على وزن فَعِلَة. والعامي عن الصواب الذي لا يُبْصِر طريقه. يقال عَمِيَ عن رشده وعَمِيَ عليه طريقه إذا لم يهتدِ لطريقه، وعمي عليه الأمر: التبس، ومنه قوله تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص:66] . [ينظر: لسان العرب : مادة (عَمي)].

(2) والبصر في لسان العرب: العين. وقيل البصر حاسة الرؤية والجمع أبصار. وبَصُرَ: صار مبصراً وأبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه. وأبصرت الشيء رأيته. ورجل بصير: مُبْصِر خلاف الضرير. [ينظر: لسان العرب : مادة (بَصُرَ)]. وفي التعريفات، البصر: "هو القوة المودعة في العصبتين المجوفتين اللتين تتلاقيان ثم تفترقان، فيتأديان إلى العين تدرك بها الأضواء والألوان والأشكال".[التعريفات: مادة (بصر): 46] .

(3) التحرير والتنوير: 7/ 243.

(4) ينظر: روح المعاني: 5/ 329 .

وفي قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام:104]، استعار الإبصار في قوله (أبصر) للعلم بالحق والعمل به، لأن المهتدي بهذا الهدى الوارد من الله بمنزلة الذي نُوِّر له الطريق بالبدر أو غيره فأبصر وسار فيه، وبهذا يجوز أن يكون (أبصر) تمثيلاً موجزاً ضُمّن فيه: تشبيه هيئة المرشَد إلى الحق إذا عمِل بما أُرشِد به، بهيئة المبصر إذا انتفع ببصره. واستعير العمى في قوله (عَمِي) للمكابرة والاستمرار على الضلال بعد حصول ما شأنه أن يُزيله، لأن الـمُكَابر بعد ذلك كالأعمى لا ينتفع بإنارة طريق ولا بِهَدي هاد[1].

والحِجَاج هنا لا يقف عند مجرد الاستعارة، فما تحمله هذه الألفاظ من دلالات محملة بقيم متصلة بواقع العرب وثقافتهم، بالإضافة إلى كونها تجسيداً لمعنى الضلال/ والهدى – الإيمان/ والكفر من خلال الاستعارة من شأنها أن تزيد الحِجَاج في الآية قوةً.

ففضلاً عن كون العمى هو: انعدام الرؤية للأشياء المادية، فهو أيضاً بما يحمله من دلالات متصلة بثقافة المتلقين العرب، بِعَدِّهِم المتلقي الأول للقرآن الكريم، يعني عمى البصيرة. والبصيرة هي: الفطنة. تقول العرب، أعمى الله بصائره أي فِطَنَه. وفعل ذلك على بصيرة أي على عمدٍ، وعلى غير بصيرة أي على غير يقين. وإنه لبصير بالأشياء، أي عالم بها. والبصيرة -- كما قال الليث[2] - اسم لما اعتقد في القلب من الدين وتحقيق الأمر. واستبصر في أمر دينه إذا كان ذا بصيرة. والبصيرة : الحُجَّة والاستبصار في الشيء. والتبصر: التأمل والتعرف. وتبصر في رأيه واستبصر: تبين ما يأتيه من خير وشر[3].

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير: 7/ 419.

(2) هو الليث بن سعد عبد الرحمن الفهمي: بالولاء، أبو الحارث: إمام أهل مصر في عصره، حديثاً وفقهاً. فقد كان كبير الديار المصرية ورئيسها، وأمير من بها في عصره، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته. أصله من خراسان، ومولده في قلقشندة، ووفاته في مصر. وكان من الكرماء الأجواد. وقال الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. أخباره كثيرة، وله تصانيف. [ينظر: كتاب الأعلام- خير الدين بن محمود بم محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، ط15، آيار – مايو 2002م: 5/ 248].

(3) ينظر : لسان العرب : مادة (بصر).

لذا نجد القرآن الكريم يخاطبهم في موضع آخر بقوله عز وجل: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج:46].

ذلك أن الرؤية عند العرب، إما أن تكون رؤية (بصرية) بالعين، أو رؤية (قلبية) بمعنى العلم. قال ابن منظور عن ابن سيده: الرؤية: النظر بالعين والقلب[1].

والرأي: رأي القلب، ويجمع على الآراء، تقول: ما أضلَّ آراءهم، على التعجب. ونقول من رأي القلب: ارتأيت : قال:

ألا أيُّها المرتئي في الأمور سيجلو العمى عنك تبيانا [2].

لذلك جاءت الآية في قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:50]، مقترنة بالسؤال التحضيضي على التفكير ﴿ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾؟!؛ فالتفكير مطلوب، والحض عليه منهج قرآني، مضبوط بضوابط الوحي المنزل[3]. وورودها في السياق على هذا النحو أمر ذو دلالة في التعبير القرآني، لارتباطه بالبصيرة التي هي نور القلب الذي به يستبصر، ونور العقل الذي به يتفكر، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة نور البصر للعين الذي به تبصر صور الأشياء وظواهرها[4].

---

(1) ينظر : لسان العرب : مادة (رأى).

(2) ينظر : كتاب العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175هـ)، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، د.ط، 1409هـ: 8/ 207.

(3) ينظر : في ظلال القرآن – سيد قطب :2/ 1099 .

(4) ينظر الكشاف: 2 / 52، التعريفات – الجرجاني : مادة (البصيرة)، والتحرير والتنوير: 7 / 244

3- **الفوقية (فوق):**

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:18]، وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:61].

نجد أن دلالة الفوقية في هاتين الآيتين مجازية، حيث يُعَدُّ لفظ (فوق) من الألفاظ التي يؤتى بها للتعبير عن موضع ذي قيمة إيجابية عند العرب وعند غيرهم أيضاً، وهو موضع (العلو) والرفعة.

وهي استعارة تمثيلية وتصوير لقهره سبحانه وتعالى وعلوه – عز شأنه – بالغلبة والقدرة. وجُوِّز أن تكون الاستعارة في الظرف بأن شبه الغلبة بمكان محسوس، وقيل: إنه كناية عن القهر والعلو بالغلبة والقدرة[1]. قال ابن عاشور: "وفوق ظرف متعلق بـ(القاهر) وهو استعارة تمثيلية لحالة القاهر بأنه يأخذ المغلوب من أعلاه فلا يجد معالجة ولا حراكاً، وهو تمثيل بديع"[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف:127]، ثم يشير ابن عاشور مستدركاً في السياق نفسه، لألّا يُفْهَم من لفظ "فوق" جهة العلو بقوله: فـ "معنى القهر فوق العباد أنه خالق ما لا يدخل تحت قدرتهم بحيث يُوجِد ما لا يريدون وجودة كالموت ويمنع ما يريدون تحصيله كالولد للعقيم والجهل بكثير من الأشياء."[3]

والفوقية في الفضل مما يثبتها السلف لله تعالى أيضاً، وهي متحققة ضمن الفوقية المطلقة، وكذا يثبتون فوقية القهر والغلبة كما يثبتون فوقية الذات ويؤمنون بجميع ذلك على الوجه اللائق بجلال ذاته وكمال صفاته سبحانه وتعالى[4]، "لأن قهره فوق كل قهر، وفي هذا القهر

(1) ينظر: روح المعاني: 7/ 114.

(2) التحرير والتنوير: 7 / 165 .

(3) نفسه: 7/ 165.

(4) ينظر: روح المعاني: 7/ 116.

وجهان: أحدهما: أنه إيجاد المعدوم. والثاني: أنه لا راد لأقداره و لا صَادَّ عن اختياره"[1]، "فهو المستعلي عليهم وهم تحت التذليل والتسخير"[2]، وهو سبحانه وتعالى صاحب السلطان القاهر، وهم عباد تحت سيطرته وقهره، ضعاف في قبضة السلطان، لا قوة لهم ولا ناصر، خاضعون له مقهورون[3]، وهو فوقهم بقهره إياهم وهم دونه، وهذه "صفة كل قاهر شيئاً أن يكون مستعلياً عليه"[4] ففيه تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة[5]، ذلك أنه عز وجل قد تواضعت لعظمة جلاله وكبريائه، وعظمة علوه وقدرته الأشياء وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره[6]. فالفوقية هنا: فوقية القدرة والرتبة، فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان. كما يقال: السلطان فوق رعيته، أي بالمنزلة والرفعة[7].

وفي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام:165].

رفع الدرجات هنا هو "بالشرف في المراتب الدنيوية"[8]،أي خالف بين أحوالكم في الخلق والرزق والمعاش والقوة والفضل والعلم[9] ليختبركم فيما آتاكم ويبتلي الغني والفقير،

---

(1) النكت والعيون: 2/ 99 – 100.

(2) زاد المسير: 3/ 13.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 2/ 1122.

(4) جامع البيان في تفسير القرآن: 11/ 288.

(5) ينظر: الكشاف: 2/ 12.

(6) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/ 244.

(7) ينظر: فتح القدير: 2/ 102، 124 .

(8) التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط – أثير الدين عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي، الجيّاني الشهير بأبي حيان (ت: 754هـ)، وبهامشه تفسيران جليلان، أحدهما النهر الماد من البحر لأبي حيان أيضاً، وثانيهما، كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ أبي حيان – تاج الدين محمد أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي النحوي (ت: 749هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1411هـ - 1990م: 4/ 263.

(9) ينظر: معالم التنزيل: 3/ 212، وفتح القدير:2/ 186، وزاد المسير:3/ 163.

والشريف والوضيع، والحر والعبد [1]. و إظهار هذا التفاوت فيما أنعم عليكم من درجات النعم ، حتى يظهر للناس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبر عنها بالدرجات[2]، وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه صورة الرفعة[3].

وهكذا فقد ورد لفظ فوق في الآية بصورة مجازية للتعبير عن العلو والمكانة التي يتفاوت فيها الناس، ابتلاءً من الله عز وجل اختباراً لهم أيشكرون أم يكفرون، كما أن فيها "عبرة وعظة، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة، ويجعل ذلك وسيلة لشكر النعمة والسعي في زيادة الفصل لمن قصَّر عنها والرفق بالضعيف وإنصاف المظلوم"[4].

ثانياً/ شكل الصورة:

ويقصد بشكل الصورة: البناء الذي تتشكل وفقه مادة الصورة تشكلاً حِجَاجِيّاً من شأنه أن يؤدي إلى الإقناع، لاسيما شكل الصورة الاستعاري والتشبيهي والتمثيلي، فهي أشكال كثيرة الورود في القرآن الكريم ذات خصائص أسلوبية بارزة[5]، تؤدي دوراً مهماً في العملية الحِجَاجِيَّة.

وقد فطن القدماء إلى هذه الحقيقة، وأكدوا في معرض حديثهم في مناسبات عديدة أن القول المجازي أكثر إقناعاً وأبلغ تأثيراً من القول العادي[6].

---

(1) ينظر: معالم التنزيل: 3/ 212، والدر المنثور: 6/ 309.

(2) ينظر: روح المعاني: 8/ 73.

(3) ينظر: التحرير والتنوير: 8/ 211.

(4) التحرير والتنوير: 8/ 210، 211.

(5) ينظر: الحِجَاج في القرآن : 469.

(6) ينظر على سبيل المثال : أسرار البلاغة : 92.

ومدار الحِجَاج في جميع هذه الأشكال يقوم على المعنى المضمر الذي لم يُذْكر في البنية التصويرية[1]، ونمثل لذلك بالشكل: (أ O ← ←ج) حيث O محل شاغر لم يَرِد ذكره في البنية التصويرية، و (أ) المشبه، و (ج) المشبه به. والشكل (O ← ←ج): وينطبق على الاستعارات بمختلف أنواعها وإن كان أظهر في الاستعارة التصريحية حيث يطوى المستعار له فهو شاغر (O) ويذكر المستعار فهو العنصر (ج).

فالصورة عامة، والصورة القرآنية خاصة تحتوي دائماً على محل شاغر، هو بؤرة الحِجَاج ومناطه، ذلك أن المحل الشاغر يبقى دائماً ضمنياً مخفياً، يدعو المتلقي إلى إماطة اللثام والكشف عنه. والسبب في ذلك كونه إما معلومة جديدة بالنسبة للمتلقين أو حكماً جديداً مما لا يمكن تمثله أو قبوله واستساغته في سهولة ويسر.

لذلك كانت الطريقة في إيصال هذه المعلومة الجديدة وتبليغها للمتلقي من خلال استدراجه لما ينشأ عن العنصر المصرح به (ج) من مفهوم ضمني. وهذا بدوره يحث المتلقي ويضطره إلى الانسلاك في دورة الكلام الهادفة لملء المحل الشاغر من خلال المفهوم[2]. فالصورة كلام، نصفه من صنع النص أو المتكلم (وهو المصرح به)، ونصفه من صنع المتلقي، وهو الضمني. وهذا الوضع يكفل للصورة قدرتها الحِجَاجِيّة[3].

وهكذا فالنجاعة الحِجَاجِيَّة في صور القرآن الكريم مستمدة من كونها تدفع المتلقي إلى الإسهام في إنتاج قسم من كلام الصورة، هو القسم الضمني، انطلاقاً من القسم المصرح به فيها.

وما يميز صور القرآن الكريم أن المتلقي يوجه من خلالها ـ توجيهاً صارماً – نحو مفهوم بعينه، لا نحو مفاهيم متعددة مختلفة، وربما متناقضة، وذلك بفضل ما للصورة، وتحديداً

---

(1) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 550- 556.

(2) ينظر : الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية): 555- 556 .

(3) ينظر: نفسه: 562 - 563 .

العنصر المصرح به (ج) من مفهوم أول ملازم له، مرتبط بعالم خطاب المتلقين. فهو بمنزلة المقتضى من حيث أنه معلوم وشبه مسلم به[1].

أولاً الاستعارة:

من الصور الرائعة في البيان القرآني ما جاء على سبيل الاستعارة، "وهي تلك التي تُعَبِّر عن الغرض في تصوير بارع بلفظ قليل، له أثره في نفس السامع من غير إطالة ولا إطناب"[2]، وهو ما عبَّر عنه الجرجاني بقوله: من الفضيلة الجامعة للاستعارة أنها تُبرز هذا البيان أبداً في صورة مُسْتَجَدَّة، وأنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ[3].

كما أنها تركيب يحمل على تخيل صورة جديدة، تكمن روعتها فيما تضمنه من تشبيه خفي مستور[4]، حيث تعمق المعنى عبر محور الاستبدال، وهو اختيار شيء لوضعه في موضع شيء آخر[5]. وفيها يتخلى الدال الأصلي عن مكانه لدال جديد يتخلى بدوره عن مدلوله لتقمص المدلول الأول. فهي إذن ضرب من التصوير تحل فيه صورةٌ مكان صورة أخرى لتكون أقرب إلى ذهن المتلقي[6].

و الاستعارة في تعريف الجرجاني: أن تنقل اللفظ عن مسماه الأصلي، أي ما كان له أصل في الوضع اللغوي معروف تدل الشواهد على أنه اختصَّ به حين وضِعَ، وتستعمله في شيء آخر ثابت معلوم فتجريه عليه، وتجعله متناولاً له[7].

وهكذا يمكن القول إن الاستعارة هي: المجال الذي يخرج فيه اللفظ عن المستوى المعجمي ليعمل أساساً من خلال معانيه الثانوية والمحيطة به، لأن الشيء، كما أشار إلى ذلك

---

(1) ينظر: نفسه: 576.

(2) الصورة الأدبية في القرآن: 58.

(3) نظر: أسرار البلاغة: 42- 43.

(4) ينظر: الصورة الأدبية في القرآن: 59.

(5) ينظر: الأسلوبية و نظرية النص، إبراهيم خليل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1997م: 98.

(6) ينظر: ماهية النص الشعري: 95.

(7) ينظر: أسرار البلاغة: 30، 44 – 45.

ابن رشيق في كتابه العمدة، إذا أُعْطِيَ وصف نفسه لم يُسَمَّ استعارة فإذا أُعْطِيَ وصف غيره سمي استعارة[1].

وقيمة الاستعارة لا يحددها اللفظ المفرد وإن كان هو اللفظ المستعار ذاته، وإنما تكتمل أساساً بتطابق ذلك اللفظ مع ما يلحق به من قرائن، إذ إن للكلام قرائن تحسنه وأخرى تقبحه[2]. كما أن قيمتها لا تظهر بجانب استعارة أخرى، بل لا تظهر قيمتها الجمالية والحِجَاجِيَّة إلا في مجاورتها لقول مألوف (مُخرج مَخرج العادة) لأنها قول غير مألوف (مخرج غير مخرج العادة)؛ وبضدها تعرف الأشياء، مما يؤدي إلى خرق أفق انتظار المتلقي وإحداث مفاجأة ناتجة عن التنوع (تولد اللا مُنتَظَر من المنتظر) لأن الرتابة لا تؤدي إلّا إلى الملل والنفور وليس إلى الإمتاع أو الإقناع[3]. فيما يقرن أرسطو قيمة الاستعارة بثلاث وظائف أساسية ومترابطة، هي الإفهام والتغريب والمتعة[4].

وعلى الرغم من تفاوت آراء النقاد حول قيمة الاستعارة ووظيفتها، وما يمكن أن تؤديه، إلا أنها لا تخرج عن كونها تأتي لتأدية وظائف محددة هي :

- الإيجاز[5].
- الإيضاح[6].

---

(1) ينظر: العمدة: 1 / 430.

(2) ينظر: نفسه : 1 / 431.

(3) ينظر: اللغة والخطاب: 136 .

(4) ينظر: نفسه: 126 .

(5) الإيجاز: ويتمثل في كونها تعبر بالقليل من اللفظ عن الكثير من المعاني، وتقدم الكثير من المعنى بالقليل من اللفظ [ينظر: دلائل الإعجاز:463، وأسرار البلاغة: 43].

(6) الإيضاح والإبانة : وتظهر في تعريف الرماني للاستعارة بقوله: "الاستعارة تعليق العبارة غير ما وضعت في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة."[ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: 85]، كما وردت عند أبي هلال العسكري، حين جعل بناء الاستعارة مرهوناً بأغراض منها فضل الإبانة، قال: " الاستعارة نقل العبارة عن موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إمّا أن يكون شرح المعنى أو فضل الإبانة، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ، أو تحسين المعرض الذي يبرز فيه." [كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر): 268].

- الإمتاع [1].
- الجدة والطرافة[2].

والاستعارة الحِجَاجِيَّة التي نحن بصدد الحديث عنها هي تلك "التي تهدف إلى إحداث تغيير في الموقف الفكري أو العاطفي للمتلقي"[3]. ذلك أنها تحظى بوظيفة استدلالية إقناعية، لكونها تمثل ضرباً من القياس، يقود المتلقي إلى التسليم بالاستنتاج. كما أنها أكثر إقناعاً بفضل المزيج الذي تحدثه بين المستعار والمستعار له، فتؤدي بدورها إلى تغيير المقاييس التي يعتمدها المخاطَب في تقويم الواقع والسلوك، جاعلة بذلك توحد العناصر المنتمية إلى أنظمة مختلفة أمراً مُدْرَكاً[4]. وهذا يؤكد الوظيفة التأثيرية للاستعارة في القرآن من خلال تقديمها لما هو معقول تقديماً حسيّاً، وهو قول رائج في كتب الدراسات الأسلوبية للقرآن [5].

ومن الاستعارات الواردة في سورة الأنعام ما يأتي:

❖ في قوله تعالى:﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:45].

والاستعارة في قوله تعالى: ﴿ دَابِرُ ﴾. والدابر هو التابع، وآخر كل شيء[6]. والأصل في اللفظة، دابرة الفرس وجمعها دوابر، وهي مايلي حافره من خلفه. ودابرة الطائر هي الشاخصة التي خلف رجله [7]. وهذا هو المفهوم الأول عند المتلقي.

---

(1) الإمتاع : وتكمن متعة الاستعارة في كونها " تفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة" [كتاب الصناعتين (الكتابة الشعر:269]، بما تمتلكه من قوة مجازية. كما يذهب عبد القاهر في دلائل الإعجاز إلى أن للاستعارة أثر نفسي يرتبط بغرض الإمتاع، وذلك فيما يتأتى عنها من إيجاد ما يرتاح طبع الإنسان له، ليجد في نفسه هزَّة منه. [ينظر: دلائل الإعجاز: 450].

(2) الجدة والطرافة: تقدم الاستعارة وظائفها المختلفة مقترنة بنوع من التغيير الذي يمنح المتلقي تخييلاً بما تتمتع به من انزياح سياقي يأخذ بناصية المعنى إلى دلالات جديدة هي على حد تعبير عبد القاهر في معرض حديثه عن الفضيلة الجامعة للاستعارة: "تبرز البيان في صورة مستجدة تزيد قدره نبلاً، وتوجب له بعد الفضل فضلاً ". [أسرار البلاغة : 41، 42].

(3) اللغة والخطاب: 134 .

(4) ينظر : الحِجَاج في الشعر العربي القديم: 254 – 253، واستراتيجيات الخطاب: 496.

(5) ينظر: أسرار البلاغة: 32 - 33، ومن بلاغة القرآن: 217، وفي ماهية النص الشعري:97.

(6) ينظر: الكليات: 451 ، وبهجة الأريب: 167.

(7) ينظر: لسان العرب : مادة (دبر).

أما المفهوم الضمني الناتج عنه والمقصود في الآية، وهو ما يجب أن يتوصل إليه المتلقي من خلال تفاعله مع النص هو: تقطع الإمدادات اللاحقة بالظالمين من خلفهم والتالين لهم في غيهم وضلالهم، أو قطع خلفهم من نسلهم فلم تثبت لهم ذرية ولم تبقَ لهم بقية(1). حيث استطاعت الآية من خلال الاستعارة إيصال هذا المفهوم معتمدة على معنى الدابر وإيحاءاتها العالقة في أذهان المخاطبين.

❖ وفي قوله تعالى:﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأنعام:127]

تظهر الاستعارة في لفظة السلام، وهي استعارة تصريحية، فالمفهوم الأول من معنى السلام: الأمن والسَّلامةُ. يقال: سَلِمَ يَسْلَمُ سَلاماً وسَلامةً.

والمراد (هنا) وهو المفهوم الثاني المترتب على المفهوم الأول والناتج عنه الجنَّة، لأنَّها دار السَّلامة، وقد سميت كذلك، لأنها دارُ السلامَة الدائمة التي لا تنقَطع ولا تَفْنى وهي دار السَّلامة من الموت والهَرَمِ والأَسْقام(2)؛ كما أنها محل الأمنة والمنجاة من المخافة(3).

❖ أما (الصراط المستقيم) في قوله تعالى:

- ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:39].
- ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام:87].
- ﴿ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأنعام:126].
- ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام:161].

---

(1) ينظر: تلخيص البيان في مجازات القرآن – الشريف الرضي، تحقيق وتقديم: د/ علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، د.ط، 1986م : 61.

(2) ينظر : لسان العرب : مادة (سلم).

(3) ينظر : تلخيص البيان في مجازات القرآن : 66 .

فتتجلى فيه استعارة تصريحيَّة، حيث شبه الإسلام بالطريق المستقيم، بجامع الاهتداء وعدم الضلال في كل منهما.

قال الراغب الأصفهاني " الصراط الطريق المستقيم"[1]، والطريق المستقيم هو المعلوم أوله وآخره، المعروف بدايته ونهايته، من سار عليه وصل، ولم يضل. وتأسيساً على هذا المعنى، ومن خلال هذه الاستعارة، فالمقصود: أن الإسلام هو دين الهدى والحق، إن حادوا عنه، ضلوا، وإن نكبوا عنه لم يهتدوا، وإن ساروا عليه وصلوا؛ إذ هو طريق الهداية الحقيقية الموصل إلى النجاة.

ومن أبرز الأساليب التي تتجسد فيها الاستعارة (التجسيم):

ويُعَدُّ التجسم من الوسائل المهمة في حِجَاجِيَّة الصورة، فالتجسيم ينقل المعاني من حيز المجرد الذهني إلى حيز المحسوس بواسطة الاستعارة، ذلك لأن النفس أول ما تستقبل المعارف، تستقبلها عن طريق الحواس، وعلى رأسها الحاسة البصرية إحدى نوافذ المعرفة[2]، ما يجعل أسلوب ـ التجسيم ـ من عوامل استمرار تأثير الصورة القرآنية لعلاقتها بالحواس والطبع البشري.

كما أن ارتباط التجسيم بالحاسة البصرية، يجعله أعلى تواتراً وأثراً في تحريك المتلقي، فالعين هي الأداة الأولى والكبرى للإحساس بالجمال الطبيعي والفني والإحاطة بمعانيه، ومن ثَمَّ فالمرئي يكون أكثر الموجودات حضوراً لأنه يتخذ حيزاً مكانياً مقنعاً، لذا فالوعي الأول يكون للبصر، وعلى هذا يكون النص الناجح ما يُري المتلقي بدلاً من سرد المجردات أمامه[3].

يقول " آلان بايفيو " وهو عالم نفسي من جامعة تورنتو بكندا، في نظريته التي أسماها بنظرية الترميز الثنائي أو (المزدوج) Dual coding للمعلومات، إن المعلومات "يجري تمثلها في الذاكرة من خلال نسقين أو نظامين منفصلين لكنهما مترابطان تماماً، هما نظام التفكير

---

(1) المفردات في غريب القرآن : 281.

(2) ينظر : دراسات فنية في القرآن الكريم : 118.

(3) ينظر : نفسه : 119.

بالصورة العقلية والنظام اللفظي. وتقول هذه النظرية كذلك إن نظام الصور يتعلق بالموضوعات والوقائع العيانية (المحسوسة الملموسة) المكانية أو المتصورة، أما النظام اللغوي فيتعلق بالتعامل مع الوحدات والبنى اللغوية المجردة. وعندما يزداد تمثل المعلومة المدخلة إلى الذاكرة لهذين النظامين ... يزداد وجودها داخل العقل بطريقة مناسبة"[1]. كما أن الدراسات التي قامت على فروض هذه النظرية تشير إلى أن الكلمات العيانية التي تستثير الصور العقلية الداخلية تكون أسهل في تعلمها من الكلمات التي لا تفعل ذلك. وتُفسِّر النظرية السهولة في التعلم بافتراضها أن الكلمة العيانية (التي تشير أكثر من غيرها إلى أشياء واقعية محددة) يتم تمثيلها من خلال الصور والمعاني اللفظية؛ فلها شكل خاص، ولون خاص، وملمس خاص ورائحة خاصة .. إلخ، كما أن لها اسما خاصاً يطلق عليها، لذلك تدخل مثل هذه الكلمات كلاً من نظام الذاكرة الخاص بالصور والنظام الخاص بالكلمة، بينما توضع الكلمات المجردة في النظام اللفظي فقط، ذلك لأنها لا تمتلك إحالات واقعية قوية، كما هو الحال في الكلمات الخاصة بالأشياء الواقعية أو العيانية. هذه الثنائية في التمثل والتخزين في الذاكرة تجعل هناك ثنائية في الوسائل التي يمكن من خلالها استدعاء الكلمات العيانية، ومن ثَمَّ تكون الذاكرة أفضل بالنسبة إلى هذه الكلمات[2].

فللمشاهدة إذن أثر كبير في ثبات المعاني وإدراكها؛ ذلك أنها انتقال في الشيء عن الصفة والخبر إلى العيان ورؤية البصر، يقول عبد القاهر الجرجاني: "فإنَّا نعلم أن المشاهدة تؤثر في النفوس مع العلم بصدق الخبر، كما أخبر الله عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام"[3] في قوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا

(1) عصر الصورة، السلبيات والإيجابيات – د/ شاكر عبد الحميد، العدد (311)، ذو القعدة 1425هـ – يناير 2005م : 153.

(2) ينظر: عصر الصورة : 154.

(3) أسرار البلاغة: 126 .

وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:260]، ويمثل لذلك بقوله: "ولو أن رجلاً أراد أن يضرب لك مثلاً في تنافي الشيئين فقال: (هذا وذاك هل يجتمعان؟)، وأشار إلى ماء ونار حاضرين، وجدتَ لتمثيله من التأثير ما لا تجده إذا أخبرك بالقول فقال: (هل يجتمع الماء والنار ؟). وذلك الذي تفعل المشاهدة من التحريك للنفس، والذي يجب بها من تمكن المعنى في القلب إذا كان مستفاد من العيان، ومتصرفة حيث تتصرف العينان، وإلا فلا حاجة بنا في معرفة أن الماء والنار لا يجتمعان إلى ما يؤكده من رجوع إلى المشاهدة واستيثاق تجربة"[1].

وهكذا يمكن القول: إن التجسيم يخاطب البصر وصولاً إلى البصيرة، إنها عملية تحويل لمخاطبة الحواس قبل العقل، كما أن فيه بالإضافة إلى جمال الاستعارة، جمال انتقاء الكلمة الحسية بما يراعي المواقف وخصوصيتها. فجانب الحِجَاج في التجسيم يمكن استيعابه من الكلمة المجسمة من خلال العودة إلى الأصل الحسي وفاعليته، والنظر في السياق المنزاح عن المعجم، وملاحظة ما يكتسبه هذا الحس من روحانية عند اجتماعه بالجانب الذهني.

❖ من ذلك ما جاء في قوله تعالى:﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:25].

وفيها استعارة تصريحية، حيث شبه الجحود والإنكار، والكبر والعناد وهي الأمور التي تُعْمِي البصيرة، بالأكنة.

والأكنة: جمع كِنَانٍ، وهي الأغطية[2]. والمعنى المألوف والمسلم به عند المتلقين أن الأكنة أغطية تغطي الشيء وتمنع الوصول إليه أو الاطلاع عليه. وهو معنى ملازم لعالم الخطاب عند المتلقين، لذا أصبح الجحود والإنكار والعناد، من خلال هذه الاستعارة، غطاءٌ يُغلَّف به القلب فلا يفقه شيئاً ولا يعي شيئاً. من ذلك ما روي أن رجلاً قال لعمرو بن العاص: "إنكم

(1) نفسه : 127 .

(2) ينظر: بهجة الأريب: 166.

على كمال عقولكم [...]، عبدتم الحجر. فقال عمرو: تلك عقول كادها باريها. فهذا الذي أخبر الله سبحانه وتعالى من سخافة العرب وجهلهم"[1].

فمن خلال هذه الاستعارة، جُسِّمت الأمور النفسية المعنوية، وأصبحت ظاهرة للعيان، يتأملها المتلقي ويلاحظها، فيزداد إدراكه وفهمه للمعنى المراد إيصاله، ومن ثم يحدث لديه التأثير والإقناع، وهي الغاية من هذا التصوير.

❖ ومن صور التجسم في السورة الكريمة ما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام:٣١].

والوِزْرُ الحِمْلُ الثقيل، والوِزْرُ الذَّنْبُ لِثِقَلِهِ وجمعها أَوْزارٌ. ويقال: وَزَرَ يَزِرُ إذا حمل ما يُثْقِلُ ظهرَه من الأشياء المُثْقِلَةِ ومن الذنوب، ووَزَرَ وِزْراً حمله[2].

لذا تظهر صورة الذنوب في الآية وكأنها أثقال تُحْمَل على الظهور. والحمل الثقيل على الظهر مما يُتعِب الإنسان ويعسر عليه الحركة، فضلاً عن الألم الشديد الذي يلحق جراء الحمل الثقيل، وهي نتيجة ما جمعوه لأنفسهم، وادخروه لآخرتهم.

فالمعنى المصرح به: أن الحمل الثقيل على الظهر يسبب التعب والألم. إذن الذنوب التي ارتكبوها ستكون عليهم حملاً ثقيلاً وسوف تسبب لهم الألم والحسرة والندامة، وهو المعنى المراد التوصل إليه من خلال هذا التصوير.

❖ وفي قوله تعالى ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام:93] .

---

(1) الجامع لأحكام القرآن: 7/ 90.

(2) ينظر: معجم مقاييس اللغة – أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل: 6/ 108.، ولسان العرب : مادة (وزر).

وغمرات الموت فيها تجسيم عجيب. وقد سميت (كربة الموت) غمرة، لأنها "تغمر قلب الإنسان آخذة بكظمه وجاثية على متنفسه"[1]. والأصل في جميع ذلك غمرة الماء، جاء لسان العرب: الغَمْرُ الماء الكثير، و ماء غَمْر كثيرٌ مُغَرِّقٌ بيّن الغُمورةِ وجمعه غِمار وغُمور. وغَمَره الماء يَغْمُرُه غَمْراً واغْتَمَره عَلاه وغَطّاه، ومنه قيل للرجل غَمَرَه القومُ يَغْمُرونه إذا عَلَوْه شرفاً[2].

فجاءت صورتهم كمن تتقاذفهم غمرات الماء، غير مستقرين، ولا مطمئنين، شاخصة أبصارهم، وأفئدتهم هواء. وهو تجسيم يصور بدقة ما يحدث للظالمين عند الموت من غصص الموت وسكرته وذهوله وكربته. وهذا هو المعنى المراد إيصال المخاطَب إليه.

❖ كما يظهر التجسم واضحاً جلياً في تصوير " الإثم " بالشيء المادي، وزيادة في تجسيمه يبرز له ظاهر وباطن، قال تعالى: ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٠].

والمفهوم منه أن ظاهر الإثم: أفعال الجوارح، وباطنه أفعال القلب كالحسد والكبر والعجب والرياء[3]. ومنه أيضاً أفعال السر والعلن[4]. وكلها أمور معنوية، إلا أن تصوير الإثم بالشيء المادي له ظاهر وباطن، يعمل على تقريب معنى الإثم إلى أذهان المخاطبين، كونه شابه ما يعرفونه من الأشياء. ففيه تقريب أكبر، وتصوير أدق، حيث يظهر هذا الإثم بأحجام وأشكال مختلفة تتعدد بتعدد أنواعه، كما يصبح بهذا التجسيم شيئاً مُدْرَكاً يمكن مشاهدته وقياس أبعاده، وملاحظة نتائجه.

❖ ومن ألوان التجسيم أيضاً، ما يتمثل في التعبير عن معنى من المعاني، أو حالة من الحالات، وإظهارها للعيان في صورة متحركة، منها ما جاء في قوله تعالى :﴿ وَمَنْ

---

(1) تلخيص البيان في مجازات القرآن: 63 .

(2) ينظر : لسان العرب، مادة (غَمَرَ).

(3) ينظر : بصائر الحق في سورة الأنعام: 114 .

(4) ينظر: الكشاف : 2/ 57 .

الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأنعام:142].

والخُطْوة بالضم ما بين القدمين والجمع خُطىً وخُطْوات وخُطُوات. وخَطَا خَطْواً واختطا واخْتاطَ مَشَى. ولا تَتَّبِعوا خُطُوات الشيطانِ قيل هي طُرُقه، فالمعنى لا تَسْلُكوا الطريق التي يدعوكم إِليها[1]. أي ما يدعوكم إليه من تحليل وتحريم، لأنه لا يريد بكم إلا الشر[2].

واتباع الخطوات استعارة تمثيلية؛ أصلها أن السائر إذا رأى آثار خطوات السائرين تبع ذلك المسلك علماً منه بأنه ما سار فيه السائر قبله إلا لأنه موصل للمطلوب، فشبه المقتدي الذي لا دليل له سوى المقتدى به وهو يظن مسلكه موصلاً، بالذي يتبع خطوات السائرين. وهي استعارة تمثيلية شاعت حتى صاروا يقولون: هو يتبع خُطا فلان بمعنى يقتدي به ويمتثل له[3].

وفي (اتباع خطوات الشيطان) تصوير وتخييل لحركة خاصة، هي حركة الشيطان يخطو والناس وراءه يتبعون خطواته. وهي صورة حين تُجَسَّم هكذا تبدو عجيبة من الآدميين، مع ما هو واقع بينهم وبين الشيطان الذي يسيرون وراءه، وهو الذي تسبب في إخراج أبيهم من الجنة[4].

ثانياً/ التمثيل:

التمثيل هو انتقال من تجريد إلى تجسيد، من مقال إلى مثال، من خفي إلى جلي[5]. والاستدلال بواسطة التمثيل "يعني تشكيل بنية واقعية تسمح بإيجاد أو إثبات حقيقة عن

---

(1) ينظر: لسان العرب : مادة (خطا).

(2) ينظر : الكشاف : 2/ 69 .

(3) ينظر : التحرير والتنوير : 2/ 103.

(4) ينظر : التصوير الفني في القرآن : 64- 65 .

(5) ينظر : البلاغة والاتصال: 171.

طريق تشابه في العلاقات، فهو احتياج لأمر معين عن طريق علاقة الشبه التي تربطه بأمر آخر"[1]. وهو بذلك لا يقيم تشابهاً بين عنصرين اثنين بل بين بنيتين اثنتين.

وصور التمثيل في القرآن الكريم كلها صور بديعة حية شاخصة، "ولئن كان القرآن قد أكثر من صور التمثيل في آياته، فما ذاك إلا لتلك الآثار النفسية العميقة التي تبدو واضحة جلية عند الوقوف على كل صورة من هذه الصور، حيث تتعمق النفوس، وحيث تحيل المعاني المجردة الذهنية إلى مشاهد محسوسة، وتكاد تعيش فيها، إن لم تكن عاشتها بالفعل نفوس الناس أجمعين"[2].

وأنس النفوس كما يقول عبد القاهر الجرجاني "موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم ثقتها به في المعرفة أحكم"[3]، ذلك أن العلم " المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يَفْضُل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية (التمام) كما قالوا: (ليس الخبر كالمعاينة)، و (لا الظن كاليقين) "[4].

وتكمن حِجَاجِيَّة التمثيل في كونه عندما يرد في أعقاب المعاني الغريبة"أو التي هي مظنة شك من قبل المتلقي، فإنه يكون بَيِّنَةً وحُجَّةً تثبت صحة أو إمكانية تحقق هذه المعاني"[5]. لذا كانت تقنية التمثيل وفاعليته الإقناعية في الخطاب الحِجَاجِي مناط تركيز وبحث موسع من قبل بيرلمان وغيره ممن كتبوا في الحِجَاج، إذ هي عمدة في كثير من المحاجات من جهة، وذات قوة إقناعية كبيرة من جهة ثانية. وتقع هذه التقنية في أهم الأشكال البيانية من تشبيه واستعارة،

---

(1) الحِجَاج في الشعر العربي القديم : 252 .

(2) الصورة الأدبية في القرآن: 56 .

(3) أسرار البلاغة: 121 .

(4) نفسه : 121 .

(5) البلاغة والاتصال : 171 .

وذلك لقيامها على فكرة المشابهة التي تكسب المشبه حكم المشبه به لتحقق العلة الحقيقية للحكم فيه[1]. وهو ما نسعى لتوضيحه والكشف عنه فيما يأتي.

ومن أنماط التمثيل التي أدت دوراً حِجَاجيّاً فاعلاً في السورة ما يأتي:

❖ قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:71].

وهو مثل ضربه الله تعالى لمن هَمَّ بالكفر بعد إيمانه بتأثير أهل الباطل وإغوائهم، وإفسادهم، واتبع الشياطين من أهل الشرك بالله، بحال الذي فسد عقله باستهواء من الشياطين، فتاه في الأرض بعد أن كان عاقلاً عارفا بمسالكها، وترك رفقته العقلاء المقيمين على الدين الحق يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه؛ يقولون له ﴿ ائْتِنَا ﴾ وهو يأبى ذلك متبعاً داعي الشيطان، وعابداً للآلهة والأوثان[2].

وفي هذا التصوير خرجت الفكرة المجردة المبهمة في صورة تجسيدية محسوسة، حيث شبه الارتداد بعد الإيمان بذهاب عقل المجنون، وشبّه الكفر بالهيام في الأرض، والمشركين الذين دعَوْهم إلى الارتداد بالشياطين ودعوة الله الناس للإيمان ونزول الملائكة بوحيه بالأصحاب الذين يدعون إلى الهدى[3]. فرسمتْ بذلك مشهداً يضج بالحركة، تنبعث فيه الحياة، ينفذ إلى العقل والوجدان ويؤثر فيهما. ففي وصف الحيرة والاضطراب والتمزق النفسي، الذي يقع فيه كل من استهوته الشياطين، والتي يفهمها المتلقي، ويدركها بالفعل، تقريب كبير لما ينتاب الإنسان المبتعد عن ذكر الله – عز وجل– من ضيق وتوتر وحيرة كبيرة تفقده اتزانه وتركيزه

---

[1] ينظر: نفسه: 122، 174.

[2] ينظر: الجمان في تشبيهات القرآن – أبو القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي (485هـ)، حققه وشرحه: د/ محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط1، المحرم 1423هـ - نيسان أبريل 2002م: 65، والتحرير والتنوير: 7/ 302، وفي الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم: 172.

[3] ينظر: التحرير والتنوير: 7/ 303.

وتضعف قواه فتجعله متخبطاً في الحياة، لا يفرق بين الحق والباطل، وهو المعنى الذي تسعى الآيات الكريمة إلى إيصاله من خلال هذا التمثيل.

❖ وفي قوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:122].

فالظاهر أن من كان ميتاً ومن مثله في الظلمات، هو من قبيل الاستعارة التمثيلية، وهو ما نص عليه القطب الرازي، "إذ لا ذكر للمشبه صريحاً ولا دلالة بحيث ينافي الاستعارة، والاستعارة الأولى بجملتها مشبهة والثانية مشبه به. والتفسير المأثور عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالميت الكافر الضال وبالإحياء الهداية وبالنور القرآن[1] وبالظلمات الكفر والضلالة"[2].

وفي تصوير الهداية بالنور، بيان رائع يعبر عن أثر الإيمان في حياة القلوب، فالإيمان تفتح ورؤية، وإدراك واستقامة، وانشراح ويسر وطمأنينة، فهو نور بكل مقومات النور. وهو اتصال، واستمرار، واستجابة، فهو الحياة بكل مقوماتها. وعلى نقيضه تصوير الكفر وتبعاته، بالظلمات التي تغشى قلب الكافر فتحجبه عن إشراقه اليقين، وتختم على الجوارح والمشاعر، فتجعله في تيه وظلال، فهو ظلمة كما أن الكفر انقطاع عن الحياة الحقيقية الأزلية الأبدية، التي لا تفنى ولا تغيب. وهو انطماس في أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية. لذا فهو موت[3].

---

(1) وفي «النور» جاءت ثلاثة أقوال.

أحدها: أنه الهدى، قاله ابن عباس. والثاني: القرآن، قاله الحسن. والثالث: العلم [ينظر: زاد المسير: 3/ 117]. والنور هو: "نور الحجج والآيات يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل، والمحق والمبطل" [ينظر: بصائر الحق في سورة الأنعام: 116]. وقيل: النور هو الإسلام، لقوله تعالى "﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:257].

(2) روح المعاني: 8/ 18.

(3) ينظر: في ظلال القرآن: 3/ 1200، والتعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم– د/ محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، ط2، 2002م: 295.

وفي ذكر الظلمات والتمثيل بها، بيان لحيرة الكافر وحسرته الشديدة حيث لا يجد ملجأً ولا خلاصاً. وقوله تعالى: ﴿ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ﴾ [الأنعام:122] يعني: من ظلمة الكفر[1]. وهو مثل لمن بقي على الضلالة والأهواء لا يفارقها بحال، ولا يهتدي فيها إلى منفذ[2]، سيق لتنفير المسلمين عن طاعة المشركين إثر تحذيرهم، بالإشارة إلى أنهم مستضيئون بأنوار الوحي الإلهي والمشركون غارقون في ظلمات الكفر والطغيان فكيف يعقل طاعتهم لهم[3].

وغاية هذا التمثيل هو الإبانة عن حقيقة الهدى والضلال، وما يبدو فيها من تشبيه ومجاز إنما هو لتجسيم هذه الحقيقة في الصورة الموحية المؤثرة[4]، فتضع المتلقي أمام (نقيضين) لا يمكن الجمع بينهما، أفمن نفخ الله في روحه الحياة، وأفاض على قلبه النور. كمن حاله أنه في الظلمات، لا مخرج له منها؟ إنهما عالمان مختلفان شتان بينهما! والفرق المادي بين هذين النقيضين يظهر التناقض التام بين الحق والباطل والشرك والإيمان. حيث توضح البون البعيد والفارق الشاسع بين صفتي الإيمان والكفر وما يتبعهما من آثار في سلوك كل من الفريقين، فكما أن الظلمة والنور، والحياة والموت لا يستويان فكذلك المؤمن والكافر[5].

❖ وفي قوله تعالى: ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:125].

شبه حال الضال في شدة ضلاله، لا يصل إليه شيء من الإيمان أو الخير، بل ويجد صعوبة شديدة في تقبل شيء منه، بحال من يصعد ويتكلف الصعود في السماء، أي بحال من يطلب

(1) معالم التنزيل: 3/ 184.
(2) ينظر: تفسير القرآن العظيم: 3/ 330.
(3) ينظر: روح المعاني: 8/ 18.
(4) ينظر: في ظلال القرآن: 1200/3.
(5) ينظر: في ظلال القرآن: 1200/3– 1201، والتعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم: 294، 296.

منه عمل أمر صعب لا يقدر عليه. إنها حالة نفسية جُسِّمت في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر، والرهق المضني في التصعد إلى السماء[1].

والقيمة السلبية في هذا التشبيه التمثيلي والمتمثلة في أذهان المتلقين، هي: الصعوبة الشديدة في صعود السماء.

والمعنى المراد التوصل إليه من خلال هذا التمثيل والحاصل انطلاقاً من الدلالة السلبية وبناء عليه وهو المطلوب لملء المحل الشاغر: يتمثل فيما يشعر به الضال العاصي المبتعد عن طاعة الله، من الضيق الشديد الناجم عن الشعور بحالات نفسية متعددة (إحباط – اكتئاب – ... إلخ)، وهذا ما يفسر حالات الانتحار العديدة في الغرب ونسبتها المرتفعة، مع ما وصلوا إليه من رخاء مادي وتطور علمي.

❖ وفي قوله تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[الأنعام:39].

يتجلى التمثيل في قوله تعالى:﴿ صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ حيث يظهر مفهوم الكفر وهو أمر معنوي في صورة حسية، تقرب المعنى، وتوضح المفهوم بالاعتماد على المفهوم الأول العالق في أذهان المخاطبين لصورة الأصم الأبكم الباقي في الظلمات، بما فيها من تيه ورهبة وفزع، ذلك أن الظلمة تسد البصر وتمنع الرؤية[2]، كما أن الصمم والعمى: الجهل، قال الشريف الرضي: " وفي لسانهم وصف الجهل بالعمى والعمه ووصف العلم بالبصر والجلية"[3].

وفي هذا التمثيل تقرير لما وراء الهدى والضلال من مشيئة الله وسنته، ما يدل على فطرة الله للناس في حالات الهدى والضلال.

---

(1) ينظر : في ظلال القرآن: 3/ 1203.

(2) ينظر: الكشاف : 2 / 147.

(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن : 121.

فمن ترد عليه آيات القرآن بما فيها من فاعلية وإيقاع وتأثير، ثم لا يتأثر، إنما هو أصم. وإن من يمر على آيات الله في صفحات الوجود المبثوثة في هذا الكون، هو أعمى لا يبصر. فهم "صم لا يسمعون، بكم لا يتكلمون، غارقون في الظلمات لا يبصرون، إنهم كذلك لا من ناحية التكوين الجثماني المادي، فإن لهم عيوناً وآذاناً وأفواهاً ولكن إدراكهم معطل، فكأنما هذه الحواس لا تستقبل و لا تنقل"[1]، فهم في جهلهم غارقون، والمعنى أنك لا تستطيع إقناع الجاهلين، وهو ما تسعى الآية من خلال هذا التصوير إلى إيصاله لذهن المخاطَب.

ثالثاً / المشهد :

والمشهد: تشكيل لغوي ذو طبيعة بصرية أو سمعية "يرتبط بأسباب الحوادث التي تلقيها حقائق الموجودات، يجسد من خلالها مجموعة من العلاقات المترابطة بمستويات متعددة من البناء الفني والأداء الجمالي المؤسس على الصورة واللغة والإيقاع"[2].

والمشهد في اللغة كما ورد عند ابن دريد " الموضع الذي يُشَاهِد فيه القومُ القومَ، أي يحضر بعضهم بعضاً"[3]. وفي اللسان: شهد فلان على فلان فهو شاهد وشهيد، والمشاهدة : المعاينة. وشهده شهوداً أي حضره، فهو شاهد وقوم شهود أي حضور، والمشهد: المجمع من الناس، والمشهد : محضر الناس، ومشاهد مكة: المواطن التي يجتمعون بها[4].

وفي مفردات غريب القرآن: "الشهود والشهادة : الحضور مع المشاهدة، إما بالبصر أو بالبصيرة، ويقال : لكن الشهود بالحضور أولى، والشهادة مع المشاهدة أولى، ويقال للمحضر

---

(1) في ظلال القرآن :2/ 1080– 1081.

(2) مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم ، فوزي علي علي صويلح – رسالة ماجستير، جامعة إب ، 1996م : 22. وقد وُضِعَ هذا التعريف للمشهد بعد تأصيل وتنظير قام به الباحث لهذا المصطلح في اللغة والأدب والفلسفة وغيرها من العلوم.

(3) جمهرة اللغة – ابن دريد، تحقيق د/ رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1987م: مادة (شهد): 2/ 653.

(4) ينظر: لسان العرب – ابن منظور : مادة (شهد) .

مشهد، وللمرأة التي يحضرها زوجها: مُشْهِد – بضم الميم وكسر الهاء – ومنه مشاهد الحج"[1].

أما المشهد في الاصطلاح: فإنه يأخذ تفسيرات متعددة بحسب المناهج والنظريات المختلفة: الفلسفية، والسلوكية، والفنية، والأدبية، والرواية والمسرح وغيرها، لذا فإن الاتفاق على تحديد مفهوم اصطلاحي للمشهد يستدعي العودة إلى القديم والحديث لتلك المناهج، من أجل وضع تعريف محدد تلتقي عنده كافة التعريفات، أو توشك[2]. إلا أنه ومع تعدد النظريات والمناهج نجده، وفي كل الأحوال، يشمل أحداثاً وشخصيات، ويحوي مكاناً وزماناً وحركة إيقاعية[3].

وما ترسمه الصور من مشاهد متعددة تختلف باختلاف عناصرها ومكوناتها، بوصفها تشكيلاً لغوياً يقوم على الصورة والحركة والإيقاع، تجعل المتلقي يعيش في أجواء ذلك المشهد، يتنقل في جنباته كما لو كان حاضراً شاهداً للحدث في الزمان والمكان. وهذا ما يميز المشهد، فهو يعمل على إحضار المتلقي وجذبه إلى ساحة الحدث، وهو أسلوب يجعل المتلقي أكثر فهماً وإدراكاً من مجرد الإخبار كونه حاضراً شاهداً ومعايناً للموقف، " فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة؛ وحتى ينقلهم إلى مسرح الحوادث الأول، الذي وقعت فيه أو ستقع؛ حيث تتوالى المناظر، وتتجدد الحركات؛ وينسى المستمع أن هذا كلام يُتْلَى، ومثل يُضْرَب؛ و يتخيل أنه منظر يُعْرَض، وحادث يَقَع"[4]، متابعاً كل ما فيه من شخوص متحركة، وانفعالات منبعثة، وكلمات تلهج بها الألسنة، تتناسب مع الحوادث، فتنم عن الأحاسيس المضمرة.

كما أن التصوير بالمشهد يعمل على تربية وإعمال الحواس، لاسيما (السمع والبصر)، اللذان يرتبطان بالعقل أشد ارتباط، لأن كلاً منهما يؤدي إلى الآخر. ففي أغلب المشاهد نجد

(1) المفردات في غريب القرآن: 227.

(2) للاستزادة، ينظر تعريفات المشهد في جميع تلك الفنون : مشاهد الطبيعة في القرآن: 13 – 19 .

(3) ينظر: مشاهد القيامة في القرآن – سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط15، 1425هـ – 2004م: 10.

(4) التصوير الفني في القرآن : 32 .

حضوراً لدلالتها (انظروا)، (اسمعوا)، (يبصرون)، ولو (ترى). فيؤدي بالمتلقي من خلال إعمال الحواس إلى إحياء هذه المشاهد في النفس، وتقوية أثرها في الحس، فتُدْرَك الحقائق، ويَتَقَارَب البعيد، وتَذوب الفوارق الزمانية والمكانية، وهنا تكمن الطاقة الحِجَاجِيَّة للمشهد.

قال تعالى:﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ۝ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ۝ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ۝ ﴾ [الأنعام: 22 - 24].

يُظْهِرُ المشهد موقفاً من مواقف الحساب يوم القيامة، مع ما فيه من رهبة وجلال، فالجميع واقفون أمام الله عز وجل، ليس بينه وبينهم ترجمان، لا يعرفون بأيهم ستكون البداية، في حين يتوجه السؤال للمشركين منهم خاصة ﴿ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾؟ ثم لا يملكون إلا أن ينكروا ما كانوا عليه من شرك، متناسين أنهم في موقف العرض على الله سبحانه وتعالى.

وفي الفعل (انظر) من دلالة ما يضع المتلقي في جو المشاهدة الحقيقية للموقف، والمتابعة لكل ما يحدث أمامه لهؤلاء المكذبين من أحداث الحساب، فيجعله أكثر إدراكاً ويقيناً بصدق الوعد، وقرب يوم الجزاء.

من ذلك أيضاً تصوير اللحظات التي يعيشها هؤلاء المشركون المكذبون، وهم واقفون أمام النار، يعتصرون حسرة وندامة على ما فرطوا في دنياهم، ثم تمنيهم العودة إلى الدنيا ليعملوا بعمل أهل الصلاح، وينتقلوا إلى دار النجاة والفلاح.

قال تعالى :﴿ وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝﴾[الأنعام: 28- 29].

كما نجد القرآن الكريم يسعى من خلال المشاهد إلى تحريك الحواس البشرية المتبلدة، هذه الحواس التي يتوصل من خلالها الإنسان إلى الحقائق، وعن طريقها يصل إلى ما خفي عنه

بإحالتها إلى العقل، خاصة فيما يتعلق بجمال خلق الطبيعة التي تعمى عن رؤيتها الأبصار وتتجاهل روعتها الأفئدة. من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام:99] ، إنها تدعو للتأمل وإعمال الذهن والفكر وتحريك العقل (أنظروا) ، لم يقل كلوا، مع أن الحديث في الآيات عن الثمار، إنها نظرة التأمل التي يتجاهلها كل معرض عن آيات الله المبثوثة في هذا الكون. حيث يتجلى هذا التصوير عن مشهد يأسر القلوب، ويسبي النفوس، إنه مشهد رائع تظهر فيه السماء متلبدة بالغيوم، ثم قطرات المطر تتساقط، فتتلقاها صفحات الأرض المترامية، ثم يتلو ذلك صور النبات وهو يشق تلك الصفحات ليتجلى عن نبات أخضر لا يلبث حتى تتغير ألوانه، وتختلف ثماره، وتتعدد أشكاله وأحجامه. إنه مشهد يبعث الروعة في النفس، ودعوة للنظر والتأمل تشترك فيها الحواس وتتضافر جميعها، لتؤكد لبعضها روعة هذا الخلق وإبداع صنعه الذي يدل على كمال قدرة الخالق وحكمته.

وفي قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:59] .

ومفاتح الغيب، استعارة تخييلية، مبنية على مكنية، بأن شبِّهت الأمور المغيبة عن الناس بالمتاع النفيس الذي يُدَّخر بالمخازن والخزائن المستوثق عليها بأقفال بحيث لا يعلم ما فيها إلا الذي بيده مفاتحها. وأثبتت لها المفاتح على سبيل التخييل، والقرينة هي إضافة المفاتح إلى علم

الغيب، فقوله (عنده مفاتح الغيب) بمنزلة أن يقول : عنده علم الغيب الذي لا يعلمه غيره[1].

كما نرى الخيال البشري من وراء هذا المشهد المبني على التخييل يرتاد آفاق واسعة جداً، إنها آفاق الطبيعة معلومها ومجهولها، تتحرك فيه جميع الحواس : السمع والبصر والشم واللمس، وهو يتتبع علم الله في أرجاء الكون الفسيح، ووراء هذا الكون المشهود، فيجول في مجاهل البر وفي غيابات البحر المكشوفة كلها لعلم الله [2] .

فتتسع بذلك دلالة الاستعارة والتخييل، لتحقق مقصداً فكريّاً هو بيان قدرة الله سبحانه وتعالى وتفرده بعلم الغيبيات.

المشاهد الحوارية :

وهي من المشاهد التي كان لها حضور فاعل في السورة الكريمة، لما لها من أثر في إقناع المخاطَب؛ حيث تُسْهِم المشاهد الحوارية في بَث الحيوية في النص من خلال استحضار الشخوص أمام المتلقين و"ليس أفضل في معرفة الشخصيات ودخائل نفوسهم ووجهات نظرهم المختلفة مثل سماعهم يتكلمون بأنفسهم أو يُحاجج بعضهم بعضاً"[3] .

منها ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام:128] .

وقوله تعالى:﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام:130] .

---

(1) ينظر : التحرير والتنوير: 7/ 270 – 271.

(2) ينظر : في ظلال القرآن: 2/ 1112 .

(3) دراسة جمالية بيانية في أربع سور: 120 .

وفي هذا التصوير عرض للحقائق أمام المخاطَب (يسمع ويرى ويتابع)، الأمر الذي يجعله أكثر اقتناعاً عندما يشاهد النهاية التي وصل إليها كل ظالم لنفسه، ثم يدرك ويستشعر ما يمر به الظالمون من لحظات الألم، ومشاعر الحسرة والندم، لِتَصِل به قناعته إلى أن من يسلك طريقهم، سيصل به المآل إلى ما آلوا إليه. وهكذا يظهر لهذا الأسلوب وطريقة العرض للمشاهد قوة في التأثير وقوة في الإقناع.

المبحث الثاني:

بلاغة الإيقاع ودوره في التأثير والإقناع.

إن آفاق التصوير في القرآن الكريم واسعة جداً "فهو تصوير باللون، وتصوير بالتخييل، كما أنه تصوير بالنغمة تقوم مقام اللون في التمثيل، وكثيراً ما يشترك الوصف والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى السياق في إبراز صورة من الصور تتملاها العين والأذن، والحس و الخيال، والفكر والوجدان"[1].

ولما للإيقاع الصوتي من دلالات بلاغية مؤثرة، لا تقل في أهميتها عن دلالة الألفاظ والتراكيب، وجماليات الصورة؛ فقد خصصنا هذا المبحث لدراسة البنية الإيقاعية في السورة. فالإيقاع ظاهرة فنية بارزة في القرآن الكريم، وهو أحد الطرق الكثيرة في تأدية المعاني والمقاصد و تمكينها.

مفهوم الإيقاع:

لغة: نجد لفظة الإيقاع مشتقة أصلاً من اليونانية بمعنى الجريان أو التدفق[2]. وفي المعاجم العربية، نجده مستمداً من وقع المطر إذا وبل، وهو شدة ضربه الأرض إذا وبل، وهو إيقاع اللحن و الغناء، وهو أن يوقع الألحان ويبينها[3].

والإيقاع عبارة عن نظام صوتي، أي التردد المتواصل لنظام معين، وظيفته استيقاد الطاقة الشعورية، وهو جزء من دلالة التعبير المعنوية اللغوية[4]. فهو "الفاعلية التي تنتقل إلى المتلقي ذي الحساسية المرهفة الشعور بوجود حركة داخلية، تمنح التتابع الحركي وحدة نغمية عميقة"[5]. ويحدث الإيقاع بالإفادة من جرس الألفاظ وتناغم العبارات في الكلام المنثور أو المنظوم الناتج عن تجاوز أصوات حروف اللفظة الواحدة، وعن نسق تزاوج

(1) التصوير الفني في القرآن: 33.

(2) ينظر: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكمال المهندس، مكتبة لبنان ـ بيروت، ط2، 1984م: 71.

(3) ينظر: لسان العرب، مادة (وقع).

(4) ينظر: النقد الأدبي أصوله ومنا هجه – سيد قطب، دار الفكر العربي، ط2، 1954م:55 – 56.

(5) في البنية الإيقاعية للشعر العربي – د/ كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت- لبنان، ط 2، 1981م: 230- 231.

الكلمات فيما بينها لإحداث التوافق الصوتي بين مجموعة من الحركات والسكنات لتأدية وظيفة سمعية، والتأثير في المستمع تأثيراً ناتجاً عن استجابة ذوقية تُمتّع الحواس وتثير الانفعالات[1].

ويُعَدُّ الإيقاع ظاهرة أسلوبية أكثر منه ظاهرة لغوية، فهو شيء يضاف إلى اللغة، وظواهره الفنية تعود إلى عوامل عدة، أسلوبية في الأساس، عضوية، ونفسية، واجتماعية وحضارية، تتعلق بظروف البث اللغوي بين الباث والمتلقي[2].ذلك أن اللغة "بعد أن تصبح قادرة على أداء وظيفتها في التفاهم بين أبناء المجتمع الواحد، تكتسب في نفوس أبنائها مكانة تتجاوز حد التفاهم إلى صورة تُعبِّر عن الفكر والحضارة والفن، ومن ثَمَّ فإن الإنسان لم يَعُد يكتفي من اللغة بمجرد الفهم والإفهام، بل راح يتلذذ بالجرس الحسن والصيغة الجميلة، والتعبير المحكم، والصورة البيانية الرائعة"[3] .

واللغة العربية في جملتها "لغة تصويرية، وفن منظوم منسق الأوزان والأصوات"[4]. وهذا ما يفسر امتياز العرب برهافة الحس، إذ كانوا يتأثرون أشد التأثير بما يسمعون، بل كان للكلمة عندهم قدسيتها، حيث تفعل فعلها إلى أبعد مدى، نجدهم يحاربون ويصالحون، ويكرمون ويُضَحُّون نتيجة سماعهم كلمات مؤثرة؛ فجاء إدراكهم للقيمة الموسيقية في القرآن الكريم بسبب معايشتهم لفن الشعر والخطابة واهتمامهم البالغ بالكلمة [5]. وكان هذا الجمال الصوتي في القرآن كما يقول الزرقاني " أول شيء أحسته الآذان العربية أيام نزول القرآن

---

(1) مدخل لدراسة الإيقاع في قصيدة الحرب - عبد الرضا علي، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد (8) لسنة 1989م: 32 . و الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي - د/ عبد القادر فيدوح، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1992م: 335.

(2) ينظر : الإيقاع والظواهر الإيقاعية في القصيدة الحديثة، عدنان بن ذريل، الموقف الأدبي ، العدد (217 و218 و219): 93.

(3) المدخل إلى علم الأصوات العربية - د/ غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط 1، 1425هـ : 264.

(4) الدراسة الأدبية : 37 .

(5) ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم: 251.

الكريم، ولم تكن عهدت مثله فيما عرفت من منثور الكلام، سواء أكان مرسلاً أم مسجوعاً، حتى خُيِّل إلى هؤلاء أن القرآن الكريم شعر"[1].

وإذا كان الإيقاع قد تجسد في القرآن الكريم، فما ذاك إلا من باب الحميمية بين الغرض الديني والغرض الفني، ليجعل منه وسيلة للتأثير والتمكين قصد الاستجابة والإذعان. ذلك أن للإنسان جانباً وجدانياً، فلا مناص من مخاطبة هذا الجانب بلغة النظم الفني وجماله[2]، إضافة إلى أن الوعي الجمالي "متأصل في النفس البشرية"[3]؛ والتنغيم من أهم المداخل إليها، كما يشير إلى ذلك الذين كتبوا في علم النفس، حيث يؤكدون أن هناك ميلاً غريزياً لدى الإنسان إلى الكلام ذي الجرس الموسيقي الجميل[4]. ذلك لوجود علاقة بين النفس والشيء المسموع "فالأذن منفذ إلى النفس، وما يثقل سمعه تنفر من الأذن، ثم النفس، فالجمال الموسيقي ليس ترفاً ذهنياً، أو زركشة يمكن طرحها عن جوهر الموضوع"[5]، فنرى النغمة الموسيقية والأثر النفسي الذي يحدث للمرء حين سماعه الخطاب، أو الحديث، فيتفاعل وينسجم معه بالقدر الذي استحوذ على لبِّه، فيجعله مشدوداً تجاهه لا يود التحول عنه، وبذلك يكون التواصل بين المنشئ و المتلقي قد بلغ أوجه وتكون البلاغة، قد تحققت بأجلى صورها.[6]

---

(1) مناهل العرفان: 2/ 224.

(2) ينظر: البنية الإيقاعية وجمالياتها في القرآن – أ/ محمد حرير، التراث العربي، العدد (99 – 100)، رمضان – 1426هـ، تشرين الأول 2005م، السنة الخامسة والعشرون: 320.

(3) دراسات فنية في القرآن الكريم: 253 .

(4) ينظر: المدخل إلى أصوات العربية: 242 .

(5) دراسات فنية في القرآن الكريم: 291 .

(6) ينظر: الجرس الصوتي في السور المكية، دراسة تطبيقية في جزء عمَّ – د/ محمد عادل شوك، دار الشروق للطباعة والنشر، صنعاء، ط1، 1422هـ – 2001م: 14.

وهكذا يظهر للموسيقى بما فيها من إيقاعات أهمية كبيرة في تأثيرها على النفس، كونها تجمع بين الضرورات الحسية والتطلع الروحي، وتعتبر إحدى وسائل التعبير عن مشاعر الإنسان وانفعالاته، وشكل من أشكال التواصل بين البشر[1].

والإيقاع القرآني هو تلك الظاهرة المتمثلة في "اتساق القرآن وائتلاف حركاته وسكناته، ومَدَّاتِه وغُنَّاتِه، واتصالاته، ووقفاته، ذلك ما يستدعي الأسماع ويستهوي النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها كلام آخر من منظوم أو منثور"[2]، ولذة الموسيقى فيه مرتبطة بالمعاني التي تحملها الحروف، وهذا أسمى ما يتجلى في القرآن الكريم[3].

فالإيقاع في القرآن يرتبط بالمعنى المراد، ولا ينفصل عنه، فلم يُقْصَد لذاته بغرض التنغيم والإطراب بل جاء وسيلة فنية لتصوير المعاني الدينية عبر المؤثرات الصوتية[4].

إذن ليست الموسيقى القرآنية منفصلة عن المضمون الأخلاقي، بل نجدها واضحة لكل نظر دقيق، ذات هدف ديني جمالي معاً، إنها رمز هادف، ومادة طيعة في إبراز المعاني وتوضيحها.

فالقصد في القرآن الكريم الوضوح والتأثير والإقناع، ففيه تتكاتف الجزئيات لأجل التأثير، وهذا ما أدركه العرب عند سماعهم للقرآن الكريم، إذ لم يكن تأثرهم به لمجرد

---

[1] كما أصبحت الموسيقى إحدى أشكال الطب المكمل أو حتى البديل، إذ أسهمت في استعادة وتجسيم الحالة الصحية والنفسية، والفيزيقية والفسيولوجية والروحية للعديد من المرضى الذين يعانون من مشكلات تختلف في طبيعتها وأسباب حدوثها. فقد ثبت علمياً أن الموسيقى تؤثر بشكل مباشر على الجهاز العصبي إذ تؤثر كل ذبذبة أو أكثر على جزء ما بالمخ، خاص بعصب ما، مما يسهم = في إتاحة الفرصة للشخص المستمع كي يسترخي ، وهو ما يشبهه العلماء بعملية التخدير الطبي. وتتيح هذه الحالة استجماع الإرادة للتغلب على مسببات الألم، فيبدأ الجسم في تنشيط المضادات الطبيعية والإفرازات الداخلية التي تساعد الجهاز المناعي وغيره في التغلب على مصدر الداء ومكانه. [ينظر: العلاج بالموسيقى، مقدمة عن الموسيقى، www.kenanoline.com]

[2] مناهل العرفان في علوم القرآن: 2/ 244.

[3] ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم : 254 .

[4] الدراسة الأدبية : 81 .

استمتاعهم بصوتياته، "فقد عرفوا أيضاً أنها قوالب فنية لمضامين فكرية جديدة" [1]. من ذلك ما ورد في حادثة الطفيل بن عمرو الدوسي – ﷺ – قبل أن يسلم، وكان شاعراً نبيلاً وشريفاً في قومه. قال عند سماعه القرآن الكريم: "والله ما سمعت قولاً قط أحسن من هذا ولا أمراً أعدل منه فأسلمت" [2]. وكان قد وضع كرفساً – أي قطناً – على أذنيه، لئلا يسمع صوت النبي ﷺ وهو يتلو القرآن الكريم بعد أن حذره كفار قريش من ذلك.

وفي رواية عتبة بن ربيعة عندما أرسله الكفار إلى رسول الله ﷺ ليكلمه، وكان حسن الحديث، عجيب البيان، بليغ الكلام، وأرادوا أن يأتيهم بما عنده، فقرأ النبي ﷺ: "حم" فصلت من أولها حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت:13]، فوثب مخافة العذاب، وقال حسبك. وحين سأله القوم عما سمع قال "ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" [3]. وفي هذا معنى أن تأثره لم يكن بالجانب الشكلي للنص والمتمثل في الموسيقى، إنما كان ذهوله لما ورد في الآيات من ذكر للعقاب المتجلي في حادث كوني معروف وهو الصاعقة. لأن التأثر بالأصوات فحسب، يعني التخلي عن الفطرة السليمة في فهم المعاني والنظر في صورها وتركيبها.

فلا بد إذن من الربط بين الجمال الموسيقي والفكرة. فالموسيقى تساعد على جلاء الفكرة في الآيات، وتزيد في وضوحها وقوة إقناعها.

والحقيقة أن أدبية القرآن الإيقاعية مرتبطة في عمقها بالسياق العام الذي تؤطره السورة القرآنية بما فيها من ألفاظٍ و عبارات، و ما يتصل بهما من مظاهر الحركات

---

(1) دراسات فنية في القرآن الكريم: 252.

(2) السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والسير – محمد بن عبد الله بن يحيى بن سيد الناس (ت:734هـ)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت: 1/ 185.

(3) ينظر: السيرة النبوية – ابن كثير: 1/ 502، وإعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: 403 هـ)، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م: 35 – 45.

والسكنات وغيرها، حيث يتحد النص في إيقاعية موحدة تآزر بعضها بعضها شكلاً ومضموناً، وما هذا الإيقاع إلا انعكاس للجو العام الذي يطبع خصائص الخطاب في السورة[1].

لذا فقد جاءت الإيقاعية الأدبية في سورة الأنعام مسترسلة منساقة لتتناسب مع طبيعة الخطاب الخاص فيها. فكون السورة تخاطب الفطرة، سعياً نحو التأثير والإقناع، جاءت موسيقى الآيات هادئة متناسبة مع هذا الجو الإقناعي، والحوار الهادئ، ليصبح إحدى وسائل التصوير المرتبطة بطبيعة الخطاب والمؤثرة في المتلقي.

أولاً : جرس الأصوات و تلاؤم الصوت مع المعنى :

لاشك أن الإيقاع يعتمد بالدرجة الأولى على الظواهر الصوتية، وهي ظواهر يمكن أن يكون لها حضور في الخطاب على نحو من الأنحاء[2]، فالأصوات في اللغة هي "مادة الألفاظ وأساس الكلام، والعمدة في تنويع الأداء وتلوينه، وإعطائه رنيناً إضافياً يزيد من وضوح التعبير و صدقه في حمل فكرة المتكلم و التأثير في السامع"[3].

ومادة الصوت، هي مظهر الانفعال النفسي، هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في تنوع الصوت؛ بما يخرجه فيه من المد أو الغنة أو اللين أو الشدة، وبما يُهَيِّئ له من الحركات المختلفة على مقادير تناسب ما في خلجات النفس[4]. فالدلالة الصوتية وإن أسهم الحرف بشكل واسع في إجلائها، إلا أن التتابع الصوتي، وتنوعاته داخل تيار الكلام، هما اللذان

---

(1) الإيقاعية القرآنية في دراسة المحدثين و المعاصرين- د/ محمد حرير، الموقف الأدبي، العدد (413)، أيلول 2005م، السنة الخامسة:55.

(2) ينظر: البلاغة العربية (قراءة أخرى) : 354 .

(3) أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، د/ عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي، جامعة أم القرى، ط1، 1422هـ: 115.

(4) ينظر : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به: أ/ نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ : 169.

يوجهان بنيتها، بالاعتماد على ما يمنحها المتكلم من قدرة وديناميكية حركية داخل التركيب[1].

وهذا بدوره يجعل مدار الأمر خاضعاً للموقف ونوع الموضوع فهما اللذان يتحكمان في الإيقاع، ويخرجانه على صورة معينة، وهي ميزة من مميزات الإيقاعية القرآنية.

فالصوت المفرد، لا قيمة له، مستقلاً، عن السياق، وإن كان يمثل دوراً في بناء الدلالة. ويشير أحد المعاصرين إلى ذلك قائلاً : " المعنى، والصوت كلاهما مرتبط بالآخر ارتباطاً لا يقبل التفرقة"[2]، والمعاني بطبيعتها لا تظهر للكلمات أو حتى التراكيب إلا إذا دخلت في سياقات تحدد معانيها، وتوجه دلالتها.

وتسمى هذه الظاهرة بمسمى (أونوماتوبيا) [3]، وهي عملية تجسيد الصوت للمعنى، وقد وردت عند ابن جني بـ (المصاقبة والإمساس) [4]. وتمثل هذه الظاهرة ملمحاً حسياً يضاف إلى التجسيم الحسي للأدب .

لذلك نجد القرآن الكريم قد وظف الوحدات الصوتية توظيفاً جعل منها جزءاً من الإعجاز الذي تحدى به العرب[5]. فقد تستقل اللفظة بجرسها الموسيقي ونغمها الصوتي فترسم وتصور لوحة كاملة متناسقة في أبعادها و آفاقها لتُعَبِّر عن المعنى المراد و الحالة المصاحبة[6]، كما نجد موسيقى الحروف ترتبط بنظام تكوين الكلمة المفردة بوزنها واشتقاقها

---

(1) ينظر: علم اللسانيات الحديثة (نظم التحكم وقواعد البيانات) - د/ عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عُمان، ط1، 2002م ـ 1422هـ : 525.

(2) ينظر : علم اللسانيات الحديثة (نظم التحكم وقواعد البيانات): 525.

(3) ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم: 371 .

(4) ينظر: الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، حققه: محمد علي النجار، ط2، د.ت: باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني : 2/ 145 – 152، وباب (في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) : 2/ 152 – 168.

(5) الجرس الصوتي في السور المكية: 54 .

(6) ينظر الدراسة الأدبية: 87 .

ونوعها وطولها وقصرها. وتشكل هذه المقومات الفنية واللغوية (جرس الكلمة) [1] الذي يرسم المعنى من خلال إيحاءات الكلمة و ظلالها [2].

من هذا التناسب بين إيحاء الصوت والدلالة المقصودة للكلمة في سورة الأنعام، كلمة (مدراراً) في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام:6]، نجد أن الأصوات في كلمة (مدرارا) وتتابعها على هذا النحو، تحاكي أصوات وقع المطر، فعلى المستوى الإيقاعي: نجد أن وقع الأصوات في الكلمة تعطي جرساً كجرس وقع المطر، وتكرار حرف (الراء) و (الألف) بشكلٍ متتابع إنما يوحي بذلك التتابع المستمر غير المنقطع للمطر أثناء هطوله. وهو مطر دائم غير مختص بفصل من فصول السنة أو شهر من شهور العام بل هو مستمر على مدار العام، وليس في السياق ما ينفي هذا المعنى، فيصور بذلك ما كان عليه أولئك القرون من رغد العيش وسعة الرزق والنعيم المقيم باعتباره نتيجة طبيعية لتلك الأمطار الغزيرة التي منَّ الله بها عليهم.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام:17].

في كلمة ﴿ يَمْسَسْكَ ﴾، اقترنت السين بالسين، وجاءت الأولى متحركة والثانية ساكنة، فأحيطت بجرس مهموس خاص يؤثر في الحس والوجدان، ولعل هذا الترتيب

---

(1) والجرس هو: " الصفة التي تسمح بتمييز أصل الأصوات ذات الارتفاع والواحد والشدة الواحدة. فليس ثمة صوت بسيط. ولا يتولد صوت أبداً بموجة واحدة ولكن بعدّه موجات، ويؤلف مجموع هذه الذبذبات التي تتشابك (الجرس) ". [ينظر: مدخل إلى الألسنية - بول فابر كريستيان بايلون، ترجمة: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م: 145].

(2) ينظر: الدراسة الأدبية: 39 .

يومئ إلى توالي الأمراض شيئاً فشيئاً أو التعرض للمصائب مرة بعد مرة [1]. وفي همس حرف (السين) إيحاء باقتران الرحمة بهذا الابتلاء من أمراض أو نكبات، فما يتعرض له المؤمن من بلاء، إنما هو محبة من الله عز وجل ليطهره، ويزيد في حسناته، وفي الحديث عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: << إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ >> [2]. فجاء هذا التوالي لحرف الهمس (السين) ليوحي بذلك الحب وتلك الرحمة من الله عز وجل لنبيه الكريم، وسائر عباده المؤمنين.

من ذلك أيضاً كلمة (خَتَمَ) في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام:46]، حيث يتجلى في هذه الكلمة من خلال إيقاعها دلالتان، تنتج الأولى من ذلك التدرج في مخارج الصوت (خَ – تَ – مَ) الذي يوحي بذلك التدرج في عملية الختم على القلوب، بينما تنتج الأخرى من ذلك المشهد الذي ترسمه جرس الأصوات في الكلمة لتجسد كيفية الختم، وتنتقل به من صورة معنوية إلى صورة محسوسة شاخصة أمامنا. كما أن هذه الكلمة تمثل محور الآية، فالختم على القلب هو الجزاء العادل لإعراضهم وصدوفهم، لذا نجد أصواتها قد جسدت الجهد والضيق والعناء الذي يصيب المختوم على قلبه، من خلال إيقاع الأصوات التي تمثل جهداً واضحاً يبذله الناطق بها.

وفي قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام:74]. نجد الثقل في لفظ (أَتَتَّخِذُ) ناتج عن همز الاستفهام، يتلوها حرف التاء مفتوحاً ثم مشدداً، فثقل المفردة متمثل في صعوبة نطقها.

وإيقاع هذه المفردة يتناسب مع ما تحمله من دلالة الاستغراب المصحوب بالحزن والأسى، فوقعها يعكس ما يجيش في النفس من ألم، ويوحي بثقل الأمر على نفس سيدنا

---

[1] ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم: 294.

[2] الجامع الصحيح (سنن الترمذي): باب الصبر على البلاء: 4/ 601.

إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يخاطب أباه في أمر كهذا، ثم ألمه الشديد لوجود من يتخذ آلهة من دون الله، مع توفر الأدلة والآيات الكونية على وحدانيته سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[الأنعام: 80]. كما يظهر من الآية الكريمة أن السياق سياق مُحَاجّة وجدل. وسياق المحاجة يقتضي مشقة وسعة صدر وصبر طويل. وما ورد في الآية من لفظ المُحَاجَّة (حاجَّه – تحاجُّوني) وما يظهر فيهما من ثقل شديد يتمثل في المد يتبعه حرف الجيم المشدد ليُوحي بذلك الثقل وتلك المشقة التي وقع فيها إبراهيم عليه السلام في محاجته لقومه. وإن القارئ لهذين اللفظين ليتأكد بالفعل من تلك المشقة التي يستشعرها على المستوى اللغوي والمستوى النفسي أيضاً. والعنف الموجود في طيات هذه المفردات، يكمن في وجود هذا المد الطويل الذي لا غنى عنه، حتى الوصول إلى الشدة، وكأنما تصور هذه الحركات عِظَم هذه المُحَاجّة، وشدتها.

ولا شك أن استقلالية أية كلمة بحروف معينة يكسبها ذائقة سمعية تختلف عن سواها من الكلمات التي يمكن أن تؤدي نفس المعنى بما يجعل كلمة دون أخرى، مؤثرة في النفس، إما بتكثيف المعنى، وإما بإقبال العاطفة، وإما بزيادة التوقع.

ثانياً: إيقاع الفواصل:

والفاصلة في اللغة من مادة (فَصَلَ)، والفَصْل بَوْنُ ما بين الشيئين، وهو من الجسد موضع المَفْصِل وبين كل فَصْلَيْن وَصْل، والفَصْل الحاجِز بين الشيئين. وفَصَل بينهما يفصِل فَصْلاً فانفصَل، وفَصَلْت الشيء أي قطعته[1].

ويقصد بنظام الفواصل في القرآن الكريم، نهايات الآيات، كقافية الشعر وقرينة السجع، واحدتها فاصلة. وهي حروف متشاكلة في المقاطع، توجب حسن إفهام المعاني التي

---

[1] ينظر: لسان العرب: مادة (فصل).

يحتاج إليها، وتخرجها في أحسن صورة يدل عليها. [1]، ولها دورها الإيقاعي في نهاية كل آية. فهي حرة موسيقيًا، مقيدة بالمعنى، تثير استنطاقات جمالية في ختام الآيات وفقاً لمقتضى السياق السابق لها، فتتجسد فيها البلاغة وتظهر على أكمل وجه.

وقد أنكر الزمخشري أن تكون الفاصلة القرآنية لمجرد التحسين اللفظي فقال، كما نقله عنه الزركشي: "لا تحسن المحافظة على الفواصل لمجردها إلا مع بقاء المعاني على سدادها، على النهج الذي يقتضيه حسن النظم والتئامه. كما لا يحسن تخير الألفاظ المونقة في السمع، السلسة على اللسان؛ إلَّا مع مجيئها منقادة للمعاني الصحيحة المنتظمة، فأما أن تُهْمَل المعاني ويُهْتَم بتحسين الألفاظ وحده غير منظور فيه إلى مؤداه على بال، فليس من البلاغة من فتيل أو نقير"[2]. وبنى ذلك أن التقديم في قوله تعالى:﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:4]، ليس لمجرد الفاصلة بل لرعاية الاختصاص.

وهكذا فالفاصلة في القرآن الكريم، بنية جمالية قائمة بذاتها تزين مفرق الآية، وتقوي دلالتها، وهي مخزون من المعاني التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسائر مفردات الآية، حيث ترد وهي تحمل شحنتين في آنٍ واحد، شحنة من الواقع الموسيقي وشحنة من المعنى المتمم للآية. فليست من قبيل الزركشة اللفظية فحسب، بل تتضمن وظائفاً معنوية، حيث تبتغي أن يكون لها وقع في الآذان لكي تنفذ الآيات منها إلى القلوب، فلا يتوقف الهدف منها عند مجرد إمتاع الآذان بل استرعاءها للسماع والإصغاء[3]، فيتحقق ذلك التناسب المعنوي والإيقاعي في نهاية الآيات، ومن ثَمَّ يحدث التأثير والإقناع.

---

[1] ينظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: 97- 98، وإعجاز القرآن:340، والبرهان في علوم القرآن: 1/ 53، ولسان العرب : مادة (فصل).

[2] البرهان في علوم القرآن: 1/ 72.

[3] ينظر : التعبير الفني في القرآن - د/ بكري شيخ أمين ،دار الشروق، ط4 ، د.ت : 203 ، ودراسات فنية في القرآن الكريم: 461، والتعبير القرآني - د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمّار، عمّان - الأردن، ط4، 1427هـ - 2006م : 281.

ولشدة عناية القرآن الكريم بالجمال الموسيقي نجد أن أغلب فواصله جاءت بالميم والنون، والمد بالألف أو الياء يسبق معظم روي فواصله، وهي فواصل مرنة لا تستعصي على النطق، سواء أكانت ضاغطة في مواقف الشدة، أو لينة في مواقف الرحمة، وهي معبرة عن الجو الشعوري العام في الآية [1].

وقد نبه اللغويون ودارسو الإعجاز إلى هذه الخصيصة اللغوية المتعلقة بالإيقاعية، فقال الزركشي ومثله السيوطي في شأن ذلك: كَثُرَ في القرآن ختم الفواصل بحروف المد واللين وإلحاق النون، وحكمته وجود التمكن مع التطريب بذلك، كما قال سيبويه، إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والياء لأنهم أرادوا مد الصوت، ويتركون ذلك إذا لم يترنموا، وجاء في القرآن على أسهل موقف وأعذب مقطع [2].

وقد خُتِمَتْ أغلب الفواصل في سورة الأنعام بـ (ون) و(ين)، وندر مجيء الفاصلة المنتهية بـ (يم) أو (ر) فيما جاءت فاصلة واحدة على حرف (ظ).

وجاءت هذه الفواصل في نهاية الآيات متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً، يلازم نوع الصوت والوجه الذي سيق عليه[3].

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ۝ ﴾. [الأنعام: 97 ـ 99].

---

(1) ينظر: دراسات فنية في القرآن الكريم: 344، 461.

(2) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 1/ 68، والإتقان في علوم القرآن: 1825.

(3) ينظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 170.

ختمت الآية الأولى بقوله:﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. والثانية بقوله تعالى:﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ والثالثة بقوله:﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وذلك لأن حساب علوم الفلك بما فيها النجوم والاهتداء بها يختص بالعلماء، فناسب ختمه بـ ﴿يَعْلَمُونَ﴾. وإنشاء الخلائق من نفس واحدة، ونقلهم من صلب إلى رحم ثم إلى الدنيا، ثم إلى حياة وموت، والنظر في ذلك والفكر فيه أدق، فناسب ختمه بـ :﴿يَفْقَهُونَ﴾ لأن الفقه يعني فهم الأشياء الدقيقة. ولما ذكر ما أنعم به على عباده من سعة الأرزاق والأقوات والثمار وأنواع ذلك، ناسب ختمه بالإيمان الداعي إلى شكره تعالى على نعمه [1].

ومن الفواصل التي وردت في السورة الكريمة: الفواصل الواضحة، وهي التي يساق إليها الكلام سوقاً، وتبدو العبارات منظومة فيه على أسلوب معين بحيث يكون ورودها مرتقباً منتظراً لا منصرف للكلام عنها [2]. ويسمى هذا النوع من البديع الإرصاد أو التمكين وهو أن يمهد قبلها، تمهيداً تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة ولا قلقة، متعلقة بمعنى الكلام كله تعلقاً تاماً؛ بحيث لو طرحت اختل المعنى واضطرب الفهم [3].

منها ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام:10]. وهذا النوع من الفواصل يكشف عن ترابط الكلام، وأخذ بعضه برقاب بعض [4]، كما يدل على قوة السبك وتلاحم أجزائه، فضلاً عمّا يصدر عنه من إيقاع يجذب إليه الأسماع.

---

(1) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: 1810 – 1811 . وينظر: فواصل الآيات: [الأنعام: 150 ــ 153] حيث ختمت الآية الأولى: بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾. والثانية بقوله عز وجل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، والثالثة بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وقد سبق تفصيل الحديث عنها في الفصل الثاني. [ينظر: هذا البحث: 136- 137] .

(2) ينظر: في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : 137 .

(3) ينظر : البرهان في علوم القرآن: 1/ 79.

(4) ينظر : نفسه : 1/ 78.

وهناك الفواصل الخفية، وهي الفواصل التي يحتاج إدراك موقعها، ومجيئها على هذا النحو أو ذاك، إلى فطنة وتأمل[1]. منها قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:103] .

فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصراً في ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيآت ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾، وهو للطف إدراكه للمدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التي لا يدركها مدرك. ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ يلطف عن أن تدركه الأبصار، ﴿الْخَبِيرُ﴾ بكل لطيف[2] .

فجاء لفظ (اللطيف) مناسباً لما لا يدرك بالبصر، فهو يلطف عن أن تدركه الأبصار، وجاء لفظ (خبير) مناسباً لمن يدرك الأبصار، مع خبرته بها، فلا تلطف عن إدراكه، أو تخفى عليه[3].

يقول الزركشي في ذلك: فإنه سبحانه وتعالى لما قدم نفي إدارك الأبصار له، عطف على ذلك قوله ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ﴾ خطاباً للسامع بما يفهم؛ إذ العادة أن كلَّ لطيف لا تدركه الأبصار، ألا ترى أن حاسة البصر إنما تدرك اللون من كل متلون والكون من كل متكوّن، فإدراكها إنما هو للمركبات دون المفردات، ولذلك لما قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ عطف عليه قوله ﴿الْخَبِيرُ﴾، مخصصاً لذاته سبحانه بصفة الكمال؛ لأنه ليس كل من أدرك شيئاً كان خبيراً بذلك الشيء، ولما كان الأمر كذلك، أخبر سبحانه وتعالى أنه يدرك كل شيء مع الخبرة به، وإنما خصَّ الأبصار بإدراكه ليزيد في الكلام ضرباً من المحاسن يسمى العطف[4].

---

(1) ينظر : في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم : 138 .

(2) ينظر : الكشاف: 2/ 52.

(3) ينظر : جامع البيان في تأويل القرآن: 12/ 22، وتفسير القرآن العظيم: 3/ 312.

(4) ينظر: البرهان في علوم القرآن: 1/ 81 .

ولن نستمر هنا في تناول علاقة كل فاصلة بآيتها، فالمعروف أن الفاصلة ترتبط ارتباطاً بنائياً ومعنوياً بمضمون الآية التي تسبقها، كما رأينا سابقاً، بل سنتناول الفواصل في علاقتها بمجموع السورة.

فللفواصل دور كبير في إعطاء الآيات جرساً موسيقياً مناسباً، حيث يتجلى إيقاع الفواصل في السورة، باطراد الفاصلة في صورة لا تحوج إلى برهان، والتزامها الوقف على حرف (النون)، مردوفاً بحرف المد أو اللين، لا سيما (الواو) و(الياء)، باستثناء إحدى وعشرين آية، من مجموع مائة وخمس وستين آية، تنوعت فيها الفاصلة على النحو الآتي :

- الفواصل المنتهية بحرف (م) في الآيات: (13، 15، 39، 54،83، 87، 96، 101، 115، 128، 139، 145، 165).
- الفواصل المنتهية بحرف (ر) في الآيات: (17، 18، 73، 103).
- الفواصل المنتهية بحرف (ل) في الآيات: (66، 102، 107).
- الفواصل المنتهية بحرف (ظ) : الآية (104).

وهذه الفواصل على اختلاف رويها مردوفة بحرف المد (الياء)، الأمر الذي يعمل على زيادة التناسق والتجانس بين الفواصل، و يزيد في مستوى الطبقة الإيقاعية للنص.

كما أن هذا التغير في فواصل السورة، من شأنه إزالة الرتابة والملل التي قد يكتسبها النص جراء التكرار المطرد لفواصل الآيات، وذلك من خلال المفاجأة التي يحدثها تغير الفاصلة.

كما نجد أيضاً أن الفاصلة متعلقة بجو السورة موسيقياً، بما يُحْدث التأثير النفسي والوجداني. ويبدو هذا جلياً في جملة الفواصل المنتهية بـ (ون) و(ين)، وهي فواصل هادئة، ناسبتْ جو السورة وموضوعها الذي يحتاج إلى نَفَسٍ طويل، وصبر في مجادلة الخارجين عن الملة.

والملاحظ في فواصل السورة، أن توحدها يأتي مع اتحاد المعنى، في سياق الحديث عن فكرة معينة، حتى إذا انتهى السياق، عاد روي الفاصلة لما كان عليه سابقاً.

فالفواصل المنتهية بالـ (م) وردت في سياق الحديث عن صفات الله عز وجل، المتفرد بالعلم والرحمة، وفي سياق وصف الصراط المستقيم.

ومثلها الفواصل المنتهية بالـ (ر) و الـ (ل) و الـ (ظ)، فكلها فواصل جاءت في سياق الحديث عن صفات الله عز وجل، المتفرد بالعزة والقدرة، الحكيم العليم، الوكيل، الحفيظ على عباده ، الرحمن الرحيم.

والمتبع لقوله تعالى ﴿ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ۞ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ۞ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ۞ لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ۞ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ۞ ﴾. [الأنعام: 100 – 104].

يجد أن فواصل هذه الآيات الأربع قد اختلفت عما سارت عليه نمط الفاصلة في السورة، حيث انفردت كل آية فيها بفاصلة مختلفة، فجمعت بذلك كل أنواع الفواصل التي وردت في السورة، وهي: (ن) ـ (م) ـ (ل) ـ (ر)، ويعود هذا لشدة ارتباطها دلالياً بسياقها الموضعي، إذ جاءت لإثبات صفات الكمال والجلال لله – سبحانه وتعالى – والرد على أصحاب الملل الفاسدة الضالة، بالحجج البالغة والبراهين القاطعة[1]، وهو المحور الفكري لموضوع السورة وركيزته الأساسية.

فيما جاءت الآية (104) على وجه التقرير والتحقيق: ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. ففيها إحالة على كل ما ورد

---

(1) ينظر : بصائر الحق في سورة الأنعام : 102.

من حجج وردود على الشبهات، وتذكير بالآيات التي بثها الله ـ عز وجل ـ في أرجاء الكون، فجاءت فاصلتها مخالفة لكل فواصل السورة، بل من الفواصل النادرة في القرآن الكريم، فجرسها يقرع الأذن، وكأنه ينبه إلى ضرورة الاستماع وحتمية الاتباع ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾. فكانت الحاجة إلى تمييز هذه الآية وتمييز فاصلتها عما سواها من الآيات لما تضمنته من دلالات ومعان مرتبطة بالسياق الذي وردت فيه، بل والسياق العام لموضوع السورة أيضاً.

ثالثاً: التكرار:

ويرتبط التكرار بالإيقاع، حيث يحتمل الإيقاع بنية تكرارية. وتختلف أنواعه، وتتفاوت في قيمتها، وتتباين في فعلها الحِجَاجِي أيضاً، إذ يأتي التكرار في اللفظ والمعنى.

أما التكرار اللفظي، وهو ما سنفرد له الحديث في هذه الجزئية، لكونه أحد عناصر التشكيل الصوتي، والإيقاع الموسيقي، فنجده يتجلى في مستويات عِدة: الصوت، والمفردة، والتركيب، ويشمل كل وحدة لغوية مهما كانت، إذ يشمل الأجزاء الصغرى (الحروف والحركات)، والأجزاء الكبرى (الكلمات والتراكيب).

وبما أن التكرار اللفظي يشمل الحروف والكلمات والجمل، فهو بذلك يشكل إيقاعاً صوتياً.

1- **تكرار الحرف:**

يُعَدّ تكرار الحرف أبسط أنواع التكرار، وبتكراره لأكثر من مرة يتشكل ذلك الإيقاع الصوتي المؤثر.

ومن تكرار الحروف، تكرار الفواصل، بشكل منتظم، الأمر الذي يبعث على السكينة في النفس، ويجذب المخاطَب إلى الإصغاء والاستماع، كما رأينا في إيقاع الفواصل.

ومنه أيضاً ما يظهر في المخالفة الصوتية للمفردات، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:26]، المخالفة في لفظي: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و﴿ يَنْأَوْنَ﴾.

2- **تكرار الألفاظ والتراكيب :**

ويأتي التكرار في بنية السورة لألفاظ وتراكيب بعينها، فلا تكاد تخلو آية من تكرار للكلمة ذاتها، أو أحد مشتقاتها الاسمية أو الفعلية، أو تكرار للضمير المتصل أو المنفصل. حيث يأتي تناوب تكرار الألفاظ وإعادتها في سياق التعبير بحيث تشكل نغماً موسيقياً.

وهذا النوع من التكرار يمنح النص، في كل آية، إيقاعية متجددة، إضافة إلى إيقاع الحروف في الكلمة، وما تحمله من صدىً يوحي بالمعاني، ويعكس الدلالة التي وضعت من أجلها. كما أن الإلحاح على تكرار ألفاظ بعينها، يؤكد أهمية هذه الألفاظ التي تكررت، لتؤدي وظيفة دلالية على مستوى الآية والسورة معاً[1]. حيث تتجلى الفائدة العظمى للتكرار في تقرير المعنى في النفس، وقد قيل "الكلام إذا تكرر، تقرر"[2].

منها على سبيل المثال لا الحصر[3]:

- قوله تعالى:﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:59]. وفي تكرار الفعل (يعلم) تأكيد على شمولية علم الله الواسع الذي يتسع ليشمل آفاق الدنيا معلومها ومجهولها، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.
- وقوله تعالى:﴿ قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۞ قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۞﴾ [الأنعام:63- 64]. وفي هذا التكرار تقرير لقدرة الله عز وجل وعظمته، كما يظهر فيه التعجب والاستنكار، حين يتركون من بيده النجاة ويبحثون عن

(1) ينظر بشيء من التفصيل الجانب الدلالي لهذا التكرار: في الفصل الثاني، المبحث الثاني من هذا البحث: 185 – 194 .

(2) البرهان في علوم القرآن: 3/ 10.

(3) ينظر: [سورة الأنعام: 2،17، 19، 63- 64، 99، 104، 114، 136، 157، 158، 164] .

شركاء لا يملكون لهم ضراً ولا نفعا، ويظهر هذا جلياً في إسناد فعل (النجاة) إلى الضمير العائد على المخاطَب.

- وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:157].

إن في استبقاء الفعل (صدف، يصدفون) في سياق الآية، وهو استعارة تُصوّر المعرضين الصادين بالأنعام المريضة، استبقاء للاستهزاء والتهكم بمن يعرض عن آيات الله مع وضوحها، ويكذب بها مع قوة حجتها. كما أن فيها زيادة في التنبيه إلى حالهم التي لا تختلف عن حال الأنعام، نتيجة إعراضهم وعدم الانتفاع بما وهبهم الله من عقول مَيّزهم بها عن سائر الكائنات.

تكرار الضمائر:

من تكرار الضمائر ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:6]، ولأن القرون الأولى هم محور المثل والعبرة في (هذه الآية)، فقد تكرر ضمير الغائب (هم) ست مرات، إشارة إلى أهمية التركيز في ـ سياق الآية ـ على ما حدث لهم.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِهِ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:46]، تكرر ضمير المخاطب (كم)، أربع مرات (سمعكم ـ أبصاركم ـ قلوبكم ـ يأتيكم). وفي هذا التكرار تأكيد الخطاب للمتلقي، كما أن استخدام الضمير (كم) وتكراره يستبقي (قدرة الله وقوته) في مركز انتباه المخاطَب، كونه المعني بهذا الخطاب.

وفي قوله تعالى:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام:71].

تكرر ضمير المتكلم (نا) في الآية (ست مرات)، كما أن الخطاب في الآية الكريمة بصيغة الجمع (ندعو ـ نرد ـ نسلم)، يوحي بتلك العلاقة التي تجمع البشر على صعيد واحد، وهو التوجه بالعبودية لله وحده

تكرار الصيغ والعبارات:

تكرار فعل (القول) و مشتقاته:

تكرر فعل (القول) ومشتقاته في السورة (66) مرة، وفي هذا التكرار تصوير لجو الجدل والحوار الذي انطبعت به السورة.

تكرار صيغة أسلوب القصر:

من هذه الصيغ : أسلوب القصر، حيث تكرر أسلوب القصر خمساً وثلاثين مرة في اثنين وثلاثين آية [1]. وتكمن أهمية القصر في كونه إحدى البنى الرئيسة التي تعتمد في إنتاج دلالتها على المستوى العميق لأن مهمتها الإنتاجية تجمع بين وظيفتين على صعيد واحد، هما الإثبات و النفي، ما يجعلها بنية مركزية في الخطاب الحِجَاجي.

كما نلحظ أيضاً تكرار بعض العبارات منها [2]:

- في قوله تعالى:﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:70].

---

(1) ينظر: [سورة الأنعام: 4، 7، 17، 23، 25، 26، 29، 32، 38، 47، 48، 50، 57، 59، 80، 90، 102، 106، 111، 116، 119، 123، 128، 139، 154، 146، 148، 151، 152، 158، 160، 146].

(2) ينظر: [سورة الأنعام: 39، 70، 116- 117، 80 – 81، 125، 75- 79].

- وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام:116]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:117].
- وقوله: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۞ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۞﴾ [الأنعام: 80 – 81].

والحقيقة أن تكرار الألفاظ والتراكيب، الذي يشيع في بنية السورة، يوحي بسيطرتها على الفكرة العامة للسورة، كما ينبه إلى مكانة تلك الألفاظ والتراكيب، ودورها في تشكيل الدلالة ضمن سياقاتها المختلفة [1]. فالأثر الذي يتركه تكرار الكلمة أو التركيب يدل على الجو الذي يشيع فيه ذلك العنصر المكرر، ثم يُترك للسياق الدور في توضيح الدلالة. إضافة إلى ما يتضمنه من إيقاع مصاحب لتلك المعاني والدلالات، تزيد من تأثيرها في المخاطب وتساعد على التذكر والاستيعاب.

وهكذا نستطيع القول إن الفاعلية الإيقاعية في النص متسعة جداً، تفرض وجودها على سياق التشكل الصوتي للمفردات والتراكيب، انطلاقاً من جرس الأصوات وتلاؤم الصوت مع المعنى، مروراً بهيمنة صوت الروي (ن)، العنصر الفاعل في تحديد التنغيم الصوتي للفاصلة، حيث تستوعب الفاصلة من خلال رويها مساحة واسعة في بنية السورة الإيقاعية، وانتهاءً بالتناغم الموسيقي الناتج عن التكرار وما يتبعه من إيحاءات أسهمت في توضيح بنية النص دلالياً.

كما نجد أن هذا التكرار يسهم في تماسك أجزاء السورة ووحدتها، وفي إبراز العلاقات الكلية لجزئياتها، ونجده أيضاً يسهم في رفع الطبقة الإيقاعية فيها.

[1] ينظر بشيء من التفصيل: هذا البحث: 185 – 194.

الخاتمة
ونـتائج البحث

لقد كان من عظيم الفضل أن وفقني الله – جل في علاه – بأن جعل بحثي هذا في رحاب كتابه الكريم، فازددتُ به شرفاً هَوَّنَ عليّ كثيراً من الصعاب في رحلة البحث التي ترامتْ أطرافُها، وتفرقتْ شِعابُها، سعياً وراء الكشف عن (بلاغة الحِجَاج في سورة الأنعام)، لينتهي بها المطاف إلى جملة من النتائج، أوجز أبرزها فيما يأتي:

- وضَّحَ البحثُ أن دلالة الحِجَاج عند الغرب لا تختلف في الجوهر عن معناه في العربية، فهو في مضمونه يحمل دلالة التخاصم والغلبة والجدل.
- تَبَيَّنَ بعد تَقَصٍّ لأنواع الحِجَاج، أن الحِجَاج يتعدد بتعدد السياقات المرجعية له.
- أثبتَ البحثُ أن الخطاب الحِجَاجي يستمد خصائصه من الحقل التواصلي الذي يتحقق فيه، ومن ثَمَّ لا يمكن فصل الخطاب الحِجَاجِي عن سياقه المرجعي، إذ هو خاضع لإجماع متلقي الخطاب في إطار سياقي محدد ضمن أفكارٍ وقيمٍ مسلم بها، وهذا ما يجعله أكثر ارتباطاً بمجال التداوليات.
- أكَّدَ البحثُ أن العرب القدماء لم يفرقوا بين مصطلحي الحِجَاج والبرهان، فقد خلطوا خَلطاً بَيِّناً في معاني هذه المفردات، فيما فَرَّقَتْ الدراسات الحديثة بين هذَيْن المُصطَلَحَيْن، وقد وضّحنا ذلك في سياقه.
- أَشَارَ البحثُ إلى أن جذور النظرية التداولية الحديثة تمتد في أصول الدرس العربي القديم على نحوٍ يمكن ملاحظته في سهولة ويُسر.
- وضَّحَ البحثُ الدور الذي يقوم به كلٌّ من طرفي عملية التخاطُب في تكوين بنية الخطاب الحِجَاجِي: المخاطِب وما يجب أن يتمتع به من كفاية تواصلية، والمخاطَب وما يجب من مراعاة حاله عند إنتاج الخطاب.

- أثبتَ البحثُ ما للمبدأ والختام، والقصة والمثل والحوار من نجاعة حِجَاجِيَّة، ترفع من القيمة البلاغية للخطاب الذي يسعى جاهداً إلى تقرير الإقناع في نفس المخاطَب.
- أكَّدَ البحثُ أن طريقة القرآن الكريم في المُحَاجَّة لا تتجه إلى مجرد الإفحام والإلزام، بل تتجه في الكثير الغالب إلى إرشاد المخاطَبِيْن والأخذ بأيديهم إلى الحق.
- أثبتَ البحثُ دور المفردة في شحن الخطاب بطاقاتٍ حِجَاجِيَّة، ومن ثَمَّ التأثير في المتلقي، من خلال خصائصها التي تستمدُّها من بُعْدَيْهَا، اللغوي والتداولي على صعيدٍ سواء.
- بيَّنَ البحثُ ما يحمله الاستفهام من طاقة حِجَاجِيَّة في توجيه الخطاب الوجهة التي يبتغيها المخاطِب؛ في كونه يفرض على المخاطَب إجابةً محددة يمليها المقتضى الناشئ عن ذلك الاستفهام.
- وضَّح البحثُ أن أسلوب العدول عن النفي إلى الاستفهام، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآَيَاتِهِ ﴾ [الأنعام:21]، يحمل المخاطَب على الإقرار بهذا النفي، أي يدفعه إلى الإقرار بما يتضمنه تركيب الاستفهام، وفي هذا الإقرار إلزام له بقبول الحُجَّة من مجرد النفي ورد الرأي المخالف.
- يُعدُّ أسلوب الشرط من الأساليب التي تُمثِّل بنية حِجَاجِيَّة، بطرحه القضِيَّةَ وما يمكن أن ينتج عنها.
- أكَّدَ البحثُ دور التوكيد في تحقيق الحِجَاج؛ في كونه يستهدف الإقناع والبيان بتقوية المعنى وتثبيت الشيء في النفس، حيث يأتي التوكيد لتقرير المؤكَّد في نفس المخاطَب وتمكينه في قلبه.

- يُسْهِمُ التكرار في دعم الطاقة الحِجَاجِيَّة للخطاب، فتكرار الشيء واستبقائه، يعني تأكيده وإثباته والتشديد من أمره في مقابل دحض الضد، كما يُسْهِم في تماسك أجزاء النص ووحدته، ويضفي على النص طبقة موسيقية تزيد من طاقته الحِجَاجِيَّة.
- كَشَفَ البحثُ عن العلاقة الوثيقة القائمة بين الإمتاع والإقناع، ذلك حين تتحول الأساليب البيانية من مجرد زخرفة تعبيرية في سياق الخطاب إلى آلياتٍ حِجَاجِيَّة.
- أثبتَ البحثُ أن ما يُعدُّ مقوماتٍ جمالية فنية في مضمون الخطاب، هي في الواقع مقومات حِجَاجِيَّة؛ فالتأثير والاستمالة يتطلبان الإبانة والوضوح من خلال استخدام الأساليب المتنوعة التي نَجِدُ عناصرها الأساسية في المعاني البلاغية كأدواتٍ إقناعية تؤثّر في المتلقي تأثيراً يحمله على تغيير معتقداته وسلوكه.
- وأخيراً: أثبتَ البحث أن سورة الأنعام بما تجسّدتْ فيها من مقومات حِجَاجِيَّة، بعد التحليل لآياتها الكريمة وتتبع عناصر الحِجَاج وآلياته فيها، هي أكثر سور القرآن الكريم حِجَاجاً ومقارعةً لأصحاب الملل الفاسدة.

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ﴾ [يونس:10]

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين وصحبه الراشدين

ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثبت المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم.

- الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي – د/ عبد القادر فيدوح، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1992م.
- الإتقان في علوم القرآن – أبو الفضل جلال الدين بن أبي بكر السيوطي (ت:911هـ)، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، وزارة الشؤون والأوقاف والدعوة، مجمع الملك بطباعة المصحف الشريف، المملكة العربية السعودية، د.ط ، د.ت.
- ارتشاف الضرب من لسان العرب، أبو حيان محمد بن يوسف، تحقيق: مصطفى النحاس، ط1، دار المحقق– القاهرة، 1984م.
- أساسيات تعليم اللغة العربية للناطقين بلغات أخرى، د / عبد العزيز بن إبراهيم العصيلي،جامعة أم القرى، ط1،1422هـ.
- إستراتيجيات الخطاب– عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت – لبنان، ط1، 2004م .
- إستراتيجية التناص – د/ محمد مفتاح ، المركز الثقافي العربي - المغرب، ط2، 1986م.
- الاستفهام والتلقي ونشاط اللغة – طارق سعد شلبي، جذور، ج (13)، مج (7)، ربيع الآخر – يونيه 2003م.
- أسرار البلاغة– عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت: 474 هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، المدني جدة، ط1، 1412هـ– 1991م.
- أسرار التكرار في القرآن (المسمى: البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحُجَّة والبيان) - محمود بن حمزة الكرماني(ت: 505هـ)، دراسة وتحقيق: أحمد عبد التواب عوض، دار الفضيلة، د.ط، د.ت.

- الأسس الإبستمولوجية والتداولية للنظر النحوي عند سيبويه - إدريس مقبول، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، 2006م.
- الأسلوبية والأسلوب – المسدي ، الدار العربية للكتاب، ط3، د.ت.
- الأسلوبية وتحليل الخطاب – د/ منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط1، 2002م.
- الأسلوبية و نظرية النص - إبراهيم خليل ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت، 1997م .
- الأشباه والنظائر في النحو – الإمام جلال الذين السيوطي، تحقيق محمد عبد القادر الفاضلي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا – بيروت، ط1، 1420هـ – 1999م.
- الإعجاز الإعلامي في القصص القرآني (دراسة تطبيقية على سورة النمل) – د/ محمد وهدان، دار أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، ط1، 2006م.
- الإعجاز العلمي في القرآن – د/ السيد جميلي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ودار الوسام للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط2، 1992م.
- الإعجاز العلمي في القرآن والسنة - جمع وإعداد: عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، د.ط، د.ت.
- إعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: 403هـ)، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت، ط1، 1408هـ - 1988م.
- الإعجاز اللغوي في قصص نوح عليه السلام في القرآن – د/ عودة الله منيع القيسي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمّان – الأردن، ط1، 1422هـ - 2002م.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين – الإمام ابن القيم الجوزية (ت:715هـ)، تحقيق وضبط: عبد الرحمن الوكيل، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.

- إعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت: 403هـ)، قدم له وشرحه وعلق عليه: الشيخ/ محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم – بيروت، ط1، 1408هـ – 1988م.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي، راجعه واعتنى به: أ/ نجوى عباس، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 1423هـ.
- أمثال القرآن الكريم: الشيخ محمد متولي الشعراوي، أشرف عليه واعتنى به: أحمد الزعبي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ط ، د.ت.
- الاتصال والتأثير – موسى ربابعة، علامات، الجزء (27)، المجلد (7)، ذو القعدة 1418هـ – مارس 1998م.
- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين : البصريين والكوفيين، الإمام كمال االدين أبي البركات، عبد الرحمن بن محمد بن أبي سعيد، تحقيق: محمد محيي الدين، دار إحياء التراث العربي، ط4، 1380هـ – 1961م.
- الإيضاح في شرح المفصل – ابن الحاجب، تحقيق الدكتور موسى بناي العليلي، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية – بغداد، دار النفائس، بيروت، ط1، د.ت.
- الإيقاعية القرآنية في دراسة المحدثين و المعاصرين – د/ محمد حرير، الموقف الأدبي، العدد (413)، أيلول 2005م، السنة الخامسة.
- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، د.ط، د.ت.
- البرهان في وجوه البيان – إسحاق بن إبراهيم بن وهب، تحقيق: حنفي محمد شرف، مطبعة الرسالة، د.ط، 1969م.
- بصائر الحق في سورة الأنعام – عبد الحميد محمود طهماز، دار القلم – دمشق، دار الشامية – بيروت، ط1، 1410هـ ، 1990م.

- بلاغة الخطاب وعلم النص– د/ صلاح فضل، عالم المعرفة، العدد (164)، 1997م.
- بلاغة الصورة القرآنية (الجماليات والتجليات)- د/ طارق سعد شلبي، دار البراق، د.ط، د.ت.
- البلاغة العربية (أسسها، وعلومها وفنونها وصور من تطبيقاتها بهيكل جديد من طريف وتليد)– عبد الرحمن حسن حنبكة الميداني، دار القلم– دمشق، دار الشامية– بيروت، ط1، 1416هـ– 1996م.
- البلاغة العربية (قراءة أخرى)- محمد عبد المطلب، مكتبة لبنان ناشرون، ط1، 1998م.
- البلاغة فنونها وأفانينها (علم المعاني)– د/ فضل حسن عباس، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمّان– الأردن، ط9، 1424هـ– 2004م .
- البلاغة في ظل التوجهات المعرفية المعاصرة– عبد السلام خلفي، البحرين الثقافية، المجلد (12)، العدد (41)، مارس 2005م.
- بلاغة المجادلة– حسن النعمي، جذور، ج 19 ، مج 9 ، محرم 1426هـ– 2005 م.
- البلاغة العربية من حيث هي موقف تلق (استراتيجية القصد والغرض والقارئ القياسي)- صالح بن غرم الله بن زيّاد، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، إصدارات مجلس النشر العلمي– الكويت، العدد (91/ 23)، 2005م.
- البلاغة والاتصال– د/ جميل عبد المجيد، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2000م.
- البلاغة والشعرية والهيرمينوطيقا، بول ريكول، ترجمة مصطفى النحال، www. Fikrwanakd.aljabriabed.n26-04rueged.htm.
- البنية الإيقاعية وجماليتها في القرآن– أ/ محمد حرير، التراث العربي، العدد (99– 100)، رمضان– 1426هـ ، تشرين الأول 2005م، السنة الخامسة والعشرون.
- بنية الرؤيا (اللغة والدلالة وبناء الشخصية في قصة يوسف عليه السلام)– د/ رياض القرشي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء– اليمن، 1425هـ– 2000م.

- بهجة الأريب في بيان ما في كتاب الله العزيز من الغريب – علي بن عثمان بن مصطفى المارديني، تحقيق: مرزوق على إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، 2002م.
- البيان الحِجَاجِي في القرآن الكريم، سورة الأنبياء نموذجاً- د/ عبد الحميد عيسى ، مجلة التراث العربي – مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب – دمشق، العدد (102)، السنة السادسة والعشرون، نيسان 2006م – ربيع الثاني 1427هـ .
- البيان في روائع القرآن – د/ تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 1413هـ - 1993م.
- البيان والتبيين- أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت:255هـ)، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، ط7، 1418هـ - 1998م.
- تاريخ الجاهلية – د/ عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، جمادي الثانية 1384هـ - تشرين الأول 1964م.
- التداولية عند العلماء العرب: دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي – مسعود صحراوي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2005م.
- التصوير الفني في القرآن – سيد قطب، دار الشروق، بيروت، د.ط، د.ت .
- التعبير الفني في القرآن – د/ بكري شيخ أمين، دار الشروق، ط4، د.ت.
- التعبير القرآني – د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمّار، عمّان – الأردن، ط4، 1427هـ - 2006م.
- التعبير اللغوي في أمثال القرآن الكريم – د/ محمود السيد حسن، المكتب الجامعي الحديث، ط2، 2002م.
- تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ)، الدار التونسية، د.ط، 1984م.

- تفسير الجلالين - جلال الدين محمد بن أبي المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت: 911هـ)، مكتبة الخير، صنعاء، د.ت، د.ت.
- تفسير القرآن الحكيم (المسمى بتفسير المنار)- محمد رشيد رضا، دار المنار، القاهرة، ط3، 1367هـ - 1948م.
- تفسير القرآن العظيم - أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي (ت:774هـ)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ- 1999م.
- التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط- أثير الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي الغرناطي الجياني الشهير بأبي حيان (ت: 754هـ)، وبهامشه نفسيران جليلان، أحدهما النهر الماد من البحر لأبي حيان أيضاً، وثانيهما كتاب الدر اللقيط من البحر المحيط لتلميذ أبي حيان الإمام تاج الدين محمد أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي الحنفي النحوي (ت:745هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان ،ط2، 1411هـ - 1990م.
- تلخيص البيان في مجازات القرآن - الشريف الرضي، تحقيق وتقديم: د/ علي محمود مقلد، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، د.ط، 1986م.
- التلقي والتواصل الأدبي، د/ أحمد المنادي، عالم الفكر، العدد (1)، المجلد (34)، يوليو - سبتمبر، 2005م.
- التواصل الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي - د/ إبراهيم أبو عرقوب، دار مجد لاوي للنشر والتوزيع، عمّان - الأردن، ط1، 1993م.
- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط2، 1979م.

- الجامع لأحكام القرآن - أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت:671هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، د.ط، 1405هـ - 1985م.
- الجامع الصحيح المختصر، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: د/ مصطفى ديب البغا ، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت ، ط 3، 1407 هـ – 1987م .
- الجامع الصحيح (وهو سنن الترمذي)- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرَه (ت: 297هـ)، طبعة جديدة منقحة ملونة ومرقمة على كتاب تيسير المنفعة موافقة للمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، إعداد الشيخ: هشام سمير البخاري، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، 1415هـ - 1995م.
- الجرس الصوتي في السور المكية، دراسة تطبيقية في جزء عمَّ - د/ محمد عادل شوك، دار الشروق للطباعة والنشر، صنعاء، ط1، 1422هـ – 2001م.
- جماليات التصوير في القرآن الكريم – محمد قطب عبد العال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط2، 2006م.
- الجمان في تشبيهات القرآن – أبو القاسم عبد الله بن ناقيا البغدادي (485هـ)، حققه وشرحه: د/ محمد رضوان الداية، دار الفكر، دمشق – سوريا، ط1، المحرم 1423هـ - أبريل 2002م.
- الجملة العربية والمعنى – د/ فاضل صالح السامرائي، دار ابن حزم، ط1، 1421هـ - 2000م.
- جواهر البلاغة (في المعاني والبيان والبديع) – السيد أحمد الهاشمي، تحقيق وشرح: د/ محمد التونجي، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1420هـ - 1999م.
- الجواهر الحسان في تفسير القرآن – عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف أبي زيد الثعالبي المالكي (ت:875هـ)، حقق أصوله على أربع نسخ خطية وعلق عليه وخرج أحاديثه:

الشيخ: علي محمد معوض، والشيخ: عادل أحمد عبد المجود، وشارك في التحقيق: أ. د/ عبد الفتاح أبو سنة، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط1، 1418هـ – 1997م.

- الحِجَاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة (بنيته وأساليبه) – أ.د/ سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، ط1، 1428هـ – 2008م.
- الحِجَاج في القرآن (من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) – عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت – لبنان ، ط1، 2001م.
- الحِجَاجِيَّات اللسانية عند أنسكومبر وديكرو، د/ الراضي رشيد، علم الفكر، العدد (1)، المجلد (34)، يوليو – سبتمبر 2005م.
- الحِجَاج والاستدلال الحِجَاجِي - أ/ حبيب أعراب، عالم الفكر، العدد (1)، المجلد (30)، يوليو- سبتمبر 2001م .
- الحُجَّة في الاستعمال القرآني (إبراهيم وقومه نموذجاً) – إدريس حمادي، مجلة فكر ونقد ، السنة الثالثة، العدد (28)، إبريل 2000م.
- حول مفهوم الحِجَاج، مقاربة فلسفية لسانية ديداكتية - رويض محمد، مجلة فكر ونقد، العدد (26)، فبراير 2000م.
- الخصائص – أبو الفتح عثمان بن جني، حققه: محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، ط2، د.ت.
- خصائص الأسلوب في الشوقيات - محمد الهادي الطرابلسي، منشورات الجامعة التونسية، د.ط، 1981م.
- الخطابة (الترجمة العربية القديمة) – أرسطو طاليس، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم، بيروت – لبنان، د.ط ، 1979م.

- الخطاب النفسي في القرآن الكريم (دراسة دلالية أسلوبية) – د/ كريم حسين ناصح الخالدي، دار صفاء للنشر والتوزيع، عمّان، الأردن، ط1، 1428هـ – 2007م.
- خواطر قرآنية – عمرو خالد، أريج للنشر والتوزيع، القاهرة، ط4، 1425 هـ – 2004م.
- دراسات لأسلوب القرآن – محمد عبد الخالق عضيمة، دار الحديث، القاهرة، د.ط، د.ت.
- دراسات فنية في القرآن الكريم – د/ أحمد ياسوف، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، سورية – دمشق، ط1، 1427هـ – 2006م.
- دراسات لغوية تطبيقية في العلاقة بين البنية والدلالة – د/ سعيد حسن بحيري، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، د.ط، د.ت.
- الدراسة الأدبية (النظرية والتطبيق) – د/ عبد السلام الراغب، ط1، 1425هـ – 2005م.
- دراسة نصية أدبية في القصة القرآنية ، د/ سليمان الطروانة، مكتب الراوي، بغداد، ط1، 1413 هـ – 1992م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، تحقيق: د/ عبد الله عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، د/ عبد السند حسن يمامة، ط1، القاهرة، 1424هـ – 2003م.
- دروس في السيميائيات – د/ حنون مبارك، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1، 1987م.
- دلائل الإعجاز – أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت: 474 هـ)، قرأه وعلق عليه: أبوفهر محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 1424هـ – 2004م.

- دلالــة التركيــب – محمــد محمــد أبــو موســى، دار التــضامن، القــاهرة، ط2، 1408هـ - 1987م.
- دلالــة الــسياق – د/ ردة الله بــن ردة بــن ضــيف الله الطلحــي، جامعــة أم القــرى، مكة المكرمة، ط1، 1423هـ.
- دلالـة الـسياق في القـصص القـرآني - د/ محمـد عبـد الله عـلي سيف، رسـالة دكتـوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1423هـ- 2002م.
- دور الكلمـة في اللغـة – سـتيفن أولمـان، ترجمـه وقـدم لـه وعلـق عليـه: د/ كـمال بـشر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.
- ديوان امرئ القيس – تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط5، د.ت .
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والـسبع المثـاني – أبـو الفـضل شـهاب الـدين الـسيد محمــود الآلــوسي البغــدادي، إدارة الطباعــة المنيريــة – دار إحيــاء الــتراث العــربي، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.
- زاد المسير في علم التفسير- أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمـد الجـوزي القرشي البغدادي (ت: 597هـ)، المكتب الإسلامي - بيروت، ط3، 1984م.
- الــسببية والتعليــل في التركيــب الــشرطي – د/ مــصطفى جطــل، ونــاديــا حــسكور، مجلة بحوث حلب، سلسلة الآداب والفنون الإنسانية، العدد (17)، 1990م.
- السياق والنص والشعري (مـن البنيـة إلى القـراءة) – عـلي آيـت أوشـان، مطبعـة النجـاح الجديد، الدار البيضاء، ط1، 1421هـ- 2000م.
- السيرة النبوية - أبو الفداء إسماعيل بن كثير (747 هـ)، تحقيـق: مـصطفى عبـد الواحـد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، د.ط، 1396 هـ – 1971م.

- السيرة النبوية المسمى عيون الأثر في فنون المغازي والسير - محمد بن عبد الله بن يحيى ابن سيد الناس (734هـ)، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، د.ط، د.ت.
- شرح المفصل - الشيخ موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي (ت: 643هـ)، عالم الكتب الحديث، بيروت، د.ط، د.ت.
- الشعرية المعاصرة - د/ صلاح فضل، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، د.ت.
- الشعر والشعراء - ابن قتيبة (ت:276هـ)، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار المعارف - القاهرة، ط2، د.ت.
- الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية) - إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطَّار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1399هـ - 1979م.
- الصورة الأدبية في القرآن الكريم - د/ صلاح عبد التواب، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، د.ط، 1995م.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب- جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت - الحمراء، ط2، 1992م.
- الطراز - يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم العلوي اليمني (ت:705هـ)، تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، 1423هـ - 2002م.
- طرق العرض في القرآن (الأهداف والخصائص الأسلوبية) - د/ بن عيسى باطاهر، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية الثانية والعشرين، الكويت، 1422هـ - 2001م.
- ظاهرة التكرار في القرآن الكريم - عبد المنعم السيد حسن، د. دار نشر، ط1، 1980م.

- عصر الصورة، السلبيات والإيجابيات - د/ شاكر عبد الحميد، العدد (311)، ذو القعدة 1425هـ - يناير 2005م.
- العلاج بالموسيقى، مقدمة عن الموسيقى، www.kenanoline.com.
- العلامة والرمز في الفلسفة المعاصرة - د/ الزواوي بغورة، عالم الفكر، العدد (3)، المجلد (35)، مارس 2007م.
- علم الدلالة السيمانتيكية والبرجماتية في اللغة العربية - أ.د/ شاهر الحسن، دار الفكر للطباعة والنشر، ط1، 1422هـ - 2001م.
- علم اللسانيات الحديثة (نظم التحكم وقواعد البيانات) - د/ عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع، عُمان، ط 1، 2002م ـ 1422هـ.
- علم المعاني - د/ عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1404هـ - 1984م.
- علم النص (مدخل متداخل الاختصاصات) - تون. فان دايك، ترجمة وتعليق: د/ سيعد حسن بحيري، دار القاهرة للكتاب، ط2، 2005م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده - أبي عي الحسن بن رشيق القيرواني (ت:456هـ)، قدم له وشرحه وفهرسه: د/ صلاح الدين الهواري، وأ/ هدى عودة، دار مكتبة الهلال للطباعة والنشر، ط1، 1996م- 1416هـ.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية في علم التفسير - محمد بن على الشوكاني، دار الفكر، لبنان - بيروت، د.ط، د.ت.
- فنون الحوار والإقناع - محمد راشد ديماس، دار ابن حزم للطباعة والنشر، بيروت - لبنان، ط1، 1420هـ - 1999م.
- في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم - أ.د/ وليد قصّاب، دار القلم للنشر والتوزيع، دبي، 1421هـ - 2000م.

- في بلاغة الخطاب الإقناعي (مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول نموذجاً) - د/ محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع - الدار البيضاء، ط1، 1406هـ - 1986م.
- في البنية الإيقاعية للشعر العربي - د/ كمال أبو ديب، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط2، 1981م .
- في ظلال القرآن - سيد قطب، دار الشروق، بيروت، ط11، 1402هـ - 1982م.
- في ماهية النص الشعري (إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي) - محمد عبد العظيم، مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت- الحمراء، ط1، 1410هـ - 1994م .
- قبس من نور القرآن - الشيخ محمد علي الصابوني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط1، 1997م- 1418هـ .
- القرآن المعجزة الكبرى - محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
- الكتاب - سيبويه (ت: 180هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، د.ت.
- كتاب الأعلام - خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ) ، دار العلم للملايين، ط 15، آيار - مايو2002م .
- كتاب التعريفات - علي بن محمد الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، مكتبة لبنان، بيروت - لبنان، د.ط، 1985م.
- كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر) - أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، تحقيق: علي البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، د.ط، 1404هـ - 1986م.

- كتاب العين – أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 175هـ)، تحقيق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، إيران، د.ط، 1409هـ.
- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم – محمد علي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د/ رفيق المعجم، تحقيق: د/ علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان ، ط1، 1996م.
- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) – أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (ت: 1094هـ)، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه: د/ عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط2، 1413هـ - 1993م.
- لسان العرب – جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت: 711هـ)، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط3، 1419هـ - 1999م.
- لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)- محمد خطابي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م.
- اللسانيات واللغة العربية، نماذج تركيبية ودلالية، د/ عبد القادر الفاسي الفهري، دار توبقال للنشر، دار الشؤون الثقافية، آفاق عربية، بغداد ، د.ط ، د.ت.
- اللغة والخطاب – عمر أوكان، أفريقيا الشرق، بيروت – لبنان، د.ط، 2001م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر – ضياء الدين بن الأثير (ت: 637هـ)، قدمه وعلق عليه: د/ أحمد الحوفي، ود/ بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط2، د.ت.
- محاورات الأنبياء لأقوامهم في القرآن الكريم (دراسة أسلوبية) – نجيب على عبد الله السودي، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، د.ط، 1425هـ - 2004م .

- مدخل إلى الألسنية - بول فابر كريستيان بايلون، ترجمة: طلال وهبة، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1992م.
- مدخل إلى التحليل اللساني للخطاب الشعري - د/ نعمان بوقرة،عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط1، 1428هـ - 2008م.
- المدخل إلى علم الأصوات العربية - د/ غانم قدوري الحمد، دار عمار، ط 1، 1425هـ.
- مدخل لدراسة الإيقاع في قصيدة الحرب - عبد الرضا علي، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، العدد (8) لسنة 1989م.
- مشاهد الطبيعة في القرآن الكريم ، فوزي علي علي صويلح - رسالة ماجستير، جامعة إب، 1996م.
- مشاهد القيامة في القرآن - سيد قطب، دار الشروق،القاهرة، ط15، 1425هـ - 2004م.
- معالم التنزيل - الإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي (ت: 516هـ)، إعداد وتحقيق خالد عبد الرحمن العك و مروان سوار، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت- لبنان، ط1، 1406هـ - 1986م.
- معاني الأبنية في العربية - د/ فاضل السامرائي، جامعة الكويت، كلية الآداب، ط1، 1401هـ - 1981م.
- معاني القرآن الكريم - أبو جعفر النحاس (ت: 338هـ)، تحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، معهد البحوث العليمة وإحياء التراث الإسلامي - جامعة أم القرى، مكة المكرمة- المملكة العربية السعودية، ط1، 1408هـ - 1988م.
- معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم (لبيان الملامح الفارقة بين الألفاظ متقاربة المعنى، والصيغ والأساليب المتشابهة) - د/ محمد محمد داود، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2008م.

- المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار الثقافة الجديدة، مصر، 1979م.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، وكمال المهندس، مكتبة لبنان - بيروت، ط2، 1984م.
- معجم مقاييس اللغة – أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (395هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، د.ط، د.ت.
- المعجم الوسيط – معجم اللغة العربية، أخرج هذه الطبعة: د/ إبراهيم أنيس، د/ عبد الحليم منتصر، عطية الصوَّالحي، محمد خلف الله الأحمر، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول – تركيا، د.ط، د.ت.
- معرفة المخاطَب وأسلوب التفاهم- فتح الله كولن، موقع فتح الله كولن، 10/ 3/ 2007م.
- المفردات في غريب القرآن – أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت:502هـ)، ضبط هيثم طعيمي، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م.
- المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - د/ جواد علي، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، ط1، 1970م.
- المفصل في علم العربية – محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ)، دار الجيل، بيروت – لبنان، ط2، د.ت.
- مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة العربية المعاصرة – محمد سالم ولد محمد الأمين، عالم الفكر، مج (28)، العدد (3)، يناير – مارس، 2000م.
- مفهوم الحجاج في القرآن (دراسة مصطلحية) – د/ لهابة محفوظ ميارة، مجلة مجمع اللغة العربية – دمشق، الجزء(3)، المجلد (81)، جمادي الآخرة 1427هـ - 2006م.

- مفهوم الخطاب السياسي في الخطاب اللبرالي- د/ أميمة مصطفى عبود، الشبكة الليبرالية السعودية – منتديائنا العامة – صدى الصحافة والإعلام، الخميس – 8/ شباط/ 2007م.
- مفهوم النص (دراسة في علوم القرآن) – نصر حامد أبو زيد، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1996م.
- المقاربة التداولية- فرانسواز أرمينكو، ترجمة:سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، د.ط، د.ت.
- مقاييس اللغة – أبو ا لحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: 395هـ)، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل الجديد، بيروت- لبنان، د.ط، د.ت.
- مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب - د/ محمد محمد يونس علي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2004م.
- مكانة العقل والعلم في الإسلام - تأليف لجنة من العلماء والمفكرين، إعداد الشيخ: محمد جواد الفقيه، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1، 1413هـ - 1993م .
- من آليات تحليل الخطاب – صابر الحباشة، جذور، ج (22)، مج (10)، ذو القعدة 1426هـ - ديسمبر 2005م.
- مناهل العرفان في علوم القرآن - الأستاذ الشيخ/ محمد عبد العظيم الزرقاني، حققه واعتنى به: فوّاز أحمد زمرلي، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، ط1، 1415هـ - 1995م.
- من بلاغة القرآن- أحمد أحمد بدوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، د.ط، 1950م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء – أبي الحسن حازم القرطاجني (ت: 684 هـ)، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط3، 1986م.

- منهج السياق في فهم النص، د/ عبد الرحمن بودرع، كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ط1، محرم 1427هـ - فبراير 2006م.
- مهارات الاتصال - د/ راشد علي عيسى، الأمة، العدد (103)، رمضان 1425هـ.
- موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالتها - د/ محمد محمد عجينة، دار الفارابي، بيروت - لبنان، ط2، 2005م.
- الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء في عِدَّة أنواع من صناعة الشعر)- أبو عبد الله محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت: 384هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، د.ط، د.ت.
- النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي - الدلالي) - د/ محمد حماسة عبد اللطيف، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، د.ط، 2006م.
- نحو نظرية أسلوبية لسانية - فيلي سانديرس، ترجمة: د/ خالد محمود جمعة، دار الفكر، دمشق - سوريا، ط1، 1424هـ - 2003م.
- النص والخطاب والاتصال - أ.د/ محمد العبد، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، ط1، 1426هـ - 2005م.
- نظرات في الاستدلال القرآني - أ. د/ عبد الستار فتح الله سعيد، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، ط1، 1428هـ - 2007م.
- النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون (دراسة ونصوص) - فاطمة الطبال بركة، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- الحمراء ، ط1، 1413هـ - 1993م .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (885 هـ)، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط1، 1393هـ - 1973م.
- النقد الأدبي أصوله ومنا هجه - سيد قطب، دار الفكر العربي، ط2، 1954م.

- النكت والعيون، تفسير الماوردي - أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري (ت:450هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت – لبنان، د.ط، د.ت.
- وصف اللغة العربية دلالياً في ضوء الدلالة المركزية– محمد محمد يونس علي، منشورات جامعة الفاتح، الجماهيرية العظمى، د.ط ،1993م.
- Le grand Robert : Dicionnaire de la langue Francaise. T.1 Paris, 1989.
- Longman language activator, first published person education limited, England,1993, second impressin ,2003.

الفهرست

REPUBLIC OF YEMEN
SANA'A UNIVERSITY
DEANSHIP FOR HIGHER STUDIES AND SCIENTIFIC RESEARCH
FACUILTY OF LANGUAGES
DEPARTMENT OF ARABIC AND TRANSLATION

ARGUMENTATION THE RHETORIC

IN SURRAT "AL- ANAAM" (THE CATTLE)

A DISSERTATION SUBMITTED TO DEPARTMENT OF
ARBIC AND TRANSLATION IN PARTIAL FULFILLMENT
FOR THE M.A. DEGREE

BY:

EMAN MOHAMMAD AHMAD ALI AL- MAHAQERI

SUPERVISED BY:

D. AHMAD MOQBEL AL- MANSORY

1ST SUPERVISOR

2008 –2009

REPUBLIC OF YEMEN
SANA'A UNIVERSITY
DEANSHIP FOR HIGHER STUDIES AND SCIENTIFIC RESEARCH
FACUILTY OF LANGUAGES
DEPARTMENT OF ARABIC AND TRANSLATION

ARGUMENTATION THE RHETORIC

IN SURRAT "AL- ANAAM" (THE CATTLE)

A DISSERTATION SUBMITTED TO DEPARTMENT OF ARBIC AND TRANSLATION IN PARTIAL FULFILLMENT FOR THE M.A. DEGREE

BY:

EMAN MOHAMMAD AHMAD ALI AL- MAHAQERI

SUPERVISED BY:

D. AHMAD MOQBEL AL- MANSORY

1ST SUPERVISOR

2008–2009